

چون روز

أساطير الصهيونية

ترجمة: د. قاسم عبده قاسم

طبعة جديدة مزيدة ومنقحة

كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق -متميزون-

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

أساطير الصهيونية

الكاتب: چون روز.
ترجمة: د. قاسم عبده قاسم

اهداء..

إلى ذكرى توني كليف

الاشتراكي الثوري

اليهودي الفلسطيني

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

شكر وعرفان..

ساعدني أناس كثر في هذا الكتاب. أولهم وفي مقدمتهم شريكتي إلاهيه روستامي پوڤي، التي لم تقرأ كل فصل بمجرد كتابته فحسب، وقامت بتعليقات نقدية، لكنها مشجعة دائمًا، كما كان عليها أيضًا أن تعايش تغير أحوالي المزاجية ما بين حماسة أو شكوك.

أما صديقي العزيز مايكل روزن فقد قرأ الكتاب فصلًا فصلًا. وهو نوع من المحرر غير الرسمي، كان بريده الإلكتروني ورسائله التليفونية، يتسمان دائمًا بالعمق، وأحيانًا ما تكون رسائله غاضبة حانقة ولكنها عادة مرحة، مما ساعد على ثبات أعصابي.

وأخي بيتر وصديقي الفلسطيني أيهم ذكري، وكذلك أصدقائي الآخرون سابي ساجال، وفيل مارفليت، وآن ألكسندر، الذين قرؤوا فصولًا بعينها. وأشعر بامتنان شديد لتعليقاتهم.

كذلك ساعدني قسم الدراسات اليهودية في جامعة ساوثهامپتون، حيث أنهيت دراسة الماجستير سنة 2000، إذ إن بعض الأفكار التي تظهر في هذا الكتاب تم اختبارها للمرة الأولى في الندوات والمقالات التي قدمتها هناك (على الرغم من أن فكرة الكتاب جاءت في وقت لاحق).

لم يتوقف القسم أبدًا عن تشجيعي بروح مرحة، ولكنه ربما كان أيضًا حائرًا بعض الشيء في أمر ذلك الرجل المتقدم في العمر.. الداعم لأفكار تروتسكي، المعادي للصهيونية منذ أن كان مناضلًا في ثورة الطلبة عام 1968.

وقد انضم مارك ليڤين إلى القسم بعد مغادرتي. ومارك خبير في إعلان بلفور، وقد كان شديد الكرم بقراءة الفصل الذي كتبته عن رعاية بريطانيا للمستعمرة الصهيونية في فلسطين. وأعتقد أنه من العدل القول بأننا اتفقنا على ألا نتفق، ولكن المؤكد أن الفصل المذكور يدين بقوته إلى رسائلنا الإلكترونية الحادة المتضادة والتي كنا نتبادلها سويًّا.

وقرأ البروفيسور أنتوني پولونسكي، رئيس قسم التاريخ الشرقي واليهودي بجامعة برانديز، في الولايات المتحدة الأمريكية، الفصل الثالث، عن الدور الاقتصادي اليهودي في أوروبا العصور الوسطى، وقد انشرح صدري لتعليقاته.

أما سامي زبيدة، البروفيسور الفخري للعلوم السياسية والاجتماع بكلية بيربك في جامعة لندن، والباحث الشهير المعترف به في العالم العربي والإسلامي، فقد قرأ الفصل الأخير الذي كتبته عن الصلح العربي - اليهودي. وكتب إليَّ يقول كيف أنه استمتع به كثيرًا؛ إذ وجد «أنه بحث جيد وواضح ومستوعب». كذلك قرأه البروفيسور طارق إسماعيل بقسم العلوم السياسية بجامعة كالجاري، ألبرتا، ومؤلف العديد من الكتب عن تاريخ العرب الحديث. وكانت ملاحظاته المشجعة محل تقدير عظيم.

وثمة مناقشة جرت مع جوناثان توب، في قسم الشرق الأدنى القديم بالمتحف البريطاني عن الأزمة التي تواجه الدراسات الأثرية الإسرائيلية وفشلها في العثور على «إسرائيل الكتاب المقدس»، وهي مناقشة لا تقدر بثمن، وكان تقديري عظيمًا لأن جوناثان قرأ الفصل الذي كتبته عن هذه المسألة الأخاذة.

وكان البروفيسور موشي ماكوفر الاشتراكي، والمعارض والمقاتل القديم ضد الصهيونية، على استعداد دائم لأن يجيب عن استفساراتي التي أرسلها بالبريد الإلكتروني، مهما كانت صعبة أو تافهة، وبالإضافة إلى ذلك، فإن تحليله الثاقب العادل للمخطوط النهائي لا يقدَّر بثمن. وأدين له بشكر خاص على هذا.

أما چورچ بايزيس، ومرتضى صاحب زاده، ورولاندرانس، فقد ساعدوا أيضًا بالأفكار والاقتراحات. وقد برهنت مواهب رولاند الكثيرة، بما في ذلك معرفته الموسوعية عن المواقع ذات الصلة بالموضوع على الإنترنت، على أنها أرصدة لا غنى عنها.

وأخيرًا، أود بشكل خاص أن أشكر سابي ساجال، وعفيف صافية المندوب الفلسطيني العام في المملكة المتحدة، والبروفيسور كالينيكوس، وموشي ماكوڤر، وإيلان بابي؛ لأنهم قرؤوا المخطوط النهائي وعلقوا عليه.

مات پول فوت قبل شهرين من نشر كتابي، وقد كان يتطلع إليه بشدة.. كل ما أتمناه هو أن يكون الكتاب عند حسن ظنه.

چون روز

سبتمبر 2003م

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تقديم

نشأت فكرة هذا الكتاب للمرة الأولى في صيف سنة 2002، في أعقاب ملاحظات عنصرية صفيقة أطلقها رئيس الوزراء السابق إيهود باراك من حزب العمل الإسرائيلي، عندما زعم أن «الكذب» جزء جوهري في الثقافة العربية (آرورى 2003-173). انعكس هذا الانفجار العاطفي غير العادي بشكل غاية في السوء على باراك، وربما يشي بشيء مماثل عن العملية النفسية التي تسمى «الإسقاط»، ألم يكن يسقط على عدوه كشفًا عن أفكاره السياسية الخاصة ومعتقداته المدفونة في أعماق نظامه العقلي؟ المؤكد أن الفلسطينيين يرون من خلال تجربتهم أن الصهيونية عبارة عن صرح من الأكاذيب.

خُذ مثالًا بسيطًا، عندما كان باراك رئيسًا للوزراء، كان عدد المستوطنات اليهودية »غير القانونية« في الضفة الغربية قد تزايد، على الرغم من التزامه المفترض ب«عملية السلام». والسياسيون الصهاينة أمثال باراك يدثرون ادعاءاتهم حول الضفة الغربية بعباءة الأسطورة الدينية، ويستشهدون بحكايات الكتاب المقدس عن «أرض إسرائيل القديمة». وعلى أي حال، فإنه بالنسبة للفلسطينيين الذين عاشت عائلاتهم على هذه الأرض الفلسطينية وزرعوها على مدى الأجيال، تبدو هذه الأسطورة كذبة ضخمة، لتبرير سرقة أرضهم.

ما الذي يميز كذبة عن أسطورة وفقًا ل«Concise Oxford Dictionary»؟ الكذبة تعني «بيان زائف عمدًا»، «خداع متعمد»، على حين أن الأسطورة مفهوم «ذائع الانتشار ولكنه مزيف»، دون أن يكون فيه خداع متعمد بالضرورة. ولكن إذا جربت مجموعة من الناس الظلم والاضطهاد نتيجة لأسطورة الزيف، فمن المؤكد أنه لا يهم بالنسبة لهم ما إذا كان الزيف خداعًا عمدًا في أصله.

وحجة هذا الكتاب أن الصهيونية مبنية على سلسلة من الأساطير. مجموعة من المفاهيم الزائفة التي تقوض مزاعمها عن الديانة اليهودية والتاريخ اليهودي، كما أن أساسها الجوهري -كاستجابة لنزعة معاداة السامية الأوروبية- فضلًا عن تبريرها لوضعها السياسي العدواني، أمر بالغ الخطورة في أرض فلسطين.

والفصول التالية تتعامل بشكل مباشر مع الأساطير، بالرد على مزاعم محددة اصطنعتها الأيديولوچيات الصهيونية، أو على المعتقدات واسعة الانتشار التي صارت جزءًا من الفولكلور الصهيوني.

ساعد أعظم صناع الأساطير الصهيونية، داڤيد بن جوريون، دون قصد على تشكيل أول وآخر فصول الكتاب. هذا المزور للحقائق كان أول رئيس وزراء إسرائيلي وأكثر زعماء الصهيونية نجاحًا في القرن العشرين. بن جوريون تباهى مرة بأن الأسطورة يمكن أن تصبح حقيقة إذا آمن الناس بها بما يكفي من القوة.

وقد استخدم بحذق ومهارة، خفة اليد الثقافية، لكي يتلاعب باحتراف بقصص الكتاب المقدس، بحيث تناسب المزاعم السياسية للصهيونية على الأرض الفلسطينية.

ويفند الفصل الأول استخدام بن جوريون الفاحش جدًا للأساطير الدينية، وبالتحديد أسطورة

أن الكتاب المقدس «فوضه أمر» إعلان دولة يهودية في فلسطين. ويوضح الفصل، مع تطور الطرح المقدم فيه، كيف أن علم الآثار الإسرائيلية الآن قلل من مصداقية المزاعم الصهيونية حول (إسرائيل القديمة)، والفصل العاشر يوضح كيف أن بن جوريون دمر أي احتمالات لمصالحة عربية - إسرائيلية. إذ إنه خرب المحادثات السرية مع عبد الناصر، الذي كان أهم زعيم قومي عربي في القرن العشرين، والذي كان يسعى إلى سلام مشرف مع إسرائيل. ذلك أن «تنظيم الضباط الأحرار»، بما فيه ناصر، الذي قاد ثورة مصر الوطنية في سنة 1952م، كان قد قطع شوطًا كبيرًا لبناء جسور مع المجتمع اليهودي في البلاد.

ويشير سلوك بن جوريون هنا إلى أهم استنتاج في الكتاب، بأن الصهيونية هي مصدر العداوة العربية - اليهودية، وتعتمد أي احتمالات للمصالحة العربية - اليهودية على إزاحتها.

وتتطلب فكرة المصالحة «العربية - اليهودية» سؤالًا حيويًا حول تجاهل تاريخ آخرَ أسبق زمنًا. إذ إن الثورة الإسلامية، قبل ما يزيد على ألف وثلاثمئة سنة، بشرت بما أسماه العديد من الباحثين «التعايش» بين العرب واليهود مما أنتج ثقافة عربية - يهودية، أو حتى ثقافة يهودية - إسلامية، وليس مجرد ثقافة يهودية باللغة العربية (الفصل الرابع، والفصل العاشر).

بل إن من المحتمل أن طبقة التجار اليهودية فائقة الحركة -التي تولت زمام قيادة اليهودية في أوروبا العصور الوسطى وساعدت على وجود فترات آمنة من الازدهار والاستقرار لليهود في تاريخ أوروبا القديم (الفصل الثالث)- كانت جذورها، جزئيًا على الأقل، تضرب في هذه الفترة الإسلامية اليهودية المبكرة. ومن المؤكد أن هذه كانت وجهة نظر أبرز باحثي القرن العشرين في التاريخ العربي اليهودي، البروفيسور س. د. جوبتين (الفصل الرابع والفصل العاشر).

ولكن ما علاقة هذا بتفنيد أساطير اليهودية؟ هناك إجابتان مختلفتان تمامًا.

أولاهما: أن الصهيونية تتجاهل المكون العربي الإسلامي في التاريخ اليهودي. وثانيهما: أن الصهيونية لا ترى سوى «المعاناة» اليهودية خلال ما يسمى «النفي»، لا سيما في أوروبا.

وأسطورة «النفي» لها سخافتها المخصوصة، وقد سيستها الصهيونية عندما جلبتها من قصص الكتاب المقدس. وهي تشير إلى ما يقرب من ألفي سنة من التاريخ اليهودي من هدم المعبد في القدس على أيدي الجيش الروماني سنة 70م، حتى مولد إسرائيل في سنة 1948م. ويعتبر اليهود الذين كانوا يعيشون خارج فلسطين في هذه الفترة منفيين عاشوا في «المنفى». لا يبدو التعايش العربي - اليهودي نوعًا من «النفي» بأي حال. والحقيقة أن اليهود كانوا قد استوطنوا منطقة الهلال الخصيب (التي حولت بريطانيا جزءًا كبيرًا منها إلى العراق في بدايات القرن العشرين)، لا سيّما المنطقة المحيطة بمدينة بابل القديمة، قبل عدة قرون مما يُسمى النفي. وإلى هذا اليوم يتحدث اليهود الإيرانيون والعراقيون بفخر عن تاريخ متواصل على مدى 2500 سنة. والتلمود البابلي، الذي بقي المرشد الروحي لكل اليهود المتدينين، ومنهم اليهود الأوروبيون، هو في حد ذاته شهادة على أهمية هذه الجماعات اليهودية. وبعد الثورة الإسلامية، حلت بغداد محل بابل باعتبارها المركز الروحي لكل الجماعات اليهودية، بما في ذلك الجماعات اليهودية الصغيرة جدًّا، في ذلك الوقت، بأوروبا.

ويتحدى الفصلان الثاني والثالث أساطير «المنفى» و«المعاناة»، ففي الفصل الثاني نرى كيف أنه في وقت سقوط المعبد بالقدس، منذ نحو 2000 سنة، كان معظم اليهود يعيشون خارج

فلسطين، مبعثرين في جميع أنحاء الإمبراطورية الرومانية وما وراءها، ولم تكن بابل استثناءً في ذلك.

أما الفصل الثالث فيواجه بروز طبقة التجار اليهودية، في أوروبا العصور الوسطى إلى أسطورة «المعاناة». والآن لا يوجد شك في أن الدور الاقتصادي اليهودي في أوروبا العصور الوسطى كان يمكن أن يفاقم، بل ويحفز نزعة عداء السامية التقليدية في المسيحية. ولكن الصهيونية تحكي جانبًا واحدًا فقط من القصة. إذ كان الحكام المسيحيون على استعداد دائم لحماية رعاياهم اليهود الذين كانوا ناشطين اقتصاديًّا وفي غاية النجاح أحيانًا. وعلى أي حال، فإن الصهيونية تتخلص من المناقشة الجادة، دعك من التحليل، للدور الاقتصادي اليهودي في التاريخ الأوروبي الباكر.

هذا محض نفاق، إذ كان على الصهيونية أن تواجه الصورة غير المتوافقة زمنيًّا «للتاجر والمالي اليهودي» التي عاشت إلى ما بعد حركة التنوير الأوروبية بنفس الروح التي عمرت بها الحركات اليهودية الأخرى الأهم كثيرًا والتي خرجت من رحم التنوير والاندماجيين والاشتراكيين. و«شيلوك» الشخصية اليهودية المثيرة للجدل التي ابتدعها شكسبير، ينتمي بجذوره إلى هذا التاريخ اليهودي الأوروبي الباكر. لا يمكنك أن تتجاهل «شيلوك»، إنما عليك أن تشرحه. ويحاول الفصل الثالث أن يقدم مثل هذا الشرح.

وقد طرحت حركة التنوير وعدًا بالاندماج. إذ إنها كانت إعلانًا عن حقوق جديدة للمواطنة والحريات في أوروبا وأمريكا، ليعيش اليهود جنبًا إلى جنب مع المسيحيين. وتضمن هذا التحرر من الدور الاقتصادي الضيق الذي كانت أوروبا المسيحية قبل العصر الحديث قد حاولت أن تفرضه على اليهود. وبدأت الثورة الأمريكية سنة 1776م، والثورة الفرنسية 1789م في تحويل الوعد إلى حقيقة سياسية عملية. وللأسف، فإن الثورة في الإمبراطورية الروسية حيث كانت تعيش غالبية اليهود -والتي بلغت ذروتها في بواكير القرن العشرين- قد أخفقت في الوفاء بذلك الوعد. وكشف الفصل السادس الخلفية التاريخية، ويبرهن على أن الجذور الحقيقية للصهيونية تكمن هناك.

أما الفصول: الخامس والسابع والتاسع فتكشف الأثر المدمر العميق للصهيونية على العرب وأرضهم في فلسطين، حسبما ظهر أيضًا في العالم الحديث. ويفند الفصل الخامس النصف الأول من الأسطورة الصهيونية الشهيرة «أرض بلا شعب لشعب بلا أرض». ويفند الفصل السادس النصف الثاني منها. ويحاول الفصل الخامس أن يعيد الحياة للجماعات الفلاحية العربية في الأرض الخاوية بفلسطين قبل وصول الصهاينة في القرن التاسع عشر. وبقدر نجاح الفصل في هذا، فإن الفضل ينبغي أن يُنسب للمؤرخ اللامع -قليل الحظ من الشهرة- بشارة دوماني، الذي أقتبس في هذا الفصل أبحاثه دون خجل.

ويكشف الفصل السابع والتاسع أسطورة أن مزاعم الصهيونية بشأن الاستقلال الوطني اليهودي والتحرير، يمكن مقارنتها بنضال الشعوب المقهورة في أماكن أخرى بالعالم في القرن العشرين. فالحقيقة أن الصهيونية مثلت حركة في الاتجاه المضاد. وبعد الحرب العالمية الأولى، ساعدت على تقوية الحكم الاستعماري البريطاني على العالم العربي. وبعد الحرب العالمية الثانية، لم تكن الدولة اليهودية المختلقة حديثًا سوى رصيد استراتيجي لمخططات الولايات المتحدة الإمبريالية الجديدة للمنطقة العربية. وفي كلتا الحالتين، كانت الصهيونية معتمدة على القوى الإمبريالية

الغربية تمامًا.

هذه الفصول تلقي بعض الضوء المدهش على المجادلات المألوفة. فمثلًا يكشف الفصل السابع كيف أن إعلان بلفور سنة 1917م، الذي مهد الطريق أمام الدولة اليهودية، له جذور أعمق مما يدرك معظم الناس. ذلك أن آرثر بلفور، الوزير البريطاني المحافظ الذي ارتبط الإعلان باسمه، كانت تحركه معتقدات معادية للسامية. ولم تنتقل عدوى معاداة السامية المنسوبة إليه إلى بقية وزارة دافيد لويد الحربية فقط، وإنما أذعن إليها بسعادة الزعماء الصهاينة من أمثال حاييم وايزمان.

ويكشف هذا عن جانب من الصهيونية مزعج تمامًا، ومخفي عادة، وهو جانب نقابله أيضًا في الفصل السادس مع تيودور هرتزل، مؤسس الصهيونية، كان ذلك استعدادًا لدعم الآراء الأوروبية المعادية للسامية عن اليهود. ونقولها صريحة: كان الزعماء الصهاينة على استعداد تام لأن يقولوا للسياسيين الأوروبيين الذين يتصرفون من منطلق رد الفعل «في بلادكم يهود أكثر مما ينبغي»؟ ساعدونا على التخلص منهم إلى فلسطين.

كذلك يناقش الفصل السابع زعمًا غير تقليدي، بأن الدافع الأساسي وراء إعلان بلفور كان اعتقاد وزارة الحرب البريطانية، بأن القوة اليهودية في أمريكا وروسيا سوف تساعد على تقوية مركز الحلفاء في الحرب ضد ألمانيا.

الملهم الرئيس وراء الفصل التاسع هو نعوم تشومسكي، ومثلما لاحظ إدوارد سعيد، أعظم مفكري فلسطين، فإن كتاب Fateful Triangle لتشومسكي، ربما يكون أكثر الكتب طموحًا من حيث محاولة تناول الصراع بين الصهيونية والفلسطينيين من زاوية الدور الأمريكي المركزي في هذا الصراع.. ويمكن قراءته على أنه حرب طويلة بين الحقيقة وسلسلة من الأساطير -إسرائيل الديمقراطية، استخدام إسرائيل الطاهر للسلاح، الاحتلال الرحيم، لا عنصرية ضد العرب في إسرائيل- هذا العمل يستحيل مجاراته، وإذا كان هذا الفصل لا يفعل شيئًا سوى إقناع الناس بقراءة تشومسكي، فإنه يكون قد حقق غرضه.

وعلى أي حال، فإن الفصل يحاول أن يكون على قدر من الأصالة. فتحت حكم الرئيس چورچ بوش الابن، بدت العلاقات بين الولايات المتحدة وإسرائيل معكوسة أحيانًا بشكل غريب، وبعيدًا عن أن إسرائيل تخدم مصالح الولايات المتحدة في الشرق الأوسط، ألم تبدأ الولايات المتحدة في خدمة مصالح إسرائيل؟

ويغلب على الظن أن اليهود الأمريكيين من المحافظين الجدد، في قلب إدارة بوش، كانوا مهندسي هذا الانقلاب في السياسة. ومن المؤكد أن لبعض هؤلاء المحافظين الجدد جذورًا تمتد إلى حزب الليكود المتعصب في إسرائيل (الحزب الحاكم وقت تأليف هذا الكتاب في صيف 200م). وثمة عامل معقد يتمثل في أن هذه الزمرة القبيحة قد بعثت الحياة مجددًا في اتهام قديم بمعاداة السامية تستخدمه المؤامرة الصهيونية. ويحاول الفصل التاسع بعناية أن يفند الاتهام، وينظر إلى أي مدى انصاعت إدارة بوش للمحافظين الجدد.

ويتحدى الفصل الثامن أسطورة أن الهولوكوست أو ما يُسمى مذابح النازية ضد اليهود يقدم حالة لا يمكن الرد عليها في الدفاع عن الصهيونية. فبينما لا يوجد شك في أن الهولوكوست(1) يشكل إحدى أخطر الجرائم في التاريخ الإنساني فإن ذلك لا يبرر اختلاق دولة يهودية قائمة على

أساس الإقصاء العنيف لشعب آخرَ من أرضه، وهو ما حدث بالضبط سنة 1948م. لقد كانت تلك لحظة فاصلة بالنسبة لكل من الصهيونية والفلسطينيين الذين يذكرونها باعتبارها نكبة. وبالإضافة إلى أن ما حدث هو أبعد ما يكون عن كونه رد فعل مشروع للهولوكوست، فإن الهولوكوست إذا ما تذكرناه بشكل صحيح هو نفسه يدين الأفعال التي تسحب الأساس الأخلاقي من أولئك الذين يستغلونه على هذا النحو. ويجادل الفصل الثامن من خلال استخدام كتابات وتحليلات حول الهولوكوست، بأن الرفض الأيديولوجي الأعمى لفهم الحقائق السياسية للشعب الفلسطيني، له قدرة في حد ذاته على جعل الصهيونية حركة راديكالية، مما يغريها بتصرفات عنيفة أشد من ذي قبل ضد الشعب الفلسطيني.

ونحن نعرف من تاريخها القصير والدموي كيف يمكن أن يتحول هذا العنف إلى تطهير عرقي. ولدينا دلائل تاريخية صادمة من قرية دير ياسين الفلسطينية سنة 1948م وفي معسكرات اللاجئين الفلسطينيين في صابرا وشاتيلا ببيروت سنة 1982م وقد صك كاتب إسرائيلي راديكالي مصطلحًا جديدًا لهذه العملية هو «Politicide»، بمعنى «إيجاد نهاية للوجود الفلسطيني»، التي ترمز إليها سياسات الزعيم الإسرائيلي آرييل شارون. [Kimmerling 2003:3]

وتتسم الدولة اليهودية بعجز فطري عن الاعتراف بمسؤوليتها عن النكبة، وفي الحقيقة فإن ظِل اللاجئ الفلسطيني قدَر سيطاردها إلى الأبد، ماديًّا وسياسيًّا وأخلاقيًّا ونفسيًّا، ثم عسكريًّا في نهاية الأمر. إذ إن حركة المقاومة الفلسطينية المسلحة التي كان يقودها ياسر عرفات ومنظمة التحرير الفلسطينية، تضرب بجذورها العميقة في معسكرات اللاجئين المنتشرة في معظم أنحاء العالم العربي. وعلى الرغم من أن الأمر استغرق عشرين سنة لكي تظهر منظمة التحرير الفلسطينية، فإنها كانت بالنسبة للدولة اليهودية الوجه الآخر السالب. لقد كان للمنظمة الحق السياسي والأخلاقي في أن تطالب باعتراف على أسس عادلة واعتراف بطلبها العادل للعودة لأرض فلسطين.

ويجسد الانتحاري الذي يفجر نفسه بالقنابل في مطلع القرن الحادي والعشرين إخفاق الدولة اليهودية في فهم هذا. ففي بعض الأحيان يكون الانتحاري حرفيًّا اللاجئ الذي لم يسمح له بالعودة إلى وطنه.

وعلى امتداد هذا الكتاب، استخدمت عبارة معاداة السامية لوصف كراهية اليهود. وأنا أدرك تمامًا أن هناك جدلًا حول هذا المفهوم (بل حتى في كيفية تهجئته) ولكن هذه حذلقة لا أظن أنها تخصنا هنا.

إذا كان هذا الكتاب يقترح الحاجة الملحة لتاريخ يهودي بديل، سواء القديم أو الحديث، بدلًا من التاريخ الذي أقحمه الصهاينة علينا في القرن العشرين، فإن هذا يكون إضافة جيدة. ولكنني لا أزعم أنني كتبت مثل هذا التاريخ. إذ إن اهتمامي الأساسي كان منصبًّا فقط على هدم التاريخ الأسطوري الذي اصطنعته الصهيونية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الأول:
الكتاب المقدس هو مصدر سلطتنا

عندما حذر داڤيد بن جوريون السلطات البريطانية -عن طريق اللورد پيل والبعثة الملكية(2)- سنة 1936م من أن «الكتاب المقدس هو مصدر سلطتنا (Ben Gurion 1970: 107)». كان السياسي الصهيوني الأشهر في القرن العشرين، والذي صار فيما بعد أول رئيس وزراء إسرائيلي، يقدم تعبيرًا حديثًا عن أسطورة أصولية تمامًا من الكتاب المقدس، وهي أسطورة تمثل قلب الصهيونية. فكما جاء في العهد القديم، كانت مملكة إسرائيل اليهودية القديمة والتي تُدعى أحيانًا إسرائيل القديمة وتُسمى أحيانًا مملكة داوود وسليمان المتحدة، موجودة من نحو سنة 1000 حتى سنة 922 ق.م. ويزعم أنها كانت أقوى دولة والأكثر رخاءً بين دول شرق المتوسط في ذلك الوقت، وتبسط سيادتها من نهر الفرات في بلاد الشام حتى تخوم مصر (وادي العريش) شمال سيناء.

وتتطابق هذه الحدود مع الوعد الذي يقال إن الرب أعطاه لإبراهيم أبي الأنبياء ومسجل في سفر التكوين، الذي هو الفصل الافتتاحي في الكتاب المقدس:

(وأعطى لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك، كل أرض كنعان ملكًا أبديًّا. وأكون إلههم) (تكوين 17-8).

هذا هو الأساس الذي يقوم عليه المفهوم الجغرافي السيئ للرؤية الصهيونية. أرض إسرائيل، الصخرة التي تقوم عليها الأيديولوجية الصهيونية(3). وهي خليط قوي من اليهودية القديمة والقومية الحديثة، التي تحتفي بالوعد الذي أُعطي لإبراهيم، وتزعم أن مملكة داوود هي تعبيرها السياسي ونموذجها الحديث المانح للشرعية في حدّ ذاته.

عند هذه النقطة يحتاج القارئ إلى التنبيه إلى خاصية مفزعة بشأن بن جوريون، وهي خاصية يشترك فيها مع غيره من زعماء الحركة الصهيونية. ذلك أن بن جوريون لا يؤمن بشكل خاص بهذه القصة الواردة في الكتاب المقدس، أو بأي قصة أخرى بهذا الشأن ولكن ما كان يهمه -كما قال- هو أن يهودًا كثيرين يصدقونها بالفعل. وكان هذا كافيًا. فلا يهم ما إذا كان الاعتقاد صحيحًا أم لا. إعطاء معنى لهذا النظام العقائدي الغريب، هو من الأعراض العامة المتأصلة للأيديولوجية الصهيونية، هو الذي سوف يشكل أساس النصف الأول من هذا الفصل. وسوف نتأمل حينئذ شيئًا أشد مدعاة للدهشة: إن الصهاينة علماء آثار عظماء. لقد كان البحث عن الآثار نوعًا من الهوس الوطني، وظلوا على مدى أكثر من مئة سنة يقومون بحفائر في فلسطين بحثًا عن «إسرائيل القديمة». وفي مناسبات تم الإعلان عن اكتشافها في تصريحات زائفة مبالغة في الحماس، ثم لا تلبث أن تنهار ولا تصمد أمام التمحيص العلمي المكثف. ثم حدث في تسعينيات القرن العشرين، أن بدأ يتضح الإدراك بأنها يمكن ألا تكون موجودة.

وبعض علماء الآثار الإسرائيليين ذائعي الصيت أدركوا حينئذ أن ما يسميه العلماء أحيانًا «تحول النموذج» قد صار ضرورة. وبعبارة أخرى، كان الإطار المسلَّم به المستخدم في محاولة تفسير الاكتشافات الأثرية هو نفسه المشكلة. وبشكل صريح، فإن قصص العهد القديم -بعيدًا عن

تقديم خطوط إرشادية للكشف الأثري- قد برهنت على أنها عراقيل وعقبات.

ويخلص الفصل إلى النظر في كيفية أن علماء الآثار يتوافقون مع ما يعتبر ثورة عقلية في التفكير حول فلسطين القديمة، وكيف أنهم وجدوا أنفسهم -دونما قصد- يتحدون الأسطورة الصهيونية التي هي جوهر الهُوية الإسرائيلية الحديثة.

بن جوريون: رائد صهيوني..

كان داڤيد بن جوريون، المولود في بلونسك، بولندا، سنة 1886م، جزءًا من جيل من الشباب اليهود في الإمبراطورية الروسية الذين صدمتهم تجاوزات المذابح، وأعمال الشغب المعادية لليهود، والهجمات القاتلة على الجماعات اليهودية. (هذه الفترة بما فيها نشاط الشاب بن جوريون في بولندا، معروضة بالتفصيل في الفصل السادس) وصار بعض هؤلاء الشباب اليهود أعضاء في الحركة الصهيونية، وقليل منهم، كان بن جوريون من بينهم، ذهبوا للعيش في فلسطين. وكانت هناك بالفعل مستوطنات زراعية صهيونية قليلة في فلسطين التي كانت في ذلك الوقت جزءًا من الإمبراطورية العثمانية (نوقشت في الفصل الخامس). وعند وصول بن جوريون إلى فلسطين سنة 1906م ذهب ليبحث عن المستوطنات الزراعية التي كان يصفها بالفعل بأنها «جمهوريات عبرية» (Teveth 1987: 40). في ذلك الوقت كان هناك خمسة وخمسون ألف يهودي في فلسطين من إجمالي عدد السكان البالغ سبعمئة ألف. وكانت هناك أقلية صغيرة من اليهود تعمل في المستوطنات. وسرعان ما اكتشف بن جوريون أنه على الرغم من أن هذه المستوطنات تم بناؤها على أرض تم شراؤها من ملاك الأرض العرب الغائبين، فإن الفلاحين الغاضبين لأسباب منطقية والذين تم طردهم من الأرض قد عادوا لشن غارات مسلحة. وفي وقت باكر منذ سنة 1909م نجد بن جوريون، وبيده البندقية، مستعدًّا للدفاع عن مستوطنة زراعية في الجليل (Teveth 1978: 45).

وقد ترك بن جوريون بصمته على السياسات الصهيونية في فلسطين مباشرة. فقد كان في المؤتمر التأسيسي لبوال زيون (أي حزب العمال العبرانيين الديمقراطي الاشتراكي في فلسطين، والذي ناقشت سياساته في الفصل السادس). وفي سنة 1906م، انتخب عضوًا في اللجنة المركزية للحزب Teveth 1987: 45)). وسوف يواصل حزب العمال مسيرته بحيث يصير القوة الحاسمة في السياسات الصهيونية في معظم فترات القرن العشرين، وقيض لبن جوريون أن يصبح الأكثر نجاحًا وكارزمية بين زعمائه.

... وصانع أساطير.

في هذا الفصل نركز اهتمامنا على محاولة فهم نظام المعتقدات لدى بن جوريون. وهو يقدم رؤية ثاقبة لا نظير لها في داخل صناعة الأساطير الصهيونية. ويشرح بن جوريون بنفسه هذه المسألة على نحو جيد للغاية:

(ليس مهمًّا ما إذا كانت القصة تسجيلًا لحدث أم لا. ولكن المهم هو أن هذا هو ما يعتقده اليهود، من فترة المعبد الأول) (Pearlman 1965: 227).

وهناك كاتب اسمه ييزهار، صار فيما بعد جزءًا من هيئة مكتب بن جوريون الداخلية، قد حاول مؤخرًا أن يدافع عن الزعيم الصهيوني ضد الاتهام، بأنه من خلال خلط الحقيقة (بالاعتقاد بالحقيقة) كان يعتمد التلاعب بالحقيقة لحساب تشكيل الأساطير؛ لكي تناسب الذرائع

السياسية للمشروع الصهيوني. وباختصار يحاول ييزهار ليَّ الحقائق فيما بين الأسطورة والحقيقة:

(إن الأسطورة ليست أقل من التاريخ من حيث كونها حقيقة، ولكنها حقيقة إضافية، حقيقة مختلفة، حقيقة موجودة بإزاء الحقيقة، حقيقة إنسانية غير موضوعية، بيد أنها حقيقة تشق طريقها صوب الحقيقة التاريخية) (Wistrich and Ohana 1895:61).

ويبدو هذا نوعًا من الكتابة الحاذقة، وربما حتى الشاملة العميقة، بيد أنها كتابة معيبة بشكل عميق. إنها لحقيقة أنه بإقناع الناس بالعمل، وبالعمل بشكل عنيف إذا دعت الضرورة. استجابة لأسطورة ما، يمكن خلق حقيقة تاريخية. بيد أن هذا لا يعطي مصداقية للأسطورة بحقن الحقيقة داخلها بشكل ما بعد حدوث الحدث. وعلى أي حال، كانت هذه هي لعبة بن جوريون. إذ إن الاعتقاد المكثف في الأسطورة جعلها حقيقة، أو على الأقل لها ما للحقيقة من صلاحية. وهذه ديماجوجية (دهماوية)، قادت بن جوريون في أوائل ستينيات القرن العشرين إلى السقوط ومعه بعض من أبرز مفكري إسرائيل العلمانيين والدينيين. وكان السبب في ذلك ما يعرف باسم فضيحة لاڤون(4).

وما يهمنا هنا ليس فضيحة لاڤون في حد ذاتها(5) ، وإنما الطريقة غير المتوقعة التي وضعت نزاهة بن جوريون موضع تساؤل، ولكنها كشفت أيضًا عن هشاشة الخصائص الأيديولوجية للدولة الإسرائيلية. وصدمت الفضيحة إسرائيل وهزتها.

(مع الخلاف العاصف الذي أوهن أساس الدولة الفنية، وعرّض بن جوريون ولاون للعناء الخاص والعام... وأخضع الساحة السياسية لفوضى كاملة).

(Cilbert 1998:296-7)(6) .

ثم واجه بن جوريون عملية تصفية حسابات طويلة مع كثير من أشد مفكري إسرائيل ليبرالية.

بن جوريون والمسيح المنتظر..

كان أحد أكثر استخدامات بن جوريون إثارة لصناعة الأساطير، هو استخدام كان لا بد أن يؤدي في النهاية إلى تعذيب منتقديه بشدة، هو لعبه على موضوع المسيح المنتظر لدى اليهود. فعند الوهلة الأولى ربما يبدو هذا أمرًا محالًا، فبغض النظر عن أي شيء، أنكر بن جوريون مركزية الدين كقوة أصيلة في القومية اليهودية الحديثة (Keren 1983:65). وكان مؤمنًا تمامًا بالعلم والعقلانية. وعلى أي حال، لم يكن هناك شيء بهذا القدر من الاستقامة لدى بن جوريون.

وقد وصف بأنه «موحد وقح»، ولم يوصف بأنه ملحد(7). ويبدو أن هذا يعني أنه كان يؤمن بالقوة الروحية المعززة للعقل البشري. «الاعتقاد بقدرة العقل البشري ينبع من ارتباطه بالكون الذي يستكشفه« (Keren 1983: 28)، وأتاح له بابًا خفيًا يعاود منه الدخول إلى الدين عندما يناسبه، وكذلك المرونة في إعادة تفسير الدين بحيث يناسب الحاجات السياسية الحديثة ومبررها الأيديولوجي.

وفي كل الأحوال، أتاح له إيمانه التوحيدي أن تكون له تطلعاته المسيحانية الخاصة، وهو أمر من الواضح أنه متاح للعباقرة من البشر، ويبدو أنه كان يحسب نفسه واحدًا منهم. فقد كتب «الرب أو الطبيعة هو الذي يمنح العبقري مواهب سامية، ليس بدافع حبه له، ولكن بدافع من

الرغبة في أن يرزق العالم بمخلوقات سامية... إنه يخلق وسيطًا..». (Twveth 1987: 10). لقد رأى نفسه هذا الوسيط، وغالبًا ما استخدم عبارة «هازون مشيحي» أي «الرؤية المسيحانية» (Ohana 1995:62 Wistrich and) فيما يتعلق بالحركة القومية اليهودية الحديثة في فلسطين. وكانت حجته أن هناك مكونات ثلاثة للقومية اليهودية الحديثة: رابطة الشعب مع أرض الوطن، واللغة العبرية، وفوق هذا وذاك الرابطة المسيحانية بالخلاص (Keren 1983: 65).

ماذا كان معنى رؤية بن جوريون المسيحانية والرابطة التي تجمعها بالخلاص؟ وفقًا لكل من اليهودية والمسيحية؛ فإن الرب سوف يرسل رسولًا -وسيطًا يمثله- هو المسيح المنتظر إلى الأرض، لكي يحول المجتمع الإنساني ويخلصه من ذنوبه وخطاياه. والخلاص يعني «التجديد أو الميلاد المتجدد» وهو يضرب بجذوره في رؤيا الرب من أجل البشر، وفي اليهودية لا يزال المسيح منتظرًا لم يأتِ، أما في المسيحية، فإن «يسوع المسيح»، ابن الرب، كان هو المسيح، وسوف يعود.

وأحد أقسى منتقدي بن جوريون، الكاتب إفراهام أفي - هاي، جادل بأن بن جوريون، قد جرد مفهوم المسيح المنتظر من تجسيده في شخص، وهو مفهوم مشترك بين اليهودية والمسيحية. وبدلًا من شخص المسيح، جعل بن جوريون الصهيونية حركة مسيحانية. ومن ثم فإن خلاص الجنس البشري ينبغي أن يسبقه خلاص الشعب اليهودي، وإعادتهم إلى أرضهم (Keren 1983:65).

وقد تحدث بن جوريون عن تأسيس مجتمع نموذجي سوف يصير «نورًا بين الأمم» (مقتبسًا الموضوع من النبي إشعيا العهد القديم) «ومن خلاله سوف يأتي الخلاص الكوني، حكم التقوى وأخوة البشر واستئصال الشر» (Keren 1983:65). وعبارة بن جوريون هنا تقرأ كما لو كانت اقتباسًا حقيقيًّا من إشعيا، ولكن الحقيقة أن ما يفعله هو استغلال لغة الكتاب المقدس لنفسه ولكي يبرر اختلاق دولة إسرائيل؛ وهي وسيلة شائعة الاستخدام بين الصهاينة الذين يصفون أنفسهم بأنهم من غير المؤمنين.

وغالبًا ما يضفّر بن جوريون ملاحظات مثل هذه مع إشارات إلى اليهود الذين ينجزون المهمة النبيلة المتمثلة في «استيطان أرض الوطن القديم» باعتبارها شرطًا ضروريًّا للخلاص الكوني للجميع على أساس حقيقة أنهم كانوا، أو على الأقل يمكنهم أن يكونوا «الشعب المختار». ولا يمكن للمرء سوى أن يعجب بجرأة الرجل الصريحة. فقد اغتصب بن جوريون المسيحية مثلما اغتصب لنفسه اليهودية. لقد عاد الشعب اليهودي لكي يستوطن الأرض القديمة بعد ألفي سنة، وسوف يكون نوعًا من المسيح القومي، يشع نورًا على جميع الأمم الأخرى في العالم على حد زعمه.

بيد أن النظرة الساخرة سرعان ما تتلاشى عندما ندرك كيف استطاع بن جوريون بسهولة أن يجعل مسيحانيته السياسية تنزلق لكي تدعم مغامرات إسرائيل السياسية والعسكرية. إذ إن الشعب المنتظر للخلاص كان بوسعه أن يتابع أهدافًا عدوانية وتوسعية قومية في فلسطين وما وراءها، بصورة مشروعة بالنسبة لهم، لأنهم وحدهم كانوا المنوطين بالاستجابة لما جاء في نص للعهد القديم.

وهكذا تذكر بن جوريون النبي موسى أثناء السويس سنة 1956م، وهي المغامرة العسكرية

الإمبريالية الصاخبة، عندما انضمت إسرائيل إلى إنجلترا وفرنسا في محاولة إسقاط زعيم مصر، جمال عبد الناصر، الذي كان قد أمم قناة السويس. ووفقًا لكلام بن جوريون، ربما كان الآلاف من الجنود الإسرائيليين المشتبكين في المعركة بصحراء سيناء بين مصر وإسرائيل مدفوعين بالذكريات التي تُحكى عن كيفية قيادة موسى لأسلافهم إلى جبل الطور بسيناء حيث تلقى الوصايا العشر من الرب:

«لم تكن هذه مجرد معركة. ذلك أن الهالة التي تحيط بسيناء والتجارب العميقة والصوفية المرتبطة بذلك الاسم على مدى آلاف السنين، كانت تشع على رؤوس جنودنا كما لو كان آباؤهم حاضرين في حدث جبل سيناء» (Keren 1983: 69).

كانت الاقتباسات من الكتاب المقدس بمثابة التوابل التي تضفي النكهة على جميع خطب بن جوريون. وكانت عبارات الأنبياء تدخل في اللغة السياسية، كما أن أبطاله المفضلين في الكتاب المقدس، حتى عندما يخالفون الرب، كانوا يشيرون في كل اتجاه لمواقفه المعاصرة. وفي إحدى المناسبات امتدح بن جوريون چيروبوم الثاني، أحد ملوك إسرائيل القديمة، الذي «فعل شرًّا أمام عين الرب»، ولكنه مع هذا وسع مملكته بالاستيلاء على دمشق (Wistrich and Ohana1995:69).

التجديف
الديانة اليهودية عشيقة الحكومة العلمانية

هناك اثنان من الفلاسفة الدينيين اليهود المشهورين، مارتن بوبر ويشاياهو ليبوڤيتز، يسميان أنفسهما من الصهاينة، كانا مع ذلك مفزوعين من الطريقة التي رأيا فيها بن جوريون يتلاعب بالديانة اليهودية لأهداف سياسية ضيقة.

فقد خطف بن جوريون المفهوم الروحي لصهيون، حسب حجة بوبر، وهو ما لا ينبغي أن يكون له مكان في سياسات القوة الوطنية.

«صهيون ينطوي على ذكرى، وطلب، ومهمة. صهيون هو حجر أساس القاعدة، والأساس الذي يقوم عليه صرح المسيحانية والخلاص للبشرية.. صهيون في شكله الحديث كان «شبه صهيوني» ولم يكن «صهيونية حقيقية».. وشبه الصهيونية ليس سوى أحد الأشكال المبتذلة للقومية في أيامنا، شكل لا يعترف بأي سلطة سوى المصالح الوطنية المتخيلة» (Keren 1983 1983:77).

ويجادل بوبر هنا أن دولة بن جوريون الوطنية قد حلت محل سلطة الرب.

وفي إحدى النقاط، اتهم بوبر بن جوريون بالكفر والتجديف. وحجته أن اتجاه بن جوريون إلى العلمانية «يحول بين الناس وصوت الرب الحي» (Keren 1983: 78).

ولا يمكن لبن جوريون أن يستبعد بوبر باعتباره صاحب عقلية متحجرة. أولًا: لأن بوبر كان يحظى باحترام كبير بين المؤمنين وغير المؤمنين على السواء. وثانيًا: أن بوبر كان مدركًا تمامًا للمعضلات التي تواجه السياسات اليهودية في فلسطين الحديثة وبالإصرار على أن دولة يهودية من الطراز الذي كان بن جوريون يدافع عنه لم تكن مقبولة وفق تعاليم الديانة اليهودية الحقة، كان بوبر يعبر عن النوع الإنساني للأخلاق اليهودية التي يؤمن بها. (كان على بوبر -كما يذكر إدوارد سعيد المفكر الفلسطيني الأبرز- أن يكون له موقف حول نوع الدولة السياسية الحديثة التي يجب أن تنشأ في فلسطين. وكان بوبر وعدد آخر من اليهود المؤمنين بالفلسفة الإنسانية، يتبنون فكرة دولة واحدة لشعبين (said 2003: 314) يستطيع فيها كل من المجتمع العربي والمجتمع اليهودي أن يتشاركا السلطة في ظل دستور واحد).

كان بوبر مفكرًا سياسيًا أكثر حداثة، ومن المؤكد أنه كان صاحب رؤى عالمية أوسع كثيرًا. وقد صار هذا واضحًا عندما تشاجر الرجلان حول محاكمة أدولف أيخمان النازي وعضو قوات العاصفة، والذي كان متورطًا بعمق في الهولوكوست وقبض عليه عملاء إسرائيليون في الأرجنتين سنة 1960م، وتمت محاكمته في إسرائيل سنة 1961. فقد كان بوبر يريد محاكمة أيخمان في محاكمة دولية؛ لأن جرائمه كانت جرائم ضد الجنس البشري بأسره. وأصر بن جوريون على أن المحكمة يجب أن تعقد في إسرائيل كوسيلة لدعم شرعية الدولة اليهودية.

كان يشياهو ليبوڤيتز، وهو فيلسوف ديني وعالم، حساسًا أيضًا تجاه استغلال بن جوريون للمسيحانية السياسية. وقد أغضبه على نحو خاص تبرير بن جوريون المستند إلى الكتاب

المقدس، لما أسماه ليبوڤيتز «الحماسة الزائدة في مقابلة الشر بالشر» (Keren 1983: 82) عندما قامت وحدة من الجيش الإسرائيلي، يقودها آريل شارون، بقتل خمسين من المدنيين العرب الفلسطينيين بقرية قبية. ولم يخشَ ليبوڤيتز من استخدام لغة قوية. وأدان تبريرات أفعال الدولة على أساس من المبادئ الدينية باعتبارها «متاجرة بعرض الديانة اليهودية (البغاء) لصالح نزعة أكل لحوم البشر الوطنية والشغف بالسلطة» (Keren 1983: 83). واتهم بن جوريون بأنه يبقي الديانة في وضع «عشيقة الحكومة العلمانية»، وعرف دولة إسرائيل تحت حكم بن جوريون بأنها: «ولد علماني مزعج شاع عنه أنه متدين» (Keren 1983:84).

وتحدى ليبوڤيتز بن جوريون بشكل محدد حول مسألة «قدسية الأرض»، أي استغلال فكرة «القدسية» بطريقة لم تكن مقدرة لها، مع كل ما ينطوي عليه هذا الاستغلال المشوش من خطر» (Keren 1983:83).

بن جوريون يسمي العرب «مدمري» الأرض المقدسة

لم يكتف بن جوريون بزعم أن «أرض إسرائيل مقدسة، ولكنه كان يعتقد أيضًا أن العرب قد دنسوها بشكل ما. فبالنسبة لبن جوريون هي «الأرض التي ستتجمع فيها كل الثقافات ومنها سوف تظهر عبقرية البشر النهائية»، لكي تنشر حكمها على العالم بأسره»، ولكن بشرط واحد: أن يتحكم في الأرض «أبناؤها»؛ لأنه إذا حدث مرة أخرى أن توقَّفَ بنو إسرائيل عن سكنى الأرض، فإن هذا سيكون «فاجعة الحياة» وستتحول إلى كومة من الخراب. والعرب هم السبب في هذا؛ لأنهم -كما يزعم بن جوريون- تصرفوا طوال تاريخ أرض إسرائيل باعتبارهم مخربين (Wistrich and Ohama 1995:75).

وقد وصف إسحاق دويتشر، وهو أحد أعظم الكتاب اليهود الاشتراكيين، بن جوريون بأنه «روح شريرة للشوفينية الإسرائيلية» (Deuts cher 1968:142).

بل إن بن جوريون زعم أحيانًا بشكل يدعو إلى السخرية، أنه حتى وصول العبرانيين الجدد، كانت الأرض «جرداء» على مدى ألفي سنة (Wistrich and Ohaan 1995:75).

وكانت هذه الفكرة متجذرة تمامًا في الأساطير الصهيونية منذ نشأة أوائل المستوطنات في أواخر القرن التاسع عشر. وفي أحد خطاباته الأولى من إسرائيل سنة 1906م كتب بن جوريون عن «الأبخرة العفنة التي تفوح من الأرض عندما يتم حرثها للمرة الأولى منذ ألفي سنة». (Wistrich and Ohana 1995:76).

ومن الواضح أن الصهيونيين الأوائل كانوا يعتقدون أنه فيما بين زمن تدمير المعبد اليهودي الثاني في القدس على أيدي الجيش الروماني سنة 70 ميلادية والاستيطان الصهيوني الجديد، كانت الأرض قد صارت قشرة صخرية تجمعت تحتها الغازات.

كان هذا هو نمط الخطاب الذي صاحب الأسطورة الصهيونية المتجذرة والقائلة (أرض بلا شعب لشعب بلا أرض). وهذه الأساطير هي مواضيع فصول هذا الكتاب.

ففي الفصل الخامس سوف يكتشف القارئ أن هناك زراعة ناجحة حققها الفلاح العربي على أرض فلسطين التي اختارها الصهاينة الأوائل للاستيطان أواخر القرن التاسع عشر. وهنا تكون عدم أمانة بن جوريون وقحة وصفيقة بشكل خاص، وكما لاحظنا في بداية هذا الفصل، كانت

لديه تجربة مباشرة مع تلك المستوطنات الصهيونية الباكرة، التي تم شراؤها من الملاك العرب الغائبين، بل كان عليه أن يسلح نفسه للدفاع عن إحدى المستوطنات ضد الفلاحين العرب الحانقين بسبب طردهم وتدمير حياتهم، بعد أن ظلوا يعملون ويعيشون على هذه الأرض أجيالًا وراء أجيال.

الديماجوجية (الدهماوية)

بن جوريون يعيد تحرير الكتاب المقدس

في يوم 12 مايو سنة 1960م دعا بن جوريون إلى مؤتمر صحفي في تل أبيب.

ووصل الصحفيون المحليون والأجانب، والموظفون العسكريون والمدنيون، والكُتاب والفنانون، وأعضاء من عائلته، وغيرهم من البارزين يحملون نُسخًا من الكتاب المقدس في حجم الجيب. وذكرت صحيفة «الجيروزاليم پوست» الحادث تحت عنوان رئيس «بن جوريون يقدم روايته لقصة خروج اليهود من مصر». ووصفت كيف تحدى رئيس الوزراء رؤية الكتاب المقدس للخروج. وزعمه أن أقلية صغيرة فقط من اليهود قامت بالرحلة من مصر، وأن الغالبية العظمى من بني إسرائيل لم تذهب إلى مصر أساسًا، والحقيقة أن نقاد الكتاب المقدس الجادين كانوا قد تطرقوا لهذه النقطة لسنوات، ولكن بن جوريون زعم أن مصدر الإلهام في هذه النظرة الثاقبة كانت حرب الاستقلال سنة 1948م ونماذج الاستيطان في إسرائيل الحديثة (Keren 1983: 102). وهو أمر يغري على استنتاج أنه كان يتعلق بشكل يدعو للسخرية بما سوف يظهر ببطء على أنه اتفاق بين الباحثين. ولكن بالنسبة لبن جوريون كانت الأحداث الثورية بعد سنة 1948م هي التي توفر النظرات المتأملة الجديدة في التاريخ القديم.

وبطبيعة الحال، ثار جدل كبير، وكان دائمًا يناسب بن جوريون؛ لأن مثل هذه المجادلات كانت تعزز سلطة الكتاب المقدس باعتباره النقطة المرجعية لتوجيه البلاد.

ولم يتأثر الباحثون المتخصصون في الكتاب المقدس. بل إن أكبر منتقديه فعالية كان باحثًا في الكتاب المقدس من الجناح اليميني هو إسرائيل إلداد. وقد اتهم إلداد بن جوريون بالمبالغة والإثارة الإعلامية المثيرة وإساءة استغلال السلطة السياسية. وقد قارن إلداد الدعاية التي صاحبت الكشف الأثري عن لفافات البحر الميت بالطريقة التي استغل بها بن جوريون وسائل الإعلام للدعاية «لاكتشافه» عن خروج اليهود من مصر. وكانت حجته أن الحفريات الأثرية كشفت عن مكتشفات مادية، على حين أن المؤتمر الصحفي الذي عقده بن جوريون لم يتضمن سوى فرضيات. ويجب أن يتم تحقيق الفرضيات تحقيقًا دقيقًا بدلًا من طرحها على العامة. وكون أن بن جوريون هو رئيس وزراء البلاد جعل مثل هذا الحرص أكثر حيوية.

وكما أوضح إلداد، وكثير غيره، كان هناك اختلاف كبير بين رجل الدولة والباحث، فبالنسبة لرجل الدولة المنشغل بالسياسات الرمزية، فإن الناقل قد يكون على نفس درجة أهمية الرسالة، وبالنسبة للباحث فإن أي مجال للتعبير عن الرسالة سوف يؤدي إلى التشويش. إذ إن الباحث يعمل بمفرده، ويتغذى على النقد الدقيق، كما أنه محاط بجمهور صغير نسبيًا. أما رجل الدولة فيتحدث إلى جماهير غفيرة، غير قادرة على أن تستمتع بالقدر الضروري من الشك، وهي تأخذ سلطته أمرًا مسلمًا به. ولا شك أن مثل هذه التأثيرات قادرة على تحديد نوعية التقييم التي تخضع لها المعرفة أو المعلومة (Keren 1983:117).

وقد ميز إلداد بين ثلاث رؤى للموضوع. أولها: هي أن هناك مؤمنًا يتقبل القصة، كما هي، لأنها في كتاب الرب. وثانيها: هناك العالم الذي يمتلك المقاربة المعاكسة بالضبط، فلا شيء في

الكتاب المقدس ينبغي أن يكون فوق الشك، سواء كانت أحداثًا خارقة للطبيعة أو «طبيعية». والثالثة: هناك المفسِّر الذي يدرس الكتاب المقدس لا لذاته وإنما باعتباره وسيلة لاستخراج الدروس المعاصرة أو العالمية. وكل المقاربات الثلاث مشروعة، بشرط أن يبقى التمايز بينها، وكانت شكوى إلداد مؤداها أن بن جوريون قد خلط بعضها ببعض (Keren 1983:114).

لقد مسَّ إلداد الوتر الحساس لدى الصهيونية. ففي النهاية لا يمكن للعلم والدين أن يتوافقا. وداخل الصهيونية يصبح التوتر بين الاثنين غير محتمل عندما يكون التاريخ اليهودي خاضعًا للمحاجاة القائمة على قواعد البرهنة والبحث العلمي، أي عندما يكون هناك التزام صحيح بمستويات ومعايير البحث العلمي(8).

بحثًا عن «إسرائيل القديمة»

نحن الآن بحاجة إلى أن نفصل بين عوامل ثلاثة: إساءة استخدام الصهيونية للكتاب المقدس وقصصه، وقصص الكتاب المقدس نفسها، والفترة التاريخية التي يزعمون أن الكتاب المقدس يتحدث عنها. وسوف يأخذنا هذا إلى المجادلة وبشكل حرفي عند الحافة الحاسمة للدراسات الأثرية الإسرائيلية. ولكن دعنا أولًا نحاول أن نضع الخلفية مع استخدام «إسرائيل القديمة» كبؤرة البحث بالنسبة لنا. وأمامنا صعوبة مباشرة لأن هناك عددًا من «إسرائيل القديمة» في الكتاب المقدس. وسوف نركز على ما يسمى «مملكة داوود وسليمان المتحدة» من نحو سنة 1000 إلى سنة 922ق.م تقريبًا؛ لأن هذه هي «إسرائيل القديمة» التي تبني عليها الصهيونية أشد مزاعمها فجاجة.

ربما يتذكر القراء الذين لديهم أي قدر من المعرفة بالكتاب المقدس، أن الأرض في تلك الفترة كان لها اسم آخر هو «كنعان». وأحد الملامح المدهشة التي تظهر بغتة دائمًا عندما ينشغل البحث التاريخي والأثري الجاد بقصص الكتاب المقدس، يتمثل في أن الآثار التي تم اكتشافها هي كنعانية أكثر من كونها «إسرائيلية». والحقيقة أن الآثار «الإسرائيلية» لم تُكتشف أبدًا من تلك الفترة، ولكن ربما لا يكون ذلك مهمًّا. وعلى أي حال، فإن قصص الكتاب المقدس تحمل صورة قوية لدرجة أنه حتى أكثر الناس شكًّا، يفترض أنه لا بد أن تكون هناك على الأقل بذور من الصدق التاريخي.

ومهما يكن من أمر، ألا يعرف أي تلميذ في المدرسة أن داوود (الذي سيصير الملك الإسرائيلي للملكية المتحدة) حينما كان محاربًا قد هزم جالوت الفلسطيني بضربة مقلاع؟ أليس هذا فعلًا من أعظم أفعال الشجاعة الفردية -وأكثرها شهرة بالتأكيد- وصلت إلينا من العالم القديم؟ إنها دعوة من الكتاب المقدس بأننا لا يمكن أن نرفض أن نُسلم بتفوق داوود الإسرائيلي الأخلاقي والروحي على الفلسطيني جالوت. إنها قصة خرافية محفورة بعمق في مخيلة الحضارة الغربية، وتجسدت على نحو برَّاق في النهضة الأوروبية في تمثال «داوود» الذي نحته مايكل أنجلو، واللوحة التي رسمها الرسام رامبرانت المذهلة، داوود يقدم رأس جالوت إلى الملك شاؤول.

ومع هذا، فإن الصهيونية الحديثة قد وجدت صعوبة متصاعدة في الدفاع عن داوود الكتاب المقدس باعتباره شخصية تاريخية حقيقية، مع استيعاب في الوقت نفسه دلالات التحليل الجاد والبحث الأثري الرصين حول الكتاب المقدس.

في ثمانينيات القرن العشرين، قام سياسي إسرائيلي بارز، هو أبا إيبان، الذي اكتسب سمعة

باعتباره باحثًا فذًّا في دراسات الكتاب المقدس، بتقديم فيلم تلفزيوني وثائقي بعنوان: الميراث، الحضارة واليهود. كانت السلسلة ترمي إلى أن تُظهر تاريخ اليهود من زمن الكتاب المقدس حتى اليوم الحاضر، وصحبها كتاب يحوي صورًا جميلة. وما كان مثيرًا في هذه السلسلة هو التنازلات التي كان على إيبان أن يقدمها مرارًا وتكرارًا أمام البحث النقدي الجاد للكتاب المقدس والكشوف الأثرية التي قوضت اعتقاداته الصهيونية حول الكتاب المقدس. وقد أزيح النقاب عن هذا بشكل تام عندما جاء إلى القصة الخرافية عن داوود وجالوت. وحسبما أوضح هو «عاشت الخصومة التي يحملها الكتاب المقدس تجاه الفلسطينيين بقيت في المعنى الحديث للمصطلح: فكلمة فلسطيني تعني شخصًا جاهلًا، خارجًا على القانون، يتباهى بعدائه للثقافة». (Eban 1984:45).

كما اعترف في الجملة التالية مباشرة «إن الحقيقة أنه خارج ميادين اللاهوت والأخلاق، فإن إنجازات الفلسطينيين الثقافية كانت متفوقة بشكل لافت للنظر على إنجازات الإسرائيليين». وثمة صورة ملونة مدهشة حقًّا تعود بنا إلى الموضوع، وهي صورة لإناء زهور مزين بشكل رائع تحتها تعريف بالصورة نصه: «لم يكن الفلسطينيون برابرة وهمجًا وإنما كانوا حرفيين مهرة» (Eban 1984:40).

كيف عرف، على الأقل في اللاهوت والأخلاق، أن الإسرائيليين كانوا أكثر تفوقًا من الفلسطينيين؟ والإجابة هي أنه لا يعرف. وهذا ما يسميه نقاد الكتاب المقدس مثالًا على التحرير، أي الإعداد للنشر. فقد كتبت قصص الكتاب المقدس بعد وقت طويل، بحيث إن أي مزاعم عن الجدارة المتعلقة بنظم الإيمان لدى الفلسطينيين والإسرائيليين في ذلك الوقت إنما هي مزاعم مستحيل أن تصمد أمام النقد. ولكي نستخدم مفهومًا يفضله نقاد الكتاب المقدس كثيرًا، فإن القصص يمكن أن تكون مزيفة (مشكوك بأمره) بعبارة أخرى، فالكتاب المقدس نفسه يثير كثيرًا من الصعوبات حول الحياة الدينية والتاريخية لكل من داوود وسليمان.

الفوضى والخلط في الكتاب المقدس حول داوود وسليمان

من ناحية هناك التأثير الطاغي لداوود: إذ إن التراث «المسيحاني» يبدأ به. فقد كان الأنبياء العبرانيون اللاحقون متأثرين جدًّا بما بدا أنه مباركة خاصة من الرب على داوود بحيث إنهم تخيلوا مملكة ستقوم في المستقبل، مملكة مباركة، أو «ما شيحانية» وهي الكلمة العبرية المقابلة لكلمة مسيح (Eban 1984:47). فبعد نحو 1000 سنة، كان المزمور الثالث والعشرون يتحدث عن التراث التوحيدي والمسيحاني، ويحفظها لكل من اليهودية والمسيحية.

«الرب راعٍ فلستُ أحتاج إلى شيء. في مراعٍ خضراء يُربضني. وإلى مياه هادئة يقودني. يُنعش نفسي ويُرشدني إلى طرق البر إكرامًا لاسمه. حتى إذا اجتزتُ وادي ظلال الموت، لا أخاف سوءًا لأنك ترافقني. عصاك وعكازك هما يشددان عزيمتي. تبسط أمامي مأدبة على مرأى من أعدائي. مسحت بالزيت رأسي، وأفضت كأسي. إنما خير ورحمة يتبعانني طوال حياتي، ويكون بيت الرب مسكنًا لي مدى الأيام»(9).

ومن ناحية أخرى، تورط داوود في واحدة من أكبر الفضائح التي تحدث عنها الكتاب المقدس، بحيث عبر عن احتقاره لأي نظام لاهوتي أو أخلاقي في تعامله مع زعماء القبائل المحليين، العدو منهم والصديق على السواء. فقد ضاجع بشبع وحملت منه، بينما كان زوجها أوريا الحيثي بعيدًا يحارب العمونيين لحساب داوود. وتم إرسال أوريا إلى «أشد الحروب ضراوة» حيث تركه

رفاقه، بناء على أوامر داوود، لكي يموت على أيدي الأعداء (صموئيل الثاني، 11، 15 Eban (10 (1984:49)

ووفقًا للباحثة المعاصرة المتخصصة في الكتاب المقدس، كارين آرمسترونج، التي تحظى باحترام عظيم، فإن سلوك داوود كان انتهاكًا حتى للمعايير المعاصرة للعدالة «الوثنية»، دعك من معايير العدالة اليهودية اللاحقة (Armstrong 1996, 40).

ومثل أبا إيبان، نجد الكاتب پول جونسون، في كتابه الذي يحظى بشعبية واسعة History of the Jews، متحمسًا بشكل يائس للوقوف إلى جانب قصص الكتاب المقدس، مع أن قراءته للكتاب المقدس قد ألقت مسحة من الشك على أصول داوود الإسرائيلية: «كان في الأصل راعيًا ينحدر من نسل روث المؤابي المتواضع الأخاذ...» (Johnson 1993:55).

بل إن المشكلة أكبر مع سليمان، فإنه مثل داوود مشكوك في نسبه؛ لأنه كان هو الابن الثاني لداوود من بششبع. وطور سليمان أكبر إمبراطورية مدهشة، متخصصًا في زواج المصلحة مع الوثنيات. وحسبما يخبرنا إيبان:

«زيارة ملكة سبأ»: وعندما بلغت أخبار سليمان وإعلانه لاسم الرب مسامع ملكة سبأ، قدمت لتُلقي عليه أسئلة عسيرة، فوصلت أورشليم في موكب عظيم جدًّا، وجمال مُحملة بأطياب وذهب وفير وحجارة كريمة، وأسرّت إليه بكل ما في نفسها». (سفر الملوك الأول 10: 2،1).

... وعقد زيجات مع السلالات الحاكمة: مع العمونيين والإيدوميين والحيثيين والموآبيين والفينيقيين، الذين تزوج من أميراتهم، كذلك ابنة الفرعون، وكلها زيجات تم عقدها بقصد الإضافة إلى مجد البلاط ودعم استقرار المملكة (Eban 1984: 50-1).

كما كان سليمان -بطبيعة الحال- هو الذي بنى المعبد الأول في القدس. لقد ربط إيبان نفسه بأعقد الحبال وهو يحاول التوفيق بين مزاعم الكتاب المقدس والبرنامج الوثني لبناء المعبد الذي كان من الأمور النمطية في تلك الفترة.

ويبدأ إيبان بملاحظة أن الملوك الوثنيين المحليين، مثل حيرام الفينيقي، ملك صور، كانوا يقدمون الحرفيين المهرة وقاطعي الحجارة الحاذقين ومواد البناء «وأخشاب الأرز» الشهيرة من لبنان.

ويتساءل إيبان عن المدى الذي يمكن أن نعتبر فيه هذه الاستعارات دليلًا على وجود رابطة أعمق بين ديانتي الكنعانيين والفينيقيين وديانة إسرائيل:

وإجابته مهمة جدًّا لأنها تعكس الصراع بين العلم والدين داخل مجال علم الآثار الإسرائيلي، على الرغم من أنه لا يقول هذا، وهو صراع كان يتطور في الوقت الذي كان يعمل في كتابه ووصل إلى درجة الأزمة منذ ذلك الحين:

«ينبغي أن تكون الاختلافات في المعتقد الديني واضحة بما فيه الكفاية... كما كانت هناك أيضًا انحرافات كبيرة في الممارسة الدينية. فقد كانت إسرائيل... ممنوعة من عبادة ربها على شكل صورة، وقد كانت الأضحية البشرية، أو الدعارة في أنفسنا عن الطرق التي كانت بها العبادة الإسرائيلية القديمة كثيرًا مع الممارسة الكنعانية بدرجة أكبر من تشابهها مع الديانة اليهودية منذ الأزمنة الرومانية».

«وأوضح استعارة -وأكثر انحراف صادم عن الممارسة اليهودية اللاحقة- يتمثل في طقس التضحية، الذي تم تطويره بدرجة عالية منذ العصور السومرية على الأقل. إذ كانت أضحية المعبد هي مركز ديانة الدولة في عهد سليمان، وبقيت كذلك ما دام بقي المعبد في القدس». (Eban 1984:50).

وبالاعتراف بالانفصال بين أشكال العبادة القديمة والديانة التي تسمى اليهودية يقوض أبا إيبان الإصرار الصهيوني على وجود خط مستمر من زمن القصص الباكرة في الكتاب المقدس حتى اليوم الحالي.

بيد أننا يجب أن نتحول الآن نحو مشكلة أكبر كثيرًا، تضرب في صميم قلب التفسير الصهيوني للكتاب المقدس.

إسرائيل القديمة: أين كانت الكلمة؟

تحتفي الديانة اليهودية بسلطة الكلمات، وأشهرها «الوصايا العشر» التي يفترض أن موسى تلقاها من الرب فوق جبل سيناء، منذ ما يزيد على ثلاثة آلاف سنة مضت، عندما قاد العبيد العبرانيين السابقين هربًا من ربقة الأسر في مصر، صوب الأرض الموعودة التي سوف تصير إسرائيل (القديمة). والعهد القديم مليء بالكلمات المقدسة التي توفر التوجيه الروحي للشعب اليهودي باعتباره شعبًا متدينًا. وهذه طبعًا، كلمات مكتوبة، ذات معنى مركب لدرجة مهولة، تقدم نظامًا شاملًا من اللاهوت والأخلاق، يستمد في إلهام ملايين الناس في العالم الحديث. إلا أننا لا يزال علينا أن نكشف عن أي آثار للكلمات المكتوبة من فترة المملكة المتحدة التي حكمها داوود وسليمان، أي إسرائيل القديمة، أقل قليلًا من ثلاثة آلاف سنة مضت. وهذه هي المشكلة. إذ إن الكلمة المكتوبة علامة على تقدم المجتمع في مجال حضارته. ويتم تصوير إسرائيل القديمة على شكل متقدم من أشكال الحضارة، ولكن أين كلماتها؟

وفقًا لفنكلشتاين وسيلبرمان، اللذين ألفا الكتاب المبهر:

The Bible Unearthed: Archaeologys New vision of Ancient Israel and the Origin of its Sacred Texsts

لم يتم الكشف عن أثر واحد في القرن العاشر قبل الميلاد يدل على النشاط الأدبي الإسرائيلي حتى الآن (Finkelistein and Silberman 2002: 235-8).

ولأن فنكلشتاين أحد علماء الآثار البارزين في إسرائيل الحديثة، فإن مغزى هذا بعيد الأثر. إذ إن هذا لا يعكس شيئًا أقل من الانفجار الداخلي لعلم الآثار في إسرائيل.

إن معرفة الكتابة في العالم القديم، وحفظ السجلات، والمراسلات الإدارية، والمؤرخات الملكية، وجمع الكتب الدينية «لا سيما ما يجلب الفخر، ويتميز بالحذق، مثل الكتاب المقدس، تكون متصلة بمرحلة بعينها من التطور الاجتماعي، وتحديدًا تشكيل الدولة بديانة وعبادة دينية مركزية وملكية» (Finkelistein and Silberman2002:22). والمغزى هو أن الفشل في اكتشاف نشاط أدبي في تلك الفترة يشي بأنه لم يكن هناك تكوين للدولة، أو عبادة مركزية وملكية، إلا أن معبد سليمان كان هو المجد الذي توج برنامج البناء الذي نافس برنامج الفراعنة.

فبعد عشرات السنين من الحفريات، واستخدام تفاصيل من الكتاب المقدس للبحث عن بقايا هذه المباني، ثمة اتفاق علمي يظهر ببطء وعلى استحياء شديد بين علماء الآثار في إسرائيل الحديثة، على أن هذه المبانى لم توجد قط، أو أن هناك بقايا المباني، ولكن لا يمكن أن يرجع تاريخها إلى زمن سليمان:

«لقد أجريت حفريات في القدس مرات ومرات... وعمل ميداني... أخفق في أن يوفر دليلًا مهمًّا على الإشغال (ببناء) الذي تم في القرن العاشر (فترة داوود وسليمان). ولم يكن هناك أي علامة على بناء أثري مفقود، بل هناك شقفات من الفخار... وأكثر التقديرات تفاؤلًا لهذا البرهان السلبي، هو أن القدس في القرن العاشر كانت محدودة في امتدادها، وربما لم تكن أكثر من قرية ريفية نمطية قائمة على أحد التلال» (Finkelisten and Silberman 2002:33). ومن المؤكد أن هناك معبدًا تم بناؤه في القدس، بعد ذلك بعدة قرون، وربما في مدينة يهوذا الصغيرة التي كانت مدينة/ دولة. والواقع أن هذه حجة فرانكلشتين عن الفترة التي بدأ الكتاب المقدس نفسه فيها يتخذ الشكل المكتوب. ولكن حقيقة الأمر هي أن قصص داوود وسليمان من وحي خيال بعض من أقدم خيالات العالم القديم إبداعًا (Finkelistein and Silbermain 2002: 123-45).

«كيف تدَّعون أنكم حكماء ولديكم شريعة الرب، بينما حوّلها قلم الكتبة المخادع إلى أكذوبة»

(إرميا، الإصحاح الثامن: 8).

في ثمانينيات القرن العشرين، كان الصحفي چون ماكارثي واحدًا من عدد من الأوروبيين والأمريكيين الذين احتجزهم المتشددون الإسلاميون رهائن في بيروت. وقد أدى تحمله إلى ذيوع شهرته هو ورفاقه في الأسر. وقد قرأ مكارثي الكتاب المقدس مرتين أثناء فترة احتجازه، على الأقل لأنه كان الكتاب الوحيد الذي كان يسمح به الحراس لرهائنهم في سجن الإسلاميين المتشددين.

وأثارت «إسرائيل القديمة» اهتمامه، وعندما أطلق سراحه ذهب للبحث عنها، لكي يتعثر في فرق من الأثريين الإسرائيليين، مثل الفريق الذي كان يقوده فرانكلشتين، الذي كان هو الآخر يبحث عن إسرائيل القديمة عبثًا. وصار مكارثي مأخوذًا لدرجة أنه قرر إنتاج وثائقي تلفزيوني عنها: الأمر ليس كذلك بالضرورة. ولا بد أن منتجي فيلمه قد أصابهم الهلع من جراء مضمونه الراديكالي؛ فترة البث التي منحوها له والتي استمرت ست ساعات ونصف الساعة انحصر في فترة ضيقة بعد منتصف الليل، ولا يكاد يكون أحد قد شاهده(11).

وثمة نكهة تدل على الأثر المدمر للفيلم الوثائقي تمثلت في الترجمة عن النبي إرميا يفتتح بها السرد في كل حلقة مدتها نصف الساعة:

«كيف تدَّعون أنكم حكماء ولديكم شريعة الرب، بينما حوّلها قلم الكتبة المخادع إلى أكذوبة؟» (إرميا، الإصحاح الثامن:8) (Sturgis 2001:186).

وإرميا أقرب شبهًا بالفلسطينيين من حيث إنه كان صاحب تأثير ضعيف على الألفي سنة الأخيرتين، وتم استبعاده على اعتبار أنه نبي الحساب في الآخرة، وهو مثال آخر على الطريقة التي يهيمن بها الكتاب المقدس وانحيازاته على الخيال الحديث.

والواقع، من الممكن احتمال أن إرميا كان شاهدًا أمينًا للغاية في مدينة يهوذا الصغيرة، في الوقت

الذي كانت بعض أسفار الكتاب المقدس تتخذ شكلًا مكتوبًا.

وقد وضع مكارثي مسلسله الوثائقي على أساس أعمال الأثريين الإسرائيليين مثل فرانكلشتين وزميله البروفيسور رئيف هرتزوج. وفي أكتوبر 1999م لخص هرتزوج اكتشافاتهم في مقالة مثيرة في مجلة صحيفة هاآرتس الإسرائيلية (Deconstructing the Walls of Jericho, Haaretz Magazine 29 October 1999: 6-8).

وفي المقالة وصف هرتزوج كيف أن ما يسميه «مرحلة الأزمة» في علم الآثار بإسرائيل نضجت في السنوات الأخيرة. وقد وصفها باعتبارها ثورة علمية ولا أقل من ذلك. وهي عملية معروفة جيدًا لكل العلماء والباحثين الذين على ألفة بدينامية الطفرة العلمية:

«نصل إلى مرحلة الأزمة عندما تكون النظريات داخل إطار الموضوع العام عاجزة عن حل عدد كبير متزايد من حالات الشذوذ عن القياس، ويصير الشرح والتفسير عملية ثقيلة مضجرة غير متناسقة، ولا تتكامل القطع فيما بينها...

هذا ما تعلمه الأثريون من حفرياتهم في أرض إسرائيل: لم يذهب الإسرائيليون إلى مصر أبدًا، ولم يتجولوا في الصحراء، ولم يغزوا الأرض بحملة عسكرية ولم يسلموها إلى قبائل إسرائيل الاثنتي عشرة. وربما يكون الأصعب قبوله هو حقيقة أن الملكية المتحدة التي حكمها داوود وسليمان والتي يصفها الكتاب المقدس على أنها قوة إقليمية، لم تكن في أحسن الأحوال سوى مملكة قبلية صغيرة». (Haaretz ., 29 October, 1999).

وبعبارة أخرى، لم يكن هناك إبراهيم، ولا موسى، ولا يوشع؛ وكان داوود وسليمان زعيمين قبليين على أحسن الفروض. ويستمر قائلًا: «وستكون صدمة غير سارة للكثيرين أن رب إسرائيل، يهوه، كانت له قرينة أنثى...» اسمها عشيراه، وكان لها برنامجها الخاص في مسلسل مكارثي الوثائقي. وحسبما يشرح ماثيو ستورجيس، الذي كتب الكتاب المصاحب لمسلسل مكارثي:

«يتم تعريف عشيراه على أنها ربة كنعانية أخرى. كانت ربة للخصوبة ورفيقة معترفًا بها للإله الرئيس إل (وفيما بعد بعل) وقد وجدت تماثيل كثيرة صغيرة تمثلها في المواقع الكنعانية الباكرة. والتماثيل الصغيرة، بصدورها الكبيرة وأعضائها الجنسية المحددة جيدًا، تتصل اتصالًا وثيقًا بالتماثيل التي عُثر عليها في المواقع الإسرائيلية اللاحقة زمنيًا. وهي علاقة قادت الباحثين إلى افتراض أن تماثيل الخصوبة الإسرائيلية ربما تمثل عشيراه أيضًا» (Sturgis 2001:186).

لاحظ كيف أن علم الآثار الآن مضطر إلى التخلص من الفروق المهمة بين المواقع الكنعانية والمواقع الإسرائيلية. ففي نقطة ما بعد الرواية الخيالية في الكتاب المقدس المعروفة بمملكة داوود وسليمان المتحدة، ربما بعد قرنين من الزمان، وبصورة تقريبية تمامًا من سنة 800 إلى سنة 700 ق.م، ظهرت هوية تاريخية تسمى إسرائيل، على الرغم من أنها كانت في تجسدها الأول وثنية متمايزة، ولها إله وثني هو «يهوه» وربة هي «عشيراه» والأكثر من ذلك أن القدس لم تكن مركزها الروحي.

وفي أواخر ستينيات القرن العشرين، اكتشف الأثري بيل دفر «عشيراه»، على شكل نقش مكتوب بالعبرية القديمة، عندما كان يقوم بحفر في خربة الكوم بالقرب من الخليل. على سور مقبرة من العصر الحديدي المتأخر، يرجع تاريخها إلى الفترة من منتصف القرن الثامن قبل الميلاد حتى أواخره، اكتشف رسمًا واضحًا لما يبدو أنه مرتبط بنقش نصه: «مبارك ... من يهوه

... وزوجته عشرياه» ويتذكر دفر:

«عندما اكتشفته للمرة الأولى، لم أكن حقًّا أريد نشره، باعتباري باحثًا شابًّا، فقد كان مثار جدل وخلاف شديد. ولكن في سبعينيات القرن العشرين تم اكتشاف موقع ثانٍ على أيدي الأثريين الإسرائيليين، أيضًا في القرن الثامن ق.م في سيناء. وبه نفس التعبير «ليبارك يهوه وزوجته عشيراه فلانًا» (Strugis 2001: 173).

تم هذا الكشف في كونتيلا عجرود، في شمال شرق سيناء. والنقش المكتوب بالحبر على جرة تخزين قديمة، كان مصحوبًا برسم لشكلين مثيرين للفضول، أحدهما ذكر بشكل واضح، والآخر أنثى، وكلاهما متوج. وحسبما يلاحظ دفر «يبدو أن يهوه كانت له قرينة بالفعل، مثل سائر الآلهة الأخرى في الشرق الأدنى القديم - على الأقل في أذهان كثير من الإسرائيليين».

مثل سائر الآلهة الأخرى في الشرق الأدنى القديم...

ووفقًا للحجة التي ساقها هرتدوج، فإن اكتشاف النقوش بالعبرية القديمة التي تذكر أزواجًا من الآلهة، «يهوه وعشيراه»، بعد فترة المملكة المتحدة بوقت طويل، تطرح سؤالًا مفتوحًا على اتساعه عن الوقت الذي تم فيه بالضبط اعتناق التوحيد. ويبدو محتملًا أن مملكة داوود وسليمان القبلية الصغيرة، إذا ما كان لها أي وجود أصلًا، كانت تعبد آلهة وثنية متعددة.

والآن، فإن الأثريين من أمثال هرتزوج وفينكلشتين، ليست لهم عقلية سياسية على نحو خاص، ولكنهم واعون تمامًا بمغزى بحثهم بالنسبة لمزاعم إسرائيل الحديثة الأيديولوجية عن الماضي الذي يتحدث عنه الكتاب المقدس.

ويقرر هرتزوج أن العامة الإسرائيليين يحاولون تجاهل الاكتشافات على الرغم من الحقيقة التي عرفوها على مدى عشرات السنين. ويستمر قائلًا:

«إن أي محاولة للتساؤل عن مدى إمكانية الاعتماد على الأوصاف الواردة في الكتاب المقدس سوف تؤخذ على أنها محاولة لتقويض «حقنا التاريخي في الأرض» وعلى أنها تحطيم لأسطورة الأمة التي تجدد مملكة إسرائيل القديمة. هذه العناصر الرمزية تشكل مكونًا حاسمًا في بنية الهوية الإسرائيلية من الواضح أنها كانت تهديدًا غير محتمل ومن الأنسب أن نغمض عيوننا» (Haaretz, 29 October 1999).

ومدى تقدم الأثريين الإسرائيليين من أمثال هرزتوج وفينكلشتين الآن في شرح أصول الكتاب المقدس أمر يخرج عن مجال هذا الكتاب(12)، بيد أن هناك سخرية مثيرة تستحق المزيد من التعليق. فإنهم يجادلون بأن إسرائيل القديمة «الحقيقية» كانت دولة وثنية، وكانت السامرة «عاصمتها» أو مركزها الروحي. وسوف يعتاد القراء على الزعم الصهيوني الحديث عن يهودا والسامرة (الضفة الغربية) في أرض فلسطين. وما هو معروف بدرجة أقل، الحرب المتفجرة المريرة بين يهودا والسامرة، أو بين يهودا وإسرائيل، إذا ما استخدمنا الأسماء الواردة في الكتاب المقدس.

ويجادل هرتزوج وفينكلشتاين: هذا العداء (بين يهودا والسامرة) هو الذي أرسى جزئيًّا الأساس الذي قامت عليه قصص الكتاب المقدس والميلاد الحقيقي للديانة اليهودية. إنها الحرب التي انتصرت فيها يهودا في نهاية المطاف. أما السامرة (إسرائيل القديمة الحقيقية) فقد باتت

منبوذة. وبحلول القرن الميلادي الأول، كانت السامرة بمعبدها الخاص بعيدًا جدًّا عن القدس ووطنًا للسامرى الطيب المشهور في الإنجيل، لا تعتبر يهودية حقًّا في رأي الأحبار اليهود في معبد القدس بيهودا. وبعبارة أخرى، منذ ألفي سنة، في القرن الذي شهد التمرد اليهودي الكبير ضد روما، لم تكن إسرائيل القديمة «الحقيقية» تُعتبر يهودية.

في الفصل التالي سوف نكتشف المغزى المدمر لهذه المزاعم الصهيونية الحديثة في فلسطين، عندما ننظر إلى الشتات اليهودي في الإمبراطورية الرومانية. ولكن لا ينبغي لنا أن نترك هذا الفصل قبل أن نسدي احترامنا للكُتاب العظام الذين كتبوا الكتاب المقدس في العصور القديمة. ومن المؤكد تمامًا أن الكتاب المقدس ليس تكليفًا لمزاعم الشوفينية اليهودية الحديثة على أرض فلسطين، ولكن يمكننا أن نتفق مع فرانكلشتين وسيلبرمان، بالتأكيد على أنه:

«كتاب مقدس فيه عبقرية أدبية وروحية لا تبارى... وهو ملحمة بطولية شعبية نُسجت سويًّا من مجموعة ثرية بشكل مدهش من الكتابات التاريخية، والذكريات والخرافات، والحكايات الشعبية، والقصص والدعاية الملكية(13)، والنبوءة والشعر القديم... والقطعة الأدبية الفذة سوف تمر بالمزيد من التحوير والتوسع (لدرجة أنها ستصير) مرساة روحية... للجماعات في جميع أنحاء العالم...» (Finkelstien and Silberman 2002: 1-2).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثاني:
نفي اليهود هو خاصيتهم المميزة

هذه هي الجملة الافتتاحية في كتاب «The Origins of Zionism» للمؤلف ديڤيد ڤيتال (1975:3)، وهي مقدمة بحثية ذات مستوى راقٍ عن الصهيونية «ترسي معايير جديدة لكي يحذو حذوها مؤرخو الصهيونية» على حد تعبير «الملحق الأدبي للتايمز- The Times Literary Supplement». والآن يتصف ڤيتال بأنه مؤرخ شديد الجدية ومقروء جدًّا. وكونه مستعدًّا بوصفه مؤرخًا مشهورًا لأن يُرَوّج «النفي» بحيث يجعله أهم «حقيقة تاريخية» عن اليهود، إنما يعكس التغير الجوهري الناجح الذي لحق بهذه الأسطورة الدينية القديمة. إذ إنها تحولت إلى سلاح أيديولوجي علماني، لقد تحولت إلى صيحة القتال بالنسبة للمزاعم التاريخية التي تدعيها القومية اليهودية في القرن العشرين على فلسطين. وعلى أي حال فإن أسطورة «النفي» تمثل إحراجًا فكريًّا شاملًا للجيل الجديد من المؤرخين الراديكاليين في إسرائيل الذين يناضلون لفك قبضة الصهيونية الشديدة عن التاريخ اليهودي.

ووفقًا لواحدة من النقاد الإسرائيليين المحدثين ذوي الآراء النافذة، وهي ياثيل زيروباڤيل، فإن «النفي» هو النصف الثاني مما تسميه «التقسيم الصهيوني لفترات التاريخ اليهودي (17-1995:15)(14). وهذا نموذج فج لمرحلتين «العصر القديم» و«النفي». وفي البداية (العصر القديم) لدينا إعادة سرد قصة الكتاب المقدس باعتبارها قصة التحرر الوطني اليهودي ولكنها تنتهي بسلسلة من حالات التمرد الوطني الفاشلة. ثم نجد، مع «النفي»، اليهود يساقون خارج أرضهم، ويتوزعون بين شعوب معادية، فيما يوصف بأنه الشتات اليهودي (الدياسبورا)، لكي يعيدوا اكتشاف هويتهم الوطنية الحقيقة بعد ألفي سنة.

هناك اعتراضات كثيرة على هذا التناول:

أولًا: وُضع تاريخ النفي بداية من سنة 70 ق.م، وهي السنة التي أخمد فيها الرومان العصيان اليهودي في يهودا التي كانت هي الولاية اليهودية في الإمبراطورية الرومانية، ودمروا المعبد في القدس. وقد تم ببساطة تجاهل وجود جماعات يهودية مزدهرة في ذلك الوقت، أي زمن الدياسبورا اليهودية القديمة في عالم البحر المتوسط وما وراءه، وشُطب من التاريخ.

ثانيًا: من المهم كثيرًا ما كانت أغلبية أولئك اليهود الذين عاشوا في الشتات اليهودي القديم تظنه فيما يتعلق بعلاقاتهم بمملكة يهودا ومعبد القدس، هل كانوا يؤمنون بأنهم منفيون بالفعل؟

ثالثًا: هل كان هناك حقًّا «نفي» يهودي بعد سنة 70 ق.م؟

وأخيرًا: هناك الافتراض بأن فكرة «القومية» الحديثة جدًّا، وهي في هذه الحال «القومية اليهودية»، يمكن فرضها على أحداث جرت منذ ألفي سنة مضت.

هذا الفصل سوف يحاول تطوير هذه الاعتراضات، بيد أننا نحتاج أولًا إلى أن نفهم شيئًا عن الخلفية التاريخية للتاريخ اليهودي منذ ألفي سنة مضت. والتاريخ اليهودي في تلك الفترة له

مؤرخه الخاص جدًّا وهو يوسيفوس، ولا بد لأي مناقشة عن «النفي» أن تأخذ في اعتبارها كتاباته التاريخية. وكل المؤرخين المحدثين يعتمدون عليه، حتى مع أنه لا يمكن الاعتماد عليه بسبب سوء سمعته، ولكن ما كتبه يوسيفوس يمكن أن يمدنا برؤية فريدة وكاشفة عن تلك الفترة، شريطة الالتزام بالحذر الشديد في تفسير ما كتبه(15).

وقد وصف يوسيفوس بقدر أكبر من الدقة بأنه مؤرخ يهودي روماني. فقد كان يتحدث اليونانية بطلاقة، التي كانت لغة الطبقات المتعلمة من الرومان. وكان يحترم الثقافة والسياسات الأكثر اتساعًا في الإمبراطورية الرومانية. ومن المؤكد أنه كان فخورًا بتراثه اليهودي، ولكنه كان يراه متعايشًا مع الإمبراطورية الرومانية. كان يوسيفوس واحدًا من أبناء الأرستقراطية اليهودية من ملاك الأراضي بالقدس التي كان زعماء الإمبراطورية الرومانية قد هذبوها بدرجة كبيرة. فقد كانت روما تحكم يهودا من خلال هذه الزعامة اليهودية في القدس. وعلى الرغم من أن الديانة اليهودية كانت متمركزة في يهودا، وفي موضع المعبد بالقدس بصفة خاصة، فقد كانت معروفة في شتى أرجاء الإمبراطورية الرومانية، لأن أعدادًا كبيرة جدًّا من اليهود كانوا يعيشون في أجزاء مختلفة منها. والحقيقة أن تراثًا هائلًا من الحج كان قد تطور، حيث كان اليهود من كل أنحاء البحر المتوسط وما وراءه يسافرون إلى المعبد في القدس لتقديم الفروض. وكانت الأعياد اليهودية الكبيرة أعيادًا شعبية بشكل خاص. وكانت أعداد كبيرة من بقاع بعيدة تتجمع هناك (Goodman 197:52).

كانت الديانة اليهودية قد تشكلت في يهودا (انظر الفصل الأول) وفي بابل قبل أكثر من 2500 سنة مضت. أما كيفية حدوث ذلك، فمن المؤكد أنه يخرج عن مجال هذا الكتاب(16). ولكن يوسيفوس لديه موعظة شعرية جميلة عما حدث بعد أن هزم الإسكندر الأكبر الإمبراطورية الفارسية وتعرف للمرة الأولى على القدس، قبل 2300 سنة:

«لأنه بينما بقي الإسكندر بعيدًا رأى الجموع في المسوح البيضاء، والكهنة ورؤوسهم مغطاة بالكتان، وقد ارتدى الحبر الأكبر ثوبًا من الياقوت الأزرق والذهب، وقد وضع على رأسه التاج وعليه شريط ذهبي نقش عليه اسم الرب، اقترب وحده وسجد أمام الاسم، وقام أولًا بتحية الحبر الأعظم. ثم قام جميع اليهود سويًّا بتحية الإسكندر بصوت واحد وأحاطوا به (Josephus, Jewish Antiquities, 11; cited Modrzejewski 1995:52).

عاشت أغلبية اليهود خارج يهودا

منذ ألفي سنة مضت وسبعين سنة قبل (النفي)

ينصحنا البروفيسور مودرزيجيفسكي، أستاذ التاريخ القديم بالسوربون، أن نأخذ بجدية شديدة هذا الوصف للقاء الاحتفالي بين الإسكندر واليهود في القدس. ومع هذا «فإن الحملات المظفرة للإسكندر الأكبر (336-323 ق.م) كانت نقطة فارقة... عصرًا جديدًا في التاريخ بإقليم البحر المتوسط بدأ عندما واجهت العقلانية الإغريقية الروحانية اليهودية(17).. لقد أرست غزوات الإسكندر حدود إمبراطورية عالمية.. لقد قيض لها أن تكون النموذج بالنسبة للرومان« (Mondrzejewski , 1995:47).

ويزعم مودزيجفسكي أن يوسيفوس يسجل حدثًا ذا أهمية بالغة، حتى ولو كان ذلك على سبيل الرمز. فقد بدأ شتات اليهود في جميع أنحاء عالم البحر المتوسط في أعقاب غزوات الإسكندر.

ووفقًا لجون باركلاي الذي قام بدراسة مرهقة عن الشتات القديم في عالم البحر المتوسط في تلك الفترة، كان هذا يصدق فقط على مصر بصفة خاصة عندما صارت جزءًا من إمبراطورية الإسكندر الإغريقية. فقد تم تجنيد أعداد كبيرة من اليهود جنودًا وموظفين في الحكومة. كما جاء كثير منهم عبيدًا ومهاجرين بسبب الظروف الاقتصادية (Barclay 1996:20-2).

وفي المقابل، وافق الإسكندر وخلفاؤه البطالمة في مصر على احترام الشريعة اليهودية وحماستها (Modrzejewski 1995:55). وهناك بعض الأدلة على أن الإسكندر كان يسير على هدي سابقة أرستها الإمبراطورية الفارسية قبله، حيث كان هناك أيضًا شتات يهودي (أصغر حجمًا). وكان هذا يعني التسامح مع الاستقلال الديني اليهودي المرتكز في معبد القدس مقابل الخدمات التي يؤيدها اليهود. وهناك وثائق مثيرة من مستعمرة يهودية أسبق بفترة زمنية كبيرة في جزيرة ألفنتين في نيل مصر (بأسوان الحالية)، كانت تخدم الإمبراطورية الفارسية، يعود تاريخها إلى فترة السيطرة الفارسية (Modrzewski 1955:21-44).

هذه السوابق تبدو وأنها قد ثبتت نموذجًا مألوفًا للعلاقة بين اليهود وحكام الإمبراطورية القديمة، بل إنها امتدت حتى دول العصور الوسطى، بعد ذلك بنحو ألف سنة.

وفي الإسكندرية، المدينة التي بنيت لتخليد ذكرى مؤسسها على الساحل المصري المطل على البحر المتوسط والتي صارت القلب السياسي والتجاري للإمبراطورية، نمت الجماعة اليهودية بمعدل خارق للعادة لتصل إلى ما لا يقل عن ثلث إجمالي عدد السكان البالغ خمسمئة ألف نسمة (Modrzewski 1995:73)، وقد سيطرت روما على إمبراطورية البطالمة المتداعية، ومن المؤكد أنه بحلول القرن الميلادي الأول «كانت غالبية اليهود يعيشون خارج يهودا» (Barclay 1996:4n.1) .

يهود مصر منذ ألفي سنة مضت

لا شك أنه كانت هناك عائلات بارزة كثيرة من عائلات الشتات اليهودي في الإمبراطورية الرومانية، وكان رئيس إحدى هذه العائلات هو «فيلون السكندري»، ولكن مصادرنا محدودة جدًّا واعتمدت في بقائها بعد ألفي سنة على صُدف التاريخ مثل الرمال الجافة في الصحراء المصرية التي خزنت أحيانًا أوراق البردي، أو في هذه الحال الانبهار المسيحي بهذا الفيلسوف اليهودي اليوناني. «لقد كان المسيحيون الأوائل على ألفة بمقولة يونانية تقول «Either Plato Philonises or Philo Platonises» أي أفلاطون الفيلوني، أو فيلون الأفلاطوني كما يقول الراهب المسيحي جيروم (Barclay 1996:165).

«لقد كان فيلون على قمة الجماعة اليهودية في الإسكندرية... على ذروة التراث الفلسفي اليهودي... مرتبطًا على نحو عميق بالثقافة الهيللينستية» (Barclay 1996:158)، لقد كان فيلسوفًا أفلاطونيًّا، ولكن على حد تعبير فيلون «في مدرسة موسى» (Barclay 1996:163).

كان شقيق فيلون هو الإسكندر كبير مفتشي رسوم الجمارك «آلابارخ- Alabarch»، التي كانت تجبى على الضفة الشرقية للنيل. وكان واحدًا من أغنى الرجال في المدينة، وكان يعطي منحة للمعبد في القدس من صحون الذهب والفضة لبواباته التسع. ويزعم يوسيفوس أنه كان «مشرفًا» أيضًا، وربما كان مستشارًا، على الرغم من أن معناها غير مؤكد، لأم كلوديوس الإمبراطور الروماني (Barclay 1996: 158-160).

وكان تيبريوس جوليوس إسكندر ابن أخي فيلون. وعيَّنه الإمبراطور كلوديوس وكيلًا قضائيًّا في يهودا، وقد ساعد في وقت لاحق في إخماد العصيان اليهودي بالقدس. ويخبرنا يوسيفوس أن تيبريوس تخلى عن عادات أسلافه (Modrzejewski 1995:186-8).

وسيكون من الحماقة أن نخرج باستنتاجات عامة من عائلة واحدة، خصوصًا هذه العائلة. بيد أن هناك صفة خاصة واحدة تظهر بالفعل، فعلى الرغم من أن هذه عائلة مندمجة تمامًا، فإن اثنين من أعضائها البارزين تمسكا باليهودية تمامًا. وقام الثالث بقطيعة نهائية مع هذا الدين، ولكن حتى هنا لا يوجد بالضرورة مؤشر على موقف تجاه الإمبراطورية الرومانية الوثنية.

أما يوسيفوس، الذي كان قائد التمرد اليهودي ضد الجيوش الرومانية في الجليل، فقد غير موقفه إلى الجانب الآخر. وحتى في ظل الحماية الرومانية، أقسم على استمرار التزامه بديانته اليهودية.

لقد كانت هناك مستويات عالية من الاندماج بين الجماعة اليهودية في مصر. فقد خدم اليهود في كل مراتب الجيش الإغريقي الإسكندري، في صفوف المشاة في الفرسان «من المشاة المتواضعين إلى الضباط والصرَّافين في الجيش» كما يقول باركلاي (Barclay 1996:115). وفي معظم الحالات كانوا يخدمون في الوحدات العسكرية التي تضم أجناسًا مختلطة.

كان معظم اليهود مرتبطين بنظام الكليروخوس، وهي الآلية المستخدمة لفرض الحكم الروماني في الريف. وجنبًا إلى جنب مع الجنود المرتزِقة المهاجرين من أجزاء أخرى في الإمبراطورية، أعطيت لهم مساحات من الأرض ومن ثم تحولوا إلى ملاك أراضٍ صغار يرتبطون بالامتنان والالتزام للبيروقراطية الإمبراطورية (18)(Tcherikover and Fuks 1957:11-17) . وقد أدى هذا حتمًا إلى الاستياء بين الكليروخوس المهاجرين من ناحية والفلاحين الأهالي من ناحية أخرى (Modrzewski 1976: 48).

فهل كان الاندماج إذًا مع المجتمع اليوناني ثم -فيما بعد- المجتمع الروماني الإمبراطوري فقط وليس مع الأهالي المصريين؟ «حقًّا إن اليهود المصريين تخلوا عن العبرية ثم الآرامية وأنتجوا أدبًا باليونانية» (Modrzewski 1995 XI,XII).

ومع هذا، علينا أن نخشى من التعميم العقائدي. فبالإضافة إلى ما ذكرناه، كان هناك عدد ضئيل من الفلاحين اليهود في مصر. ونسمع عن راعٍ اسمه باسوس اليهودي، كان يعمل في ضيعة مملوكة لرجل غير يهودي. كان باسوس «على الأقل يحظى باعتراف بأنه جاء أصلًا من يهودا» (Barclay 1996:115). وهناك «سيوس اليهودي» الذي كان مدينًا لتاجر صوف غير يهودي. ونجد يهوديًّا آخر يرعى القطيع المملوك لمعبد مصري (Barclay 1996:115) ولدينا أيضًا حرفيون وبناؤون ونساجون، ومكارية حمير، ومراكبية، يعملون في بعض الأحيان لدى غير اليهود (Barclay 1996:116).

وينعكس بعض الإحساس بالاندماج في المجتمع المصري المحلي في كتابات أحد المؤلفين اليهود، وهو أرطپانوس على الرغم من أنه كتب باللغة اليونانية والذي كان متعاطفًا مع العبادات الدينية المصرية (Barclay: 127-32) (على الرغم من أن معظم الكتابات الدينية اليهودية كانت تهاجم العبادات المصرية) (Barlclay 1996:46) ولكننا لا نستطيع سوى أن نخمن هذا الاندماج. وعلى أي حال، فإن فيلون لا يترك لدينا شكًّا بشأن المكان الذي يسميه

اليهود وطنهم، من وجهة نظره.

فيلون: «الشتات القديم هو الوطن»

بينما يعتبر فيلون أن فلسطين، أو جزءًا منها على الأقل، هي الأرض المقدسة، فإنه لم يكن يعتبرها الوطن. وقد قالت پيرس إن:

«مناقشاته بشأن الرحلة سعيًا وراء الحكمة تؤكد على أن الشخص الحكيم الذي يتجسد في مثال إبراهيم.. ، ينبغي أن يهجر الوطن الذي يرتبط غالبًا وبشكل صريح بالجهل أو الديانة المزيفة لصالح الوطن الحقيقي، الذي هو مملكة الرب، أو الفضيلة... كما أن الانفصال عن وطن بعينه يشكل جزءًا من تقديم فيلون للحكماء باعتبارهم «مواطنين عالميين» يسمون فوق الارتباط بأماكن معينة...».

(Pearce 1998:100)(19).

وما يخلب الألباب في منظور فيلون، هو كيفية تنبؤه بالعالمية الحديثة التي خرجت من طيات الشتات اليهودي الأوروبي في العصور الوسطى، والتي أصبحت جزءًا رائعًا من التراث التنويري اليهودي. وثمة جانب أكثر إظلامًا في هذا بطبيعة الحال.

ويتمثل هذا الجانب المظلم في التراث الذي ساعد دائمًا على تغذية اللاسامية الحديثة والهجوم على «الكوزموپوليتانية اليهودية» التي لا جذور لها، والتي كانت الصهيونية أحيانًا تقلدها ببراعة(20) ويبدو أن الكوزموپوليتانية اليهودية أقدم من الصهيونية بما يقرب من ألفي سنة!!

ويعترف فيلون بالأهمية لارتباط الناس بوطنهم: «الإخلاص الوطني... من بين أسمى الخيرات، وأمر به الرب في شريعة موسى» (Pearce 1998: 100-1) بيد أن «الوطن» هو «قبل كل شيء هو المكان الذي وُلد فيه المرء وتعلم في رحابه» والواقع أن «الأرض المقدسة» ليست «الوطن»، وإنما هي «أرض غريبة»:

«يفترض فيلون شعورًا مشتركًا في الارتباط بالأوطان المحلية عندما يصور الحج إلى معبد القدس باعتباره «أقسى امتحان»، يتطلب التخلي مؤقتًا عن الوطن والعائلة للعيش في أرض غريبة. «ولا شك في أن الإخلاص للمعبد وشرائعه تمثل المركز في هوية فيلون اليهودية. ولا يعني هذا، على أي حال، أن هذا التعبير عن الالتزام يجب أن يُقرأ بمصطلحات تهمش ولاءه المحلي (Pearce 1998:101).

ولدينا هنا تأكيد بأنه لم تكن هناك رابطة ضرورية بين البؤرة الدينية في الحج والمعبد، وبين الإخلاص الوطني (للأرض الموعودة).

كيف يتناسب منظور فيلون مع بقية الشتات اليهودي في العالم القديم؟ إن مصادرنا محدودة للغاية. ومع هذا نجد هنا استنتاج باركلاي الذي يختتم به تقويمه لمصادر تاريخ اليهود في روما منذ ألفي سنة:

«إن مسحنا لتاريخ يهود روما كان موجهًا إلى درجة كبيرة على أساس من «اللقطات الفوتوغرافية»... إلا أن هذه وفرت... صورة متماسكة إلى حد بعيد. وباعتبار اليهود إحدى أقليات كثيرة مهاجرة في روما، كانوا خاضعين لازدراء النخبة الرومانية على المستوى الاجتماعي

والثقافي، حتى على الرغم من أن أفرادًا استثنائيين من اليهود كانوا معروفين في البلاط الإمبراطوري. على أي حال، فإن استمرار عادات اليهود الموروثة، وجاذبيتهم الخاصة للرومان من طبقات اجتماعية كثيرة كانت ملامح خاصة بالصورة اليهودية، بالقدر الذي لفت الانتباه العدائي من جانب تيبريوس، وكلاوديوس، ودوميتيان... ولم يحدث أن كان اليهود الرومان من الكثرة أو كانوا يمثلون تهديدًا للعامة من الرومان أو الطبقات الحاكمة بحيث تقع حوادث عنف من النوع الذي شهدناه في المدن السورية والمصرية والليبية. ولأن أيديهم كانت نظيفة من الحروب في يهودا وتمرد الشتات سنة 116-117م، استطاعت الجماعة اليهودية في روما أن تحتفظ بتاريخ متواصل استمر حتى يومنا هذا (Barclay 1996: 318-19).

اليهود وغير اليهود في الشتات القديم

يبدو معقولًا أن نقر بأن يهود روما كانوا يعتبرون روما «وطنًا» لهم. ومع هذا فإن باركلاي يكتب عن العنف في أماكن أخرى من الشتات. ومن المستحيل أن نحكم على مستويات كثافته أو أثرها على تجذر اليهود محليًّا، فقد كان يرتبط أحيانًا بالطريقة التي كان الحكام الأباطرة يجعلون الديانات المختلفة والمجموعات العرقية المختلفة تتحرك بعضها ضد بعض. و«مذبحة الإسكندرية سنة 38 ميلادية كان من بين أسبابها الطريقة التي أدارت بها روما العلاقات بين الإغريق واليهود والمصريين في المدينة» (Barclay 1996:48). ولا شك في أن اليهود كانوا عرضة لعداوة خاصة إذا ما نظر إليهم على أنهم يفرضون سياسات إمبراطورية غير شعبية (مثل نظام الكليروخس في مصر). وبشكل عام فإن اليهود الذين عرفوا بإدراكهم لاختلافهم الديني، وربهم الواحد الخفي، وبالختان، وقوانين الطعام ومراعاة السبت، كان من السهل أن يستعبدوا الآخرين. و«لأنهم كانوا موالين بعضهم لبعض، فإنهم كرهوا الآخرين جميعًا» كما يقول المؤرخ الروماني تاكيتوس (Coodman 1987:98).

وغالبًا ما يشير يوسيفوس إلى كراهية السوريين الراسخة لليهود (Barclay 1996:248) وهو عادة مصدرنا الوحيد، وينبغي أن نكون حذرين، لأنه ترك لنا صورة بديلة مُعذبة أيضًا. ففي نفس الفترة التي كان فيها التوتر بين اليهود وغير اليهود يتصاعد بسرعة، مباشرة قبل التمرد اليهودي ضد روما، يقدم يوسيفوس الدليل على أن غير اليهود كانوا منجذبين تجاه اليهود. فهو يكتب عن كل مدينة كان لها «مهودوها»، المبشرون اليهود الباحثون عمّن يريد اعتناق اليهودية، وعن عنصر «مختلط» ليس يهوديًّا خالصًا ولا غير يهودي (Barclay 1996: 248). وفي دمشق يزعم أن الجميع «فيما عدا زوجات قليلات من الدمشقيات قد اعتنقن الديانة اليهودية» وفي أنطاكية، وهي مدينة قديمة في نفس المنطقة، كانت اليهودية تجتذب عددًا كبيرًا من اليونانيين (Barclay 1996: 254).

وتقول مصادر العهد الجديد من الكتاب المقدس المزاعم نفسها؛ ففي قيصرية كانت اليهودية تنتشر حتى بين العسكريين، كما يقول كرنيليوس (أعمال الرسل، الإصحاح العاشر: 1-2)(21) (Barclay 1996:254) وكان يوسيفوس على ثقة تامة من أن اليهودية لا يمكن مقاومتها في النهاية:

«لقد أظهرت الجماهير على مدى فترة طويلة من الزمان شغفًا عظيمًا بديانتنا... وليست هناك مدينة واحدة، إغريقية أو بربرية... لم تتسرب إليها عادة يوم السبت الذي نخصصه للعبادة؛ حيث الصيام، ووقود المصابيح، والكثير مما نحرمه بالنسبة للحوم تتم مراعاته... ودون الطعم

المغري للفرح الحسي، ولكن فقط بسبب الجدارة الجوهرية الذاتية برهنت الشريعة (اليهودية) على مدى فعاليتها الشديدة» (Josephus 1996:282).

وربما يكون يوسيفوس مبالغًا كما يؤكد ذلك معظم الباحثين في العصر الحديث ولكن، على الأقل، فإنه من المؤكد يعكس الثقة بالنفس لجماعة فخورة بديانتها. إنه لا يمكن أن يكون وصفًا لجماعة معزولة تعيش في «المنفى» (الواقع أنه عند هذا التقاطع بالضبط بين اليهود والوثنيين، بدأت العبادة اليهودية المسيحية تبتعد عن بعض التحريمات الأكثر صرامة في اليهودية. وأشهر يهودي في الشتات وهو «بولس الطرسوسي» (بولس الرسول)، سوف يقوم برحلة يطوف فيها بجماعات الشتات، يبشر في معابدهم ويوحد بين المتعاطفين من اليهود والأمميين. أما الباقي، فهو كما يقولون، تاريخ معاد لليهود بالتأكيد، ولكنه يبقى شهادة على حركية وإبداع الجماعة اليهودية في الشتات في القرن الميلادي الأول)(22).

منذ ألفي سنة عاش اليهود في جزء من أرض إسرائيل - سامرا والجليل ويهودا

ماذا عن اليهود الذين يعيشون فيما يسمى «أرض إسرائيل»؟ أولًا يجب علينا أن نتذكر من الفصل الأول أن «أرض إسرائيل» بحد ذاتها أسطورة دينية. فمنذ ألف سنة مضت كانت هناك ثلاثة أجزاء جغرافية وسياسية متمايزة تكون ما يسمونه «أرض إسرائيل»، التي تبني عليها الصهيونية الحديثة مزاعمها، وهي السامرة ويهودا والجليل. وكل منها يحتاج إلى أن نتدبره بشكل منفصل.

تكشف السامرة عن أعمق خطوط التصدع بالنسبة للصهيونية. فحتى يومنا هذا، هناك هوية سارية فريدة، ليست لها روابط بإسرائيل الحديثة أو اليهودية الحديثة كما هي مفهومة في الغرب. وهناك مؤرخ واحد، هو كوجينز، قد أمعن النظر بحق في مغزى وجود ثلاثة مرشحين من السامرة شاركوا في انتخابات المجلس التشريعي الفلسطيني الافتتاحي في الضفة الغربية سنة 1م. وكما يكتب: «إن تمايز السامرة باعتبار أنهم ليسوا عربًا ولا إسرائيليين، هو ما تم الاعتراف به على هذا النحو» (Coggins 1998:66).

لقد أصرَّ السامريون على أنهم يهود، ولكن في القرن الأول كان بينهم وبين مملكة يهودا عداء مستحكم. وقد أذكى نار العداوة بينهم رفض السامرة الاعتراف بمعبد القدس. وبدلًا من ذلك، كانوا يتعبدون فوق جبلهم، «جبل جرزيم»، وتتمثل الصعوبة هنا في أنه لا توجد وثيقة باقية من السامرة. ومعظم الوثائق يهودية، بالمفهوم الذي يمثله معبد القدس، كما أنها معادية للغاية. وقد لخص ميللر مدى ضآلة ما نعرفه عن السامرة.

«إن الكيفية التي رأوا أنفسهم بها، قد تم التعبير عنها بشكل واقع من خلال نقشين باليونانية في جزيرة ديلوس اليونانية (مما يكشف عن شتات سامري).

«إن الإسرائيليين(23)... الذين يدفعون ضرائب العشور إلى جبل جرزيم المقدس. والتاريخ الحقيقي، وحجم الاستيطان ونماذجه في الجماعة السامرية في السامرة نفسها، غير معروف سوى في نطاق ضئيل بدرجة غير عادية. ومن خلال الأدلة التي ترجع إلى تلك الفترة لا نعرفهم سوى من الخارج، كما هي الحال مثلًا في وصف إنجيل يوحنا عن الكيفية التي تحدث بها يسوع مع امرأة سامرية عند بئر يعقوب(24) «آباؤنا عبدوا الله في هذا الجبل، وأنتم اليهود تصرون على أن أورشليم يجب أن تكون المركز الوحيد للعبادة» (يوحنا 4: 20). ولم يمر وقت طويل

على هذا التاريخ الدرامي، حتى أرسل بونثيوس بيلاطس تجريدة عسكرية لذبح جمهرة من السامريين كانوا قد تجمعوا في قرية بالقرب من جبل جرزيم، على أمل أن تظهر الأواني المقدسة التي كان موسى قد أودعها هناك (كما تذكر رواية يوسيفوس). وبعد ذلك بثلاثين سنة، في المراحل الباكرة من التمرد اليهودي، تجمع عدد كبير من السامريين مرة أخرى فوق جبلهم المقدس، وفي صيف سنة 67م تم ذبح ما يربو على أحد عشر ألفًا بأيدي القوات التي أرسلها الإمبراطور الروماني ڤيسپاسيان...» (Millar 1993:341).

لا يوجد دليل على أن يهودا ويهود السامرة قد استطاعوا أبدًا أن يجدوا قضية مشتركة في نضالهم ضد الرومان على الرغم من قسوة عدوهم المشترك. وهذا ما يشكل نقطة لها دلالتها الموحية جدًّا. فمنذ ألفي سنة مضت، لم تستطع مملكة يهودا القديمة أن تؤكد سلطتها على السامرة، كما رفضت السامرة أن تعترف بالسلطة الدينية للقدس. وليس ثمة معنى لمسألة الاعتراف بسلطتها الوطنية خارج هذا الإطار الديني.

بل إن الجليل تطرح مشكلات أشد خطورة

فقد وصف الباحث المتخصص في لفافات البحر الميت، ﭼيزا ڤيرميس، الجليل في كتابه المميز «Jesus the Jew» (يسوع اليهودي)، الذي يفحص الجذور اليهودية ليسوع وسياق قصته. وإن قدرة الكاتب الفذة على استخراج التاريخ الحقيقي من الأناجيل، والكتابات الدينية التي للربيين اليهود مثل التلمود، وما كتبه يوسيفوس، قد أدت إلى نتائج مذهلة. فهو يكشف عن يهودية فلاحية خشنة، ومرتجلة، في القرن الأول الميلادي، على خلاف مع القدس وبنفس درجة الخلاف مع روما. ففي البداية كانت الجليل (شمال فلسطين) محكومة بشكل منفصل عن يهودا «وهي حقيقة عززت من إدراك أهل الجليل ووعيهم بذاتهم» (Vermes 1983:45) هذا الوعي المحلي والإقليمي عكس أيضًا الجغرافيا الاقتصادية. فقد كانت الجليل أرضًا خصبة على نحو خارق للعادة، إذ إن زيت الزيتون الذي كانت تنتجه مثلًا، كان يصدَّر إلى جميع أنحاء عالم البحر المتوسط. والاكتفاء الذاتي الاقتصادي للجليل «ربما يكون قد غذى كبرياء السكان واستقلالهم» (Vermes 1983: 46).

وقد كان زعماء المعبد في القدس يبغضون أهل الجليل. فقد كانوا: «فلاحين»، ولكن الكلمة العبرية توحي أيضًا بأنهم كانوا غير متعلمين دينيًّا. والاقتباس التالي من التلمود يعكس الاستياء المتبادل بين يهود المعبد الأرثوذكس وبين يهود الجليل (الفلاحين = عام هاآرتس):

«لا يجوز لأي رجل أن يتزوج ابنة أحد اليهود الفلاحين؛ لأنهم مثل الحيوانات النجسة، ونساؤهم مثل الأفاعي، وعن بناتهم يقول الكتاب المقدس: «ملعون من يرقد مع أي صنف من الحيوان» (Vermes 1983: 54).

ويشي اقتباس من التلمود أيضًا بأن الكراهية بين القدس اليهودية وريف الجليل اليهودي كانت أكثر كثافة منها بين اليهود والوثنيين: إن كراهية العام هاآرتس أكبر تجاه المتعلمين من كراهية الوثنيين لإسرائيل، ولكن كراهية زوجاتهم تظل هي الأكبر» (Vermes 1983:55).

ويجد ڤيرميس ملاحظة في أحد الأناجيل تردد أصداء مثل هذه العداوة، وتقول هذه الملاحظة: «من المؤكد أن المسيح ليس من الجليل» (Vermes 1983:55).

وكما هي الحال بالنسبة للسامرة، لا يوجد دليل على أن الجليل قد انضم إلى يهودا في صراع

مشترك ضد روما. والواقع أن راجاك، في كتابها عن سيرة يوسيفوس، قد أسمت الفصل الذي خصصته عن الجليل «الحرب الأهلية في الجليل»، كاشفة عن حقيقة أن القتال داخل الإقليم كان اقتتالًا بين البعض والبعض الآخر أكثر من كونه قتالًا ضد روما. وهي تزعم أن الموقف كان قريبًا من الفوضى الكاملة (Rajak 1983:165).

لقد كان يوسيفوس هو القائد الأعلى بالقدس المسؤول عن الجليل عند بداية التمرد اليهودي. وتتميز راجاك بالصراحة الكاشفة وهي تتحدث عن ولاء الجليليين لقائدهم القادم من القدس:

«يخبرنا يوسيفوس... عن عصابات لم يستطع نزع سلاحها، ومن ضمهم إليه مرتزِقة... وإذ وجد نفسه قائدًا طموحًا لما يشبه عصابة من الرجال المتوحشين، انتفخت بمن انضم إليها من الفلاحين الذين لا مأوى لهم، والقرويين الغاضبين» (Rajak 1983:145).

ومع هذا، جاء بعض أهل الجليل إلى يهودا، وربما إلى القدس، لكي يحاربوا. أما ما كانوا يحاربون من أجله هم وسكان يهودا فهو السؤال الذي يجب أن نحاول الإجابة عليه الآن.

التمرد اليهودي ضد روما 66-70م

يرمز التمرد اليهودي ضد روما (66-70م) إلى نقطة فارقة كبيرة في التاريخ اليهودي القديم. وكونها حربًا من أجل التحرر اليهودي أمر لا شك فيه؛ أما إذا ما كانت تصلح نموذجًا قانونيًّا مشروعًا لحركة قومية يهودية مثل الصهيونية، فهو الأمر الذي يثير الكثير من الشكوك بكل تأكيد.

ولنبدأ بالعائلة الثورية غير العادية عائلة يهوداس الجليلي. فقد ولد عند بداية القرن الميلادي الأول، وقاد المعارضة ضد التعاون مع الإحصاء الروماني وكانت تلك وسيلة لتجنب دفع الضرائب. وبعد ذلك بأربعين سنة، تم صلب اثنين من أبنائه هما، يعقوب وسمعان، بسبب أعمال التحريض الثورية. وكان هناك ابن باقٍ، هو مناحم، الذي صار فيما بعد أحد الزعماء الثوريين في القدس.

وكان هناك ابن أخ لمناحم، اسمه إليعازر، هو القائد الأسطوري لصخرة مسعدة «الماسادا»، حيث قام عدة مئات من اليهود، بعد الصمود أمام الرومان في أعقاب سقوط القدس، بعملية انتحار جماعي في نهاية الأمر.

وربما يثور الاعتراض على أن مصدرنا عن هذه السلالة هو يوسيفوس، ومن ثم فإن التاريخ الذي يكتبه لا يمكن الاعتماد عليه. ولكن الصهاينة يكونون أكثر من سعداء باستخدام يوسيفوس عندما يناسبهم. لقد صارت صخرة مسعدة أحد أهم أماكن الجذب السياحي في إسرائيل الحديثة، وتستخدم بصفاقة كوسيلة لصناعة الدعاية الصهيونية. ووفقًا لييجال يادين، أشهر أثري إسرائيلي أجرى حفائره في الموقع، فإنه «من خلال الزيارات إلى الماسادا، يمكن أن نعلم إخوتنا (في الشتات) ما نسميه اليوم الصهيونية (Zerubavel 1995:67). وغالبًا ما تتضمن الكتيبات السياحية مستخرجات من خطبة إليعازر الشهيرة عن «الحرية» عشية الانتحار الجماعي (Zerubovel 1995:134). والخطبة مستخرجة من تاريخ يوسيفوس، ويسود اعتقاد عام بأنه قد اصطنعها، مما يكشف عن الجانب غير الجذاب في شخصية يوسيفوس»(25) .

ويتطلب الاعتماد على يوسيفوس قدرًا عظيمًا من الحرص. فقد كتب الباحث النزيه، مارتن

جودمان، ما يعتبر -من ناحية حججه- أفضل تقرير عن التمرد اليهودي.

ففي هذا الكتاب الذي يحمل عنوان: (The Ruling Class of Judaea The Origins of the Jewish Revolt against Rome 66-70).

يفصل بمهارة بين يوسيفوس بوق الدعاية وبين يوسيفوس المؤرخ الحقيقي.

لقد كان التمرد اليهودي ضد روما حرب فلاحين ضد الطبقة الحاكمة اليهودية فاحشة الثراء في القدس، مثلما كان حربًا ضد حكم روما. والواقع، أن جودمان هو الذي أوضح أن روما انقلبت على الطبقة الحاكمة اليهودية بسبب عجزها عن السيطرة على الفلاحين.

ويستحق تحليل جودمان لحركة عصيان الفلاحين السابقة، التي قادها يهوداس الجليلي أن نوليه انتباهنا الخاص؛ لأنه يقدم لنا العقلية التي كانت لدى الناشطين الثوريين من الفلاحين، إذ إن استخدام جودمان للدليل الذي أخذه عن يوسيفوس حول يهوداس يوحي بأن هذا الأخير يقدم حركة مسيحية، لم تكن تحترم الحدود الوطنية ولا الزعماء الوطنيين، إذ يكتب جودمان:

«لم يكن ما يقال إن يهوداس قد اقترحه هو مجرد أن الخضوع لروما كان شرًا، ولكن قبول أي سيد من البشر كان خطأ لأنه لا يجب أن يحكم اليهود غير الله وحده... وكان تأثير هذه الأيديولوجية هو الفوضى والثورة«.

كان أكثر الدوافع إلحاحًا لانضمام أي يهودي في نضال عنيف، هو الاعتقاد أن العصر المسيحاني لم يكن مجرد أمل مستقبلي... وإنما هو حقيقة واقعة. فما إن يصل المسيح، وتكون المعارك الأخيرة (التي صورتها لفافة الحرب التي عثر عليها في خربة قمران)(26) على وشك الاندلاع... فلن يكون أمامكم من خيار سوى المشاركة. (1987: 93-4,91-2).

لدينا هنا «فوضى مسيحانية مذهبية»، شكل من التحرر اليهودي لا يعترف بأي بناء لدولة، سواء أكانت وطنية أم غير ذلك.

وبينما تعتبر راجاك، وهي الخبيرة في يوسيفوس، أن هناك قدرًا من المبالغة في التأكيد على النزعة المسيحيانية (1983:40-1)، فإنها تعزز التفسير الفوضوي الجديد بمفاهيم علمانية «قطع الطريق» و«اللصوصية»، باعتبارها تفسيرات سياسية:

«كان قطاع الطرق، بطبيعة الحال، عدو المستوطنين وأصحاب الأملاك في شتى أرجاء العالم القديم؛ وحتى روما ما لم تستطع دائمًا أن تصدهم عن الإمبراطورية. فالعصابات حالة متطرفة. وهي... كما يعترف يوسيفوس... أن معظم المتمردين لديهم أحقاد ضد أبناء طبقة أخرى غير طبقتهم، وبعضهم على الأقل كان مسوقًا برؤيا -ربما غير مميزة، وأحيانًا مسيحيانية، ولكنها لم تكن بلا مضمون عملي- لمجتمع أفضل...».

«... الثوريون... لا بد أنه كانت لهم أهداف اجتماعية وسياسية واضحة، حتى لو كانت غامضة ومحددة بشكل سيئ... والغموض... كان مختلطًا بالنقص العام في الأيديولوچية الثورية الواعية في العالم القديم... وربما نفترض (الأهداف)... والمعايير في العالم الإغريقي، على أنها مطالب بإلغاء الديون (تذكر تدمير سندات المرابين في سجلات معبد القدس) ولإعادة توزيع الأرض وهو ما لا يعلق عليه يوسيفوس». (1983:85,139).

وتقتبس راچاك من كلام إريك هوبسباوم في كتابيه Primitive Rebels وBandits قوله إن عصابات الفلاحين وقطّاع الطرق، باعتبارها شكلًا من الاحتجاج الاجتماعي والسياسي البدائي ضد الظلم وعدم المساواة، لها تاريخ طويل ومشرف في جميع أنحاء العالم في العصور القديمة والعصور الوسطى.

وكان الزيالطة Zealots يشكلون أهم مجموعة ثورية منظمة في التمرد، وتولوا السلطة في القدس لوقت قصير. وهناك تبدو بعض الاستمرارية التاريخية مع يهوداس الجليلي، حسبما يرى ڤيرميس على الأقل. وقد جندوا رجال العصابات لتقوية قاعدة سلطتهم في القدس (Goodman 1987:225). وعندما استولوا على المعبد اختاروا الحبر الأعظم الجديد عن طريق السحب حسب الحظ، وبذلك تجنبوا المرشحين من عائلات الطبقة الحاكمة التقليدية. وكان الحبر الأعظم الذي تم اختياره قاطع أحجار في إحدى القرى، وربما كان هو أول حبر أعظم من أصول على هذا القدر من التدني. وتبدو في هذا رنة من الحقيقة، إذا ما كان السبب هو أن يوسيفوس كان شديد الحنق لهذا، فقد استبعده باعتباره ريفيًا ساذجًا وجاهلًا (Rajak 1983:133).

وقد سك الزيالطة أحسن عملات التمرد (Godman 1987: 201 n.3).

والعملات لا تقدر بثمن لأنها أحسن دليل متاح -بعيدًا عن يوسيفوس- عن الأهداف العامة للتمرد. إذ إن الشعارات (التي تحملها العملات) أكدت على الحرية وعلى قداسة مدينة القدس... وحساب عدد السنين من إعلان الاستقلال يكشف عن بداية عهد جديد (Goodman 1987: 178). وهي تشي بنضال من أجل يهودية حرة ومستقلة، ومن أجل الدفاع المسلح عن مركزها الروحي، أي معبد القدس، ربما توقعًا لوصول المسيح المخلص. ولكن هنا أيضًا تحثُ راچاك على الحذر في التعامل مع الشعارات على أساس أنها دينية خالصة:

«إن الشعار الواحد... هو الكلمة المفردة «الحرية»»، الذي تحمله العملة، ويطرحه يوسيفوس كذلك. إن المعلقين على يوسيفوس من أصحاب العقلية اللاهوتية، وهم الأغلبية، قد قرؤوا هذا قراءة أخروية، أي من خلال نظرة مؤمنة بالبعث والآخرة، باعتباره يشير إلى الأحوال التي سوف تنشأ في يوم القيامة. إلا أن حتى... مثل هذه الدوائر... تسمح بأن نوع الحرية الذي كانوا يحملون به... لا بد أنه كان يحمل مكونًا بارزًا عن التحرير العملي للمقهورين». (1983: 139).

ويجادل جودمان أن فشل الطبقة الحاكمة اليهودية في القدس في السيطرة على العناصر الفوضوية التي بدأت تظهر جذورًا لحركة التحرر، هو الذي أثار سخط روما إلى هذا الحد. وقد ألهب هذا تقليد تدريب مفسرين مستقلين للتوراة من بين الفلاحين، وكان هؤلاء أيضًا على استعداد لتقديم التبريرات الدينية لملكية الفلاحين -بشكل مستقل- للأرض.

ويكتب جودمان: «سيعرف الفلاحون أن النموذج الذي وضعه الرب في التوراة يتطلب من كل رجل أن يمتلك أرضه الخاصة باعتباره مواطنًا حرًا متساويًا مع الآخرين». (1987:67).

ويستمر قائلًا:

«كان هناك كثير من الأحبار والخبراء في تفسير التوراة الذين كانوا -على الرغم من أنهم مستبعدون خارج الطبقة الحاكمة- قد تمكنوا من تحقيق قدر كبير من الهيبة بين الجماهير، بيد أنهم لم يقوموا بأي محاولة للاستيلاء على السلطة لصالحهم، لأنهم مثل الفقراء عمومًا، كانوا

يفتقرون إلى المؤسسات... ولم يكن الخطر على المجتمع كامنًا في الثورة، وإنما تمثل في الفوضى على نحو أكثر غدرًا». (1987:137).

ولا نستطيع أن نمضي في المناقشة إلى أبعد من ذلك؛ لأنها لن تصل إلى نتيجة، ويمكننا أن نرى الخطوط الخارجية لصراع ثوري مرير، بيد أنه محجوب خلف ضبابيات الزمان. ومع ذلك يمكننا أن نستخرج رؤًى داخلية مهمة من فئات الأدلة. ويمكن أن ننشغل في حماسة بتفسير يوسيفوس غير الصادق، ولكن ينبغي أيضًا أن نكون مدركين للملاحظة التي أبداها عالم الدراسات الكلاسيكية المتيز دي ستس كروك G. E.M. de Ste Croix.

«إذا لم يكن لدى الإغريق كلمة تعبر عن شيء ما... ربما يكون هذا تحذيرًا مفيدًا بأن الظواهر التي نبحث عنها ربما لم تكن موجودة...». (de Ste Croix 1983:35).

القومية فكرة حديثة وهي تتطلب الإسهام الجماهيري من جانب أناس واعين بأنفسهم باعتبار أنهم سيكونون مواطنين في بنية دولة داخل أرض يتم تحديدها وطنيًّا (Hobsbaum 1990:19). ونحن لا نملك ببساطة دليلًا من التمرد اليهودي يجعلنا نراه نضالًا من أجل التمرد الوطني ليهودا، دعك من التحرير الوطني «لأرض إسرائيل».

النفي إلى الجليل

هل أدى تدمير المعبد في القدس في أعقاب هزيمة المتمردين اليهود على أيدي الرومان، إلى «النفي»، على الأقل بالنسبة ليهود القدس ويهودا؟

من المؤكد أنه يبدو محتملًا أن منطقة القدس، وفي أعقاب حركات التمرد في الشتات(27)، وفي ريف مملكة يهودا بقيادة باركوخيا(28)، تم إخلاء بقية مناطق يهودا بالقوة من اليهود ولا شك في أنه كانت هناك هجرة داخل الشتات اليهودي، ولكن كانت هناك أيضًا هجرة مكثفة إلى الجليل، حيث كانت الديانة اليهودية، في صيغة ربانية معدلة، مقدرًا لها أن تزدهر بموافقة الرومان. وقد اقتفى جودمان آثار وصول الربيين المنفيين من يهودا إلى الجليل في ذلك الوقت، مستخدمًا مصادرهم الدينية ذاتها. والقصة التي يحكيها لنا هي عن اثنين من أهالي يهودا عقب التمرد اليهودي مباشرة. وهناك الديانة اليهودية الفلاحية الموجودة بالفعل التي تنتشر في قرى الجليل المزدهرة، والتي وصفها فيرميس في الصفحات السابقة، وهناك المحاولة التي قام بها الربيون المهاجرون الحرفيون(29) لطرح التزام أكثر صرامة بالشريعة اليهودية. وقد أبدت روما قدرًا كبيرًا من عدم الاهتمام بهذه العملية (Goodman 1983: 154)، على الأقل في مراحلها الباكرة، ولم تهتم إلا بجمع الضرائب (Goodman 1983: 146).

وبينما نسجل مجرد عدد قليل من المميزات للصراع بين هذين الشكلين من الديانة اليهودية -في ظل هزيمة حركات التمرد اليهودي وتدمير المعبد- فإن ما يترك الانطباع المؤثر هو الاستمرارية اليهودية وكذلك العلاقات الهادئة مع غير اليهود في إقليم الجليل. ولدينا هنا لمحات عن الأخذ والرد مع الجيران غير اليهود في الريف(30).

ووجهة النظر الصهيونية التي تقول بأنه في ذلك الوقت بدأ الألم والعذاب في ليل «النفي» الطويل في عالم تحكمه كراهية اليهود، لا محل لها ولا مكان في الجليل ويكتب جودمان أننا نعرف عن يهود:

«يأكلون سويًا مع الوثنيين، على الرغم من أنهم لا يأكلون طعامهم بالضرورة... وربما يساعد الوثني في سقاية حيوان جاره يوم السبت... ويفضل اليهود السفر بصحبة الوثنيين على مكابدة مخاطر السفر وحدهم... يجب أن يظهروا التعاطف في الأوقات التي يحزن فيها الوثنيون ويواسونهم ويدفنون موتاهم والسبب الذي يقدمونه «لأساليب السلام» يوحي بأن مثل هذه العلاقات قامت حقًا وأجبرت الربيين على أن يكونوا متساهلين ضد رغبتهم«.

وكان لا بد للاتصال الودي أن يتحول إلى علاقات حميمة. وربما كانت المرأة اليهودية تعير ملبسها إلى صديقة من الأمميين، وربما يعير الرجل جحشه، وهناك الكثير من التعليقات على القروض المالية في كلا الاتجاهين. وكان يمكن للتعاون أن يمتد إلى الملكية المشتركة لمزارع الكروم والمزارع... ومن مثل هذه الأنشطة ربما كانت تنمو الثقة الكبيرة، لدرجة أن يهوديًا قد يأتمن وصيًا من الأمميين على بضائعه أو عائلته لكي يرعاها بعد وفاته... وربما كان اليهودي أيضًا يعيّن وصيًا من قبل أحد الأمميين...». (1983:44).

وقد سمحت كتابات الحاخامات بظهور الأشكال الوثنية المقدسة الممكنة على الأشياء اليومية مثل الغلايات، والأباريق، والأحواض وغيرها، ولكنهم لم يسمحوا بظهور هذه الصور على الأشياء الثمينة مثل المجوهرات (Goodman 1983:69) ومرة أخرى، غالبًا ما كانت الأعراف والتقاليد الإغريقية تقدم مادة موضوع الزخرفة - رأس الأسد، أكاليل الزهور، النسور، والملائكة للحليات في المعابد...». (Goodman 1983:71).

هل الجليل هي «المنفى»، «الشتات»، «أرض إسرائيل»، أم ولاية يهودية في الإمبراطورية الرومانية؟

والجليل هي مركز إنتاج التلمود الفلسطيني، الذي كان مقدرًا له مع التلمود البابلي(31) أن يصير المرشد الروحي لليهودية حتى عصر التنوير، بعد ألف وثلاثمئة سنة.

بيد أن هنا يكمن التناقض النهائي، إذ إن الجليل أيضًا هي المكان الذي شهد أكثر كشف أثري مذهل من التاريخ اليهودي القديم المتأخر، على أرضية من الفسيفساء لمعبد يهودي قديم: جوهرة قديمة حقيقية تحتفي في وقت واحد بالرب الذي لا صورة له، وبإله الشمس، وهي شهادة على التعايش بين اليهود وغير اليهود.

القرن الرابع الميلادي

معبد قرب طبرية بأرضية عليها إله الشمس

ربما لا يوجد منتج آخر من تلك الفترة يكشف تمامًا عن التعبير الواثق عن التقاليد والهوية اليهودية في داخل سياق تعددي، أو بربط ذلك بعناصر كثيرة للغاية من الزخرفة الفنية اليونانية - الرومانية. والفسيفساء (الموزايكو) الذي يشغل الممشى المركزي في المعبد مقسمًا إلى لوحات ثلاث. الأولى تصوير موضع التوراة محاطًا بشمعدانين تحترق فيهما الشموع. ثم يلفت النظر تصوير دائرة للعلامات الاثنتي عشرة في دائرة البروج، متمركزة على صورة عربة الشمس مع تجسيد Helios إله الشمس في صورة شخص: وكل علامة تحمل اسمًا بالعبرية. وقد تم تجميعها في أربعة فصول استخدم مصطلح عبري للدلالة عليها، وهي مصورة على شكل نساء شابات، تتميز كل منهن أيضًا باسم عبري يقابل أسماء الشهور الأربعة: نيسان، وتموز، وتشري، وتفيث.

وتحتوي اللوحة الثالثة، فيما بين صورة لأسدين، سلسلة من نقوش مختصرة باليونانية تحمل أسماء المحسنين... ثم اسم محسن آخر... يمكن إعادة تكوينه من نقش يوناني آخر موازٍ، مصحوب هذه المرة بمباركة مكتوبة بالآرامية: «ليحل السلام.. على أي شخص نفذ وصية في هذا المكان المقدس». (Millar 1993: 364).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثالث:
ثمانية عشر قرنًا من المعاناة اليهودية

في الرؤية الصهيونية للتاريخ، كانت الجماعات اليهودية التي امتدت بعيدًا فيما وراء الشرق الأوسط، في آسيا وأوروبا وفي أمريكا أخيرًا، طوال القرون التي تلت سقوط المعبد الثاني بالقدس 70م، جماعات لا حول لها ولا قوة، ملاحقة وتخضع لاضطهاد متواصل. وكانت حجة منظري الصهاينة من أمثال تيودور هرتزل، أن لا شيء سوى نقل اليهود إلى «وطننا التاريخي الذي نذكره دومًا» في فلسطين يمكن أن يُنهي «ثمانية عشر قرنًا من المعاناة» (Vital 1975:266) بيد أن الحقيقة أشد تعقيدًا من هذا بكثير. فالواقع أن هذه الأسطورة الصهيونية إهانة بالغة لحركية اليهود، وحراكهم وإبداعهم الكبير في مواجهة مهمة شق طريقهم في خضم تقلبات الأحوال التي ألمت بهم، وفي داخل الأشكال والأحجام المتغيرة للإمبراطوريات المسيحية والإسلامية البازغة، والتي سادت طوال هذه الفترة التاريخية الطويلة، وقد استبعد سالو بارون، وهو واحد من أهم المؤرخين اليهود وأغزرهم إنتاجًا في مطلع القرن العشرين (ويصل كتابه الذي يحمل عنوان تاريخ اليهود الاجتماعي والديني إلى 18 مجلدًا) التناول الصهيوني باعتباره «بكائية حزينة».

هناك حقيقتان غير عاديتين تستحقان التأمل في البداية. لماذا اختفى الفلاحون اليهود فعلًا بحلول سنة 1000م، بحيث انخفضت أعداد «الشعب اليهودي» كثيرًا، وبحيث جعلته من أهل الحضر؟ (Johnson 1993:171) لماذا كان أكثر من نصف يهود العالم في بداية القرن التاسع عشر يعيشون في پولندا - ليتوافيا؟ (Hundret 1992:11).

هذان السؤالان يستدعيان سؤالًا آخر. فعلى مدى نحو 2000 سنة، لم يتمكن اليهود فقط من البقاء؛ ولكنهم نجحوا في تحقيق فترات متواصلة من الرفاهية، ولكن مع مرور القرون، وبصورة متزايدة، أصبح إقبال اليهود على زراعة الأرض أقل. كان هذا الأمر واضحًا بشكل كبير في أوروبا المسيحية التي منعت اليهود من امتلاك الأرض أثناء الفترة التي أطلق عليها المؤرخون «الإقطاعية» والتي اعتمد فيها الازدهار، وقبل كل شيء، على الإنتاج الزراعي. وهنا نصل إلى واحدة من أكثر الحقائق الصعبة وغير المفهومة، وذلك لأن هذه الحقبة من الزمن هي التي شهدت تطوير اليهود لشركة عالمية للتجارة لتقوم بمساعدتهم في خدمة الإمبراطوريتين الدينيتين... وهذا، سيعمل بدوره على استقرار وتطور المجتمعات اليهودية المبعثرة، وستجعل دينهم المميز لهم لا يمكن فصله عن دورهم الاقتصادي.

ويرى كارل ماركس أن بقاء اليهود منذ العصور الرومانية وحتى القرن التاسع عشر؛ اعتمد في الحقيقة على دورهم الاقتصادي. وقد أغضب رأي ماركس هذا بعض الباحثين الحديثين الذين قاموا باستبعاد رؤيته لأنه كان (مرتدًّا)(32): ومع هذا كان إدوارد جانز، أحد أساتذة ماركس عندما كان طالبًا في جامعة برلين في الثلاثينيات من القرن التاسع عشر، هو الذي جادل بأن وحدة اليهود على مر العصور اعتمدت بشكل مؤكد على تحول اليهود إلى طبقة من التجار، أو على الأقل، كانوا تحت قيادة هذه الطبقة. (Mendes-Floth and Reinharz 1995:216).

ولا يمكن أن نتجاهل جانز بهذه السهولة، فقد كان مؤسس واحدة من أكثر جماعات الضغط الثقافية اليهودية المتنورة، التي تحظى باحترام كبير في ألمانيا في القرن التاسع عشر. هذه

الجماعة هي: ڤيرين، رابطة ثقافة وعلم اليهود.

أخيرًا بدأت الدراسات اليهودية الحديثة تتوافق مع هذه الحجة. إذ إن الباحثين في التاريخ الاقتصادي اليهودي، مثل بارون وكاهان وغيرهما، قد أسهموا في التبصر المدهش بأنه لم تكن هناك طبقة تجارية يهودية فحسب أواخر العصر القديم، وإنما يحتمل أنها كانت بحد ذاتها حافزًا على اعتناق اليهودية، في الوقت نفسه الذي كان فيه الفلاحون اليهود يذوبون في الريف الوثني الذي لم يلبث أن تحول إلى المسيحية ثم إلى الإسلام، في وقت لاحق. ويبدو أن أعدادًا كبيرة من الفينيقيين والقرطاجيين قد اعتنقوا الدين اليهودي «وجلبوا مهاراتهم التجارية» إلى داخل الجماعات اليهودية (Baron et al. 1975:21) والحقيقة، أن أبرام ليون، الذي كان قائدًا لمجموعة اشتراكية يهودية صغيرة في بلجيكا تحت احتلال النازي، والذي مات في أوشفيتز، كتب أول دراسة رائدة في هذا المجال، حتى على الرغم من أنها لم تلقَ الاعتراف من الباحثين في العصر الحديث(33).

ولا يمكن فهم العداوة تجاه اليهود في عالم العصور الوسطى، ونجاحهم كذلك عبر العصور، دون أن نأخذ في الحسبان دورهم الاقتصادي. ويكاد يكون التحرش الديني مختلطًا بهذا على الدوام. وبطبيعة الحال، كانت اليهودية عند كل من المسيحية والإسلام في درجة أدنى. بيد أن كلتا الديانتين كانتا على استعداد دائم للبحث في كتبهما المقدسة لإيجاد الأسباب التي تدعوهما إلى التسامح مع اليهود وحمايتهم. وعادة ما كانت فائدة اليهود لمجتمعاتهم تتجاوز تجديف اليهود ضد يسوع أو محمد، إذ إن دورهم الاقتصادي الدولي، الذي زرع وحصد على مدى أجيال كثيرة، قد أرسى طاقة لا تبارى في العائلات اليهودية. فلم يحول بعض اليهود إلى قوم يتحدثون عدة لغات فحسب، مع كل المهارات الإضافية التي ينطوي عليها هذا، ومنها المعرفة التفصيلية بالأجزاء البعيدة والنائية في العالم، وإنما وضعهم غالبًا في طليعة التقدم العلمي. وفي البلاد الإسلامية في العصور الوسطى كان اليهود معروفين غالبًا كتجار وأطباء، كذلك لعب بعض اليهود دورًا دبلوماسيًّا كبيرًا:

«خدم التجار اليهود باعتبارهم وسطاء مهمين في عالم انقسم بين الإسلام والمسيحية... وبحلول القرن التاسع كانت العبرية قد صارت لغة عالمية مهمة»(34) (Baron et al. 1975:28-9).

وفي الحقيقة، كان الحكام يحتاجون بشدة إلى الجماعات اليهودية في بلادهم. وقد حظوا بما هو أكثر من التسامح؛ فقد كانت لهم مكانة معترَف بها في مجتمع العصور الوسطى، ويعني هذا أنهم تمتعوا بفترات طويلة من الاستمرار ودرجة من الاستقلال القانوني. وبطبيعة الحال، عندما كانت تسوء الأمور -الأمراض، الأوبئة، نقص المحاصيل، التعرض لفساد البلاط المستشرى، أو حاجة أحد الحكام لفرض مزيد من الضرائب على الفلاحين لمغامرة خارجية، يمكن أن تؤدي بدورها إلى الاضطراب الشعبي- كان يمكن أن يصير اليهود كبش فداء. بيد أن هذه لم تكن حالة دائمة، حتى لو كانت هذه إمكانية موجودة على الدوام.

وأخيرًا بدأت الشبكة التجارية اليهودية القديمة في العصور الوسطى تنهار عندما برزت أوروبا الغربية ببطء باعتبارها مركز القوة الاقتصادية التي سوف ترسي أسس بناء الإمبراطورية العالمية والرأسمالية الصناعية. إذ إن الدول القومية الجديدة في غرب أوروبا خلقت أسواقًا عظيمة جديدة أنتجت تجارها العاملين في خدمتها. وفي البداية، كانت تلك فترة من معاداة السامية

الكثيفة بينما تم إخراج اليهود من الأمم البازغة ومن أسواقها. وهنا بدأت رحلة اليهود الطويلة إلى أوروبا الشرقية، ولا سيما بولندا - ليتوانيا، حيث استطاع اليهود الاستمرار في دورهم الاقتصادي المهم. ولكن كان هناك آنذاك أيضًا إحياء يهودي ملحوظ غمس الأقلية اليهودية في أوروبا الغربية مباشرة في مقدمة الحداثة، هذه الفترة أُسيء فهمها إلا أنها جوهرية لفهم كل من رفض اليهود وتوافقهم النهائي مع العالم الحديث. واللحظة الحرجة هي بداية القرن السابع عشر. إذ إنها اللحظة التي بدأت فيها الخرافة والدين اللذان ميزا العصور الوسطى يخليان مكانهما للعلم. وهي اللحظة التي بدأت فيها المسيحية في أوروبا الغربية -والتي كانت قد انكسرت بالفعل بسبب حركة الإصلاح الديني- تراجعها طويل المدى. إنها فجر التنوير. إنها أيضًا اللحظة التي شهدت النهضة الراقية عندما قام اثنان من أعظم فنانيها، الشاعر والكاتب المسرحي شكسبير في لندن والرسام رامبرانت في أمستردام، بإسهامهما الخاص فيما يُسمى أحيانًا «المسألة اليهودية». ولكي أساعد على فهمنا لتلك اللحظة، فإنني سوف أنهي هذا الفصل باستدعاء شاهدين حيويين، شيلوك الشخصية التي ابتدعها شكسبير للتاجر اليهودي، وشخصية اليهودي الحقيقي الذي صوره رامبرانت، الذي كان على نفس الدرجة من الأهمية، وهو منسا بن إسرائيل.

لقد أوضح شكسبير ورامبرانت التناقضات التي واجهتها اليهودية في عالم يتغير بسرعة، على حين بدأت الرأسمالية البازغة حديثًا تهز النظام القديم من أساسه. وترى الصهيونية عالمًا جامدًا، لا يتغير ومعاد لا يجد اليهود فيه لأنفسهم السلام سوى بالتقهقر إلى مكانهم الخاص، المغلق، الذي لا يقدم هو أيضًا السلام بطبيعة الحال. ومع هذا فإن الحداثة والتفكير الحديث قد أظهرا أن التاريخ ديناميكي، حيث إن موافقتنا الاجتماعية والسياسية. سواء كانت معادية أو غير ذلك، والظروف التي تخلقها، تخضع دائمًا للتحدي والتغيير، وكما قال ماركس وإنجلز في «المانفستو الشيوعي» سنة 1848م، مع قدر قليل من الاستعارة من شكسبير:

«كل ما هو صلب يذوب في الهواء، وكل ما هو مقدس مدنِّس، والإنسان مضطر في النهاية أن يواجه بحواس متزنة، ظروف حياته الحقيقية، وعلاقاته مع البشر».

في العصور الوسطى كان اليهودي الاقتصادي يدعم أحيانًا اليهودي الديني وكان يحط من شأنه أحيانًا أخرى. وقد وعدت الحداثة بالقضاء على التمييز الأول وأتاحت للضمير الفردي المرونة لكي يحدد معنى الثاني، إذا ما كان له أي معنى. على هذا الأساس، كان لا بد لليهود وغير اليهود أن يكتشفوا «إنسانية مشتركة». وحتى إذا ما كان الوعد قد تحقق جزئيًا فقط، فإن علينا أن نواصل النضال من أجل تحقيقه.

الدور الاقتصادي اليهودي في العصور الوسطى

لكن دعنا أولًا ننظر بمزيد من التمعن إلى الدور الاقتصادي اليهودي الباكر. إحدى خصائصه، التي تجاهلتها بصفاقة الكتابات التاريخية الصهيونية والأوروبية الغربية على السواء، تمثلت في أن ديناميته كانت مدفوعة غالبًا بالنجاح الباهر الذي حققته الإمبراطوريات العربية الإسلامية من القرن الثامن حتى القرن الثالث عشر. تلك التي حملت الحضارة والعلم والفن والتطور التكنولوجي، غرب حضارة الهند وحضارة الصين -مع التفاعل معهما- من انهيار الإمبراطورية الرومانية إلى النهضة في أوروبا الغربية. والواقع أنه من وجهة نظر يهود العالم الإسلامي، الذين كانوا يسافرون في رحلات إلى قلب الأراضي الأوروبية. كانت معظم أوروبا تبدو مشهدًا مؤسفًا للتخلف الصادم.

فقد أرسل خليفة قرطبة (العربي المسلم) إبراهيم بن يعقوب لتفقد الاحتمالات التجارية والدبلوماسية في وسط أوروبا في منتصف القرن العاشر فقال:

«ليست لديهم حمامات، ولكنهم... يبنون موقدًا حجريًّا يصبون عليه الماء حين يسخن. ويمسكون حزمة من الحشائش بأيديهم ويدفعون البخار حول أجسادهم. ثم تتفتح مسامهم، وتتخلص أجسادهم من كل الزيادات».

وكما يلاحظ نورمان ديڤيز في كتابه History of Europe، فإن هذا الدبلوماسي اليهودي من إسبانيا المسلمة ينظر إلى الداخل الأوروبي بكل الفضول الذي يقوم به أنثروبولوجي ببحث عن قبائل پاپوا (1996:325).

وبعد قرنين من الزمان، يكتب يهودي آخر هو بنيامين الطليطلي رحلته ليصف ملاحظاته عبر أوروبا والشرق الأوسط. وقد اشتهرت بأنها أحسن كتاب رحلات من العصور الوسطى، وسرعان ما تمت ترجمتها إلى كل اللغات الأوروبية تقريبًا لكي تصبح المصدر الأول للباحثين في القرن السادس عشر.

كانت القسطنطينية، أكبر مدينة في العالم آنذاك، هي التي خلبت عقله بشكل خاص. كان يعيش بها نحو 2500 يهودي. ووجد حرفيين يعملون في صناعة الحرير وتجارًا من كل نوع. وكان كثير منهم أغنياء، ولكن لم يكن مسموحًا لأحد منهم بأن يمتطي الخيل فيما عدا الراباي (الربي) سليمان المصري، الذي كان طبيب الإمبراطور. وكانت المحاكم اليهودية مستقلة. والأعمال العدائية ضد اليهود ممنوعة. والمعابد تستظل بحماية قانونية، ولكن لم يكن مسموحًا ببناء معابد جديدة. وكان الاحتفال اليهودي بعيد الفصح يخضع لتغيير موعده حتى يأتي دائمًا بعد عيد الفصح المسيحي. كانت هناك عداوة شعبية ضد بعض اليهود، ولكن ربما كان بنيامين مندهشًا من سببها: «إنهم دباغو جلود ويصبون مياههم القذرة خارج بيوتهم». ومثلما وجد الدباغين في القسطنطينية وجد حرفيين يهودًا مهرة في كل مكان: صانعي زجاج في حلب، نساجي حرير في طيبة، صباغين في برنديزي. (Johnson 1993:169-70).

وشهادة بن خردابه، الذي كان المسؤول عن البريد في الخلافة العباسية في منتصف القرن التاسع، تعتبر على نطاق واسع أفضل دليل لدينا عن مجموعة التجار اليهود العالميين المعروفين باسم «الرادانية». فقد كانوا يتاجرون فوق مساحات شاسعة من «أراضي الفرنج» (تقريبًا فرنسا اليوم)(35) حتى بحر قزوين (على الشاطئ الشمالي لإيران اليوم). وكانوا يتحدثون العربية، والفارسية، واليونانية، والإفرنجية، والإسبانية واللغات السلافية. وكانت هناك مستعمرات يهودية مبعثرة في المنطقة التجارية لتنظيم تبادل منتجات الغابات والخيول والجلود والسيوف والعبيد من كلا الجنسين من الغرب بمواد الرفاهية القادمة من الشرق، وكميات كبيرة كذلك من النقود العربية الفضية أساسًا. وقد اشتهر اليهود بتجارة الفضة وتشغيلها عبر قارة أوروبا. وقد خولت الملكة چيزيلا المجرية اثنين من عمال السكة اليهود لسك عملات فضية لها. وبعد ذلك بمئة سنة كان اليهود يديرون دار سك النقود في بولندا الوليدة وينتجون صحونًا فضية رقيقة تحمل اسم الحاكم البولندي بحروف عبرية إلى جانب اسم الصناع. (Abramsky et al. 1986:15-8).

وقد أثر الازدهار اليهودي والنفوذ السياسي لهم آنذاك على إمبراطورية الخزر، التي كانت قد تطورت على امتداد ساحل بحر قزوين. وإذ وجدت النخبة الخزرية الوثنية نفسها محصورة بين

الخلافة الإسلامية والإمبراطورية البيزنطية، اعتنقت الدين اليهودي أواخر القرن التاسع كوسيلة للحفاظ على استقلالها السياسي، ولكي تندمج في الشبكة التجارية اليهودية. Abramsky et al. 13)(1986:16)).

الاستقلال الذاتي اليهودي والحقوق في مجتمع العصور الوسطى

تحدى الباحث الأمريكي في اللاهوت اليهودي ديفيد بيال بشكل واعٍ الرأى القائل بأن الجماعات اليهودية كانت بلا حول ولا قوة في مجتمع العصور الوسطى. وحجته أن المبدأ المعلن في أواخر العصور القديمة على يد الحاخام البابلي صمويل الذي عاش في القرن الثالث وكان مقربًا من البلاط الملكي الفارسي، والذي يقضي بأنه في مقابل الاعتراف بالسلطة السياسية للوثنيين ينبغي أن يحصل اليهود على استقلال ذاتي داخل الجماعة على المستوى القانوني والسياسي، بحيث أرسى سابقة راسخة بعيدة الأثر(1986:54-6). وهو ما يعني أن اليهود، بدلًا من أن يصيروا «شعبًا منبوذًا على الهامش الخارجي للمجتمع في كل من العالم المسيحي والعالم المسلم، سكنوا منطقة قريبة من مراكز السلطة...». (Biale 1986:59).

ويجادل بيال بأن المكانة القانونية لليهود في إسبانيا وفرنسا وألمانيا وبولندا، كانت أفضل كثيرًا من الأقنان، وفي كثير من الأحيان كانت مقاربة لمكانة النبلاء والطبقة البرجوازية. ومفهوم Servi Camerae الذي يعرف اليهود بأنهم أقنان الغرفة الملكية (Biale 1986:66) يحيط به الغموض فقد كان اليهود يدفعون الضرائب إلى الملك فقط، في مقابل أن يضفي عليهم بعض الامتيازات المعينة. ومن ناحية أخرى كانوا يعتمدون عليه وعلى نزواته.

وقد اعتبر القانون الألماني الصادر في القرن الثالث عشر Sachsempiegel، اليهود أناسًا أحرارًا. وهذا أسبغ عليهم حقوقًا محددة في مجتمع إقطاعي: حرية العبادة وحرية الحركة بشكل محدد. وكان هذا اعترافًا قانونيًا بالإسهام الذي قدمه اليهود في مجال التجارة التي كانت حرية الحركة ضرورية لها. وقد ميز هذا بصراحة ووضوح بين اليهود وأولئك الذين كانوا مربوطين بالأرض، وجعل مكانة اليهود أقرب إلى مكانة الفرسان، الذين كان لهم الحق في أن يعيشوا حيثما يرغبون.

ومع هذا كانت الحماية السياسية لليهود في العصور الوسطى تفتقر إلى الاتساق، لا سيما في أوقات الاضطراب الشعبي عندما تكون السلطات نفسها تحت وطأة الهجوم أو عندما تفقد سيطرتها على الشؤون السياسية. وقد فشلت فشلًا ذريعًا في حمايتهم من المذابح التي جرت أثناء الحملة الصليبية الأولى سنة 1096م، وعلى الرغم من أن التحذير الذي أطلقه سان برنارد من كلاريفو لأتباعه، باعتباره الزعيم الروحي للحملة الصليبية الثانية في أربعينيات القرن الثاني عشر، بعدم تكرار ذلك، وقد تمت الاستجابة له (Chazan unpublished:ch. 6. p.11). على أي حال، فإنه بينما كان التهديد بالعنف ضد اليهود احتمالًا واردًا على الدوام، فإن اليهود لم يكونوا ببساطة ضحايا لا حول لهم ولا قوة.

«الصورة السائدة عن اليهودي في العصور الوسطى هي صورة شهيد يموت بلا مقاومة، وهذه رؤية خاطئة... إذ إن اليهود لم يكونوا مجرد أشياء سلبية... فقد حملوا السلاح دفاعًا عن أنفسهم في أزمنة كثيرة وفي أماكن عديدة...». (Baile 1986:72).

وفي غرب ووسط أوروبا، كان قانون السلاح waffenrecht يسمح لليهود بحمل السلاح، بل إنه كان مسموحًا لهم أن يخوضوا المبارزات. هذه الحرية غير العادية والمعروفة على نطاق

ضيق، كانت تطرح معضلة محيرة أمام السلطات الدينية اليهودية. هل كان ينبغي لليهود أن يحملوا السلاح يوم السبت؟ يورد بيال عدة أمثلة بطولية عن المقاومة اليهودية المسلحة أثناء الحملات الصليبية. وبالإضافة إلى ذلك، يلاحظ أن اليهود لم يخدموا فقط في جيوش العصور الوسطى لملوك فرنسا الكارولنجيين، وإنما صاروا في بعض الحالات خبراء في صناعة المعدات العسكرية. إذ إن بعض اليهود المطرودين من إسبانيا والبرتغال في القرن السادس عشر جلبوا معهم إلى تركيا مهارات ساعدت الأتراك على صناعة المدفعية والبارود وكرات المدافع، وغير ذلك من الأسلحة. (Biale 1986:73-6).

بينما سيكون من الحماقة لي أن أخسر ميزان التاريخ أكثر مما ينبغي، لكي أزعم أن اليهود لم يكونوا عرضة للهجوم في تلك الفترة، قدّم بيال الدليل الذي يتطلب منظورًا أكثر تدقيقًا.

لقد كانت الحروب الصليبية نقطة فارقة، وقد أسماها ليون «تعبيرًا عن إرادة التاجر المسيحي لشق طريق إلى الشرق» (Leon 1970:137). ومن المؤكد أن الصراع بين أوروبا المسيحية والعالم المسلم والذي وصل ذروته بالهزيمة النهائية للمسلمين في إسبانيا القرن الخامس عشر، قد ازدادت كثافته في ذلك الوقت. وهي أيضًا علامة على بداية طرد اليهود من الدول القومية الجنينية في أوروبا الغربية.

طرد اليهود من غرب أوروبا

في إنجلترا شكلت موجات من حوادث معاداة السامية خلفية عملية الطرد في سنة 1290: مزاعم خطف اليهود للأطفال المسيحيين لقتلهم في طقوس دينية؛ مذابح اليهود في يورك. والتنويعات على موضوع أن اليهود قتلة المسيح، غذت الهيستيريا التي استحوذت على الجماهير، وكون أن الخبز الذي يُعد للاحتفال اليهودي بعيد الفصح يحتاج إلى بديل عوضًا عن دم المسيح كان يشكل واحدة من أشد خرافات العصور الوسطى خسة. ومع هذا فإن «الافتراءات ينبغي النظر لها على خلفية من عمليات إقراض اليهود الأموال بالربا». (Johnson 1993: 210-11).

كان اليهود جماعة من المرابين والصيارفة. وفي أعلى المستويات كان اليهود صيارفة رسميين للملك. وكانت خزانة اليهود هناك تشكل قسمًا من الخزانة الكبرى للمملكة. (Roth 1949: 30).

كان الصيارفة الملكيون اليهود، أحد الأسباب العديدة لاستياء البارونات ملاك الأراضي الإقطاعيين من الملك. وقد وصل الصراع بين البارونات والملك في بداية القرن الثالث عشر إلى أوجه في وثيقة الميثاق الأعظم «الماجنا كارتا» سنة 1215م، التي تعتبر إحدى الوثائق العظمى المؤسسة للديمقراطية الإنجليزية.

ووثيقة «الماجنا كارتا» التي اشتهرت بما قررته من أنه لا يجوز سجن أي رجل حر أو نفيه «سوى بحكم قانوني بعد محاكمة من أقرانه» كانت في جوهرها محاولة لفرض نظام وطني مؤسسي وجنيني على العلاقات بين الملك والبارونات (Holt 1992:188 -9).

وقد تضمنت «الماجنا كارتا» عبارتين يهوديتين، تناولتا الإعفاء من الديون. وببساطة شديدة، خفضت العبارتان كمية النقود التي كان يجب على أسرة المدين دفعها، بإلغاء فوائد الدين. وكانت تلك ضربة موجهة إلى كل من اليهود والملك؛ لأنه إذا مات الدائن اليهودي كان الدين يؤول إلى الملك. وفي الوقت نفسه، طبعًا نصت الفقرتان على التخفيف عن المدينين المعدمين.

وكما يلاحظ روث:

«هاتان الجملتان بما يبطنهما من إحساس جارف بالظلم، تعطيان فكرة عن العداء الذي كان ينظر به إلى الأتباع اليهود الملكيين في ذلك الحين». (1949-36-7).

وقد لاحظ سالو بارون مغزى لإطار الوطني الجديد الذي ظهرت بداخله الشكوى الدينية - الاقتصادية ضد اليهود:

«لقد أثر الانشغال بالمشكلة اليهودية بعمق على التفكير الوطني الإنجليزي... ويعتبر إدوارد الأول بحق الملك الذي شهد حكمه ذوبان السلالات الفرنكو -نورمانية، والأنجلو- سكسونية نهائيًا في أمة إنجليزية جديدة مما خلق قومية متماسكة تمامًا». (1996:245n.40).

وفي الوقت نفسه، فإن «أول صيارفة مسيحيين حقيقيين»، مثل فرسان الهيكل، كانوا يحلون محل اليهود في أدوارهم المالية الكبرى. (Johnson 1993:213).

وقد تم جمع البحث المتميز والتحليل الممتاز للاقتصاد اليهودي الأوروبي في تلك الفترة على يد جوناثان إسرائيل. وهو يشير إلى عوامل اقتصادية كامنة سبقت موجات طرد اليهود في جميع أرجاء أوروبا الغربية:

«اليهود... تم عصرهم اقتصاديًا إلى أبعد حد بالتطور العام للتجارة والصناعة والصيرفة المسيحية. فقد أراد التجار والحرفيون المسيحيون ألا يكون لهم منافسون من اليهود، عندما صاروا أقوياء بالدرجة الكافية، وكان هدف نقاباتهم أن تستأصل اليهود من الحرف والتجارة». (Israel 1985:27).

ومحاكم التفتيش الإسبانية، عند نهاية القرن الخامس عشر الميلادي، تشكل أكبر رمز دموي وعنيف في عمليات طرد اليهود. ومرة أخرى نشهد خلط الهويات القومية الجديدة، بالضراوة الدينية، والاقتصاديات الإسبانية الجديدة التي سوف تغزو أجزاءً من أمريكا بتجارها في محاولة للسيطرة على طرق التجارة الأطلنطية الجديدة المزدهرة، وتحدد هويتها برفض تراثها الإسلامي واليهودي على السواء.

وثمة نموذج عام من الإرهاب ساق معظم اليهود باتجاه الشرق. وفي البداية كانت القوة الدافعة من المدن الجديدة تحت قيادة صغار القساوسة. ففي إيطاليا حلت مؤسسات مدنية مسيحية جديدة monti di peita محل البنوك اليهودية العاملة في القروض (Israel 1985: 7,9) ثم عندما انفجرت حركة الإصلاح الديني، قام مارتن لوثر زعيمها الرئيس -والذي كان متعاطفًا مع اليهود في البداية- بالانقلاب عليهم في غضب أعمى، عندما أيقن أنهم لا يأبهون بمجادلاته.

ومنذ ذلك الحين فصاعدًا أدت الحركية المنطلقة لحركة الإصلاح الديني إلى إذكاء نار العداء الديني والاقتصادي ضد اليهود في شتى أرجاء القارة.

وصار الدور الاقتصادي اليهودي التقليدي عامل استفزاز بشكل مطرد. فبين سنتي -1615، قام التجار اليهود في فرانكفورت بتوجيه ضربة لنقابات صناعة النسيج اللوثرية باستيراد أقمشة أرخص من هولندا وإنجلترا. وألهبت الخطب اللوثرية الغضب الشعبي، الذي اتخذ من اليهود كبش فداء لتدهور الأحوال الاقتصادية في المدينة، وأدى إلى أسوأ حوادث شغب في تاريخ المدينة. (Israel 1985:68).

وفي كل مكان تعرضت الأنشطة الاقتصادية اليهودية للبتر، ولم يترك لهم سوى عمليات محدودة لإقراض الأموال بالربا للفقراء. (Israel 1985:23).

وقد برهنت حركة الإصلاح الديني المضادة على ضراوتها بدرجة مماثلة في العداء لليهود. إذ إن حركة الإصلاح الديني كانت قد أثارت جدلًا أساسيًّا حول معنى كل من العهد القديم والعهد الجديد في الكتاب المقدس. وفي البداية -خاصة في إيطاليا- أسبغت روح عصر النهضة على الجدل سمة الصراحة والوضوح، وسمحت بمشاركة الباحثين اليهود. وحتى البابوات والكرادلة بدؤوا يهتمون بالأدب العبري. ولكن كان أمرًا مسلمًا به أن اليهود سوف يخسرون الجدل، وأنهم سوف يتحولون إلى المسيحية عقب ذلك. وتفجر الذعر عندما بدأ أحد الرهبان الفرنسيسكان يتفق مع اليهود، وينكر المسيح ويتبنى الحجج اليهودية (Israel 1985: 18). وتم حرقه مقيدًا على خازوق في روما. وانتشرت كلمة استشهاده في كل الجماعات اليهودية في أوروبا. وبعد ذلك مباشرة، أي في سنة 1553م، حرَّم البابا التلمود، الذي هو أساس التراث اليهودي بعد الكتاب المقدس وأساس الشريعة اليهودية. وصدر الأمر بإحراق الكتب اليهودية عامة، وفُرض على اليهود التقوقع في الجيتوهات، وتلا ذلك طردهم. وقد تم حصار «المارانو»، وهم اليهود البرتغاليون الذين أجبروا على اعتناق المسيحية ثم عادوا فيما بعد إلى اليهودية، وعذبوا وحرقوا أحياء. (Israel 1985: 18-19).

وبنفس الطريقة، بدا أن الأمم البازغة كانت تحدد هوياتها بالتخلص من اليهود، وأن المخاوف اللاهوتية التي كشفتها حركة الإصلاح الديني كانت عميقة الجذور، جعلت كلًّا من الجانبين -في الانقسام الذي حل بالمسيحية (البروتستانت والكاثوليك)- يقف متحصنًا بمشاعر العداء لليهود. ومهما كانت درجة التدمير التي حاقت بالجماعات اليهودية في أوروبا الغربية من جراء ذلك -وكان الخروج الضخم باتجاه الشرق هو الرد الوحيد المتاح- فإن هذه المرحلة لم تستمر سوى فترة قصيرة للغاية، إذ كان هناك إحياء ديني واقتصادي يهودي يأخذ مجراه، على حين لم تجد أزمة حركة الإصلاح الديني خاتمة مرضية عندما أخذ معنى الحداثة في أوروبا يتخذ شكلًا أكثر وضوحًا ولكن قبل اكتشاف هذا، فإننا بحاجة إلى الملاذ اليهودي الجديد في بولندا.

يهود بولندا

في سنة 1500م، كان هناك نحو ثلاثين ألف يهودي يعيشون في بولندا، وفي سنة 1575 كان الرقم قد زاد أربع أو خمس مرات ليصل إلى ما يتراوح بين مئة ألف ومئة وخمسين ألفًا، وهو عدد ربما زاد قليلًا على عدد اليهود الإسبان عشية طردهم. وقد انجذب اليهود إلى شرق البلاد، التي كانت أقل كثيرًا في تطورها، وحيث يتمتع أعيان ملاك الأراضي بسيطرة مطلقة. وكان المطلوب بصفة خاصة القدرة على إدارة الضياع الزراعية وتحصيل الرسوم وإدارة تجارة المسافات البعيدة. فقد كانت المنطقة في بداية الاستفادة من شهية أوروبا الغربية المفتوحة على غلال بولندا الرخيصة. والتي تخدمها شبكة الأنهار في شرق بولندا على نحو جيد.. وبدأ معظم المهاجرين اليهود الجدد يستوطنون في العديد من المدن الصغيرة والقرى المملوكة لملاك الأراضي الكبار هؤلاء، مما خلق آلافًا من الجماعات اليهودية الصغيرة (Israel 1985:27-9) وتسببوا في ظهور ما صار معروفًا باسم نظام الأرندا Arenda system.

هذا النظام في أساسه يصف الترتيبات التي بمقتضاها كان النبلاء البولنديون يعهدون بضياعهم الزراعية إلى اليهود لإدارتها. وكان معنى هذا التطور غير العادي أن اليهود كانوا يديرون الضياع

الزراعية بالمعنى الحرفي للكلمة، والطواحين، ومعامل التقطير:

«هكذا كان اليهود هم الوكلاء الأساسيون... في حركة مرور شاسعة شملت أوروبا بأسرها... لأنهم بينما كانوا يبيعون منتجات الأرض لكي تشحن إلى هولندا وما وراءها، كانوا هم الذين يقومون بتوزيع المنسوجات الغربية، والملح، والنبيذ، ومواد الرفاهية مثل التوابل والمجوهرات... وكان هناك أيضًا اشتغال اليهود على نطاق واسع بحرف مثل صناعة الصابون، ودباغة الجلود، وصناعة الزجاج والفراء». (Israel 1985:30).

أدى هذا الدور الاقتصادي المتمايز إلى تطور يهودي سياسي فريد، ردد صدى مرحلة باكرة من الحياة السياسية لليهود في أوروبا. فقد تم السماح بعقد مجلس سنوي، عرف باسم «مجلس الأراضي الأربع»، يكون له حق الإشراف على الشبكة الكاملة للجماعات اليهودية في جميع أنحاء بولندا، كان يدير أمور التعليم، ويعالج الأمور الدينية، ويجمع الضرائب، ويتناول مسائل التخفيف عن الفقراء، ويدير العلاقات مع مجالس المدن البولندية والكنيسة الكاثوليكية. وفي البداية كان هناك إحساس طاغ بالتحرر اليهودي. فلم يكن هناك في أي مكان آخر بأوروبا أي شيء يقارن بما وصل إلى أن يكون استقلالًا ذاتيًا داخليًا لليهود وحكمًا ذاتيًا. والواقع أن هيبة مجلس الأراضي الأربع وصلت إلى درجة أنه كان يتدخل أحيانًا في شؤون الجماعات اليهودية خارج بولندا. (Israel 1985: 185-8).

وعلى أي حال، كان هناك جانب مشؤوم في هذا االتطور. فهناك نموذج مثير في العلاقات اليهودية مع حكام الأراضي التي استقروا عليها، وهو نموذج كان لا بد من كسره لتحقيق التحرر النهائي لليهود. وهو يرجع بأصوله إلى زمن الإسكندر الأكبر، ويستمر حتى اليوم مع الاستيطان الصهيوني في فلسطين. فقد باع اليهود مهاراتهم وخدماتهم للحاكم في مقابل درجة من الاستقلال الذاتي تقليديًا، حماية ديانتهم. وعلى أي حال، فإن الخدمات المقدمة كانت تنطوي أحيانًا على وسائل قهرية لاستغلال الفقراء.

وهناك مشابهات مثيرة بين نظام الكليروخوس في مصر البطلمية (انظر الفصل الثاني) ونظام الأرندا في بولندا العصور الوسطى. والواقع أن هناك أيضًا تشابهًا مع النظام الصهيوني الذي يحمي المصالح الاقتصادية والسياسية للولايات المتحدة في الشرق الأوسط في مقابل دعم استقلال الدولة اليهودية، وهو ما يضرب بجذوره في الاستعمار الصهيوني للأرض الفلسطينية بدوره. وسوف نعود إلى هذه المناقشة في الفصول اللاحقة، ولكن في الوقت نفسه ينبغي لنا أن نلاحظ أن الحرية اليهودية كانت دائمًا متوافقة مع «دور الوسيط اليهودي» الذي تم تأسيسه.

ومن المؤكد أن الكتابات التاريخية البولندية كانت على صواب عندما وصفت نظام الأرندا بأنه «يشبه السماء بالنسبة لليهود، والجنة بالنسبة للنبلاء، والجحيم بالنسبة للأقنان» (Abramsky et al. 1986:3). وعلى حد تعبير أحد كبار الربيين في بولندا القرن السابع عشر، وهو جويل سيركس: «كان الخطر عظيمًا من صياح الأغيار (غير اليهود) في معظم الأماكن، الذين يشكون من أن حكم اليهود عليهم يشبه حكم الملوك والأمراء». (Levine 1991:67).

في سنة 1648م انفجرت أوكرانيا، إذ كان أكثر من نصف الضياع المزروعة هناك تدار بالأرندا اليهودية لصالح ملاك الأرض البولنديين الغائبين (ليفين 119:61) وقد انتفض الفلاحون الأوكرانيون، الذين قادهم شميلينيسكي، وهو من صغار النبلاء، وساندهم القوازق وتتار شبه جزيرة القرم وكانت انتفاضتهم ضد الحكم البولندي ونوابه من اليهود. وكان النبلاء البولنديون

هم هدف هذه الانتفاضة، ومعهم رجال الكنيسة الكاثوليكية واليهود الذين كانت أعدادهم أكثر من هؤلاء وهؤلاء، وبذلك تحملوا أفدح الخسائر. وتم قتل آلالاف من اليهود، وعلى الرغم من أن التقديرات تختلف، فإن هناك اتفاقًا على أن نحو عشرين بالمئة من اليهود قضوا نحْبهم (Abramsky et al. 1986).

وفي كل مكان بدأ نظام الأرندا في الجمود، وغاص الإقطاع البولندي في الضمور الذي مهّد الطريق لتقسيم بولندا بين كل من روسيا وبروسيا والنمسا في نهاية القرن الثامن عشر.

وبدأ الفقر المدقع واليأس، اقتصاديًّا وروحيًّا في آن واحد، يضرب اليهود الذين يعيشون في المدن الصغيرة والقرى، وهو ما كانت عليه أحوال الفلاحين البولنديين تقريبًا. وقد احتفظت لنا صفحات عديدة من البولين (36)Polin بالحالة التي سادت في تلك الأوقات، وسوف نرى في الفصل السادس كيف ساعد هذا التاريخ في تشكيل ظهور سياسات الحداثة في الحياة اليهودية شرق أوروبا في القرن التاسع عشر.

وعقب مذابح أوكرانيا مباشرة، بزغت الحركات اليهودية الماشيحانية، مثل حركة شابتاي زفي(37). كذلك كانت للحركات الإحيائية اليهودية الحسيدية أصولها التي ترجع إلى تلك الفترة (Abramsky et al. 1986:5). كما بدأت هجرة جديدة، ولو أنها محدودة، تجاه الغرب، خاصة حينما بدا أن الاقتصاد التجاري اليهودي يمرُّ بعملية إحياء.

التحرر اليهودي في غرب أوروبا

وقد تجلى الاحتقان الذي عانته حركة الإصلاح الديني في الحروب الدينية في الداخل وفيما بين البلاد في جميع أنحاء القارة. وكان الغضب العارم ضد السامية على كلا الجانبين (البروتستانت والكاثوليك) قد خمد وبدأت تظهر على السطح مبادرات مستقلة لإعادة الاعتبار لليهود. وفي بوهيميا بحلول عام 1577، وفي براج بصفة خاصة، أعيد الاعتبار لليهود وحافظت الجماعات على نموها. وقد عكس هذا جزءًا من التراث «البوهيمي» المتشكك في اليقين الداخلي لكل من البروتستانية والكاثوليكية (Israel 1985: 40)، ولكنه عكس أيضًا دور براج في نظام التجارة العالمي المتغير، وأهمية الحرف اليهودية في صناعة المجوهرات والفضة والذهب. وفي غضون أربعين سنة، صارت براج أكبر مركز يهودي حضري في أوروبا المسيحية خارج روما.

كانت المواقف ضد اليهود في حال من الفوضى العارمة. والبندقية ترمز إلى هذا. فمن ناحية، كان الجيتو في مدينة البندقية محاطًا بالأسوار العالية، وكانت البوابات تغلق من الغروب إلى الفجر، حتى تتأكد الكنيسة والدولة من أنه لا يوجد اتصال بين اليهود والمسيحيين في المساء أو في الليل، واليهودي الذي يُضبط خارج الجيتو ليلًا دونما تصريح خاص كان يتم القبض عليه. ومن ناحية أخرى، كان مجلس التجارة البندقي في سبعينيات القرن السادس عشر يصر على أنه لا يمكن الاستغناء عن اليهود في الاقتصاد الإقليمي، ولم تكن هناك مطلقًا أي مسائل تتعلق بطرد اليهود (Israel 1985:57) وبنهاية القرن السابع عشر، كان هناك قدر معتبر من اشتغال اليهود في تجارة المدينة في الأقمشة، والغلال، وزيت الزيتون، على الرغم من التحريم الرسمي لحيازة اليهود للحوانيت والاشتغال بتجارة التجزئة. (Israel 1985: 174-5).

وفي أماكن أخرى بإيطاليا، اعترف دوق سافوي باليهود سنة 1652م (على أنهم مبتكرون يقدمون حرفًا جديدة». وقد تضمنت هذه الحرف صناعة التبغ، وصناعة الصابون والشمع، بل وحتى

تلميع المرجان الأحمر المستخرج من سواحل نابولي وتونس. (Israel 1985: 180).

كان ذلك أيضًا الوقت الذي تمكن فيه ولي العهد البروسي الأمير فردريك أن يتزوج من ابنة كوسمان جومپيرز «اليهودي العامل في بلاطه». (Israel 1985:144).

ونقص المساحة يحول بيننا وبين الدراسة المتأنية للظاهرة غير العادية، ظاهرة «يهود البلاط». ويكتب جوناثان إسرائيل أن عصر يهودي البلاط 1650-1713م كان علامة على «ذروة النفوذ اليهودي في أوروبا بداية العصر الحديث (1985:123) كانت إحدى مهامهم الرئيسة تتمثل في عملهم الواسع في إمداد الجيش أثناء حرب الثلاثين سنة. كما كانت مهاراتهم المصرفية أساسية أيضًا بالنسبة للأمراء الألمان المستبدين، على الأقل بالنسبة للفترة التي كانت هناك سيطرة يهودية على أسواق تجارة الذهب والفضة وغيرها من المعادن في وسط أوروبا». (Israel 1985:132). وبدأت المجهودات لدمج النخبة المالية اليهودية، على الأقل مع الطبقات الوسطى التجارية البازغة في الاقتصاديات الرأسمالية الباكرة في غرب أوروبا. وكما هو الحال اليوم، كان لا بد للأصوات الأرستقراطية أن تساعد في العملية. وحالة سليمان دي ميدينا حالة ذات مغزى، فهو هولندي كان منشغلًا بأسواق الألماس والسبائك الإنجليزية، كما كان موردًا منتظمًا للخبز والعربات للقوات الإنجليزية في الخارج. وفي سنة 1700م، صار ميدينا أول يهودي يُرسم فارسًا في إنجلترا. (Israel 1985:130).

كان الدور التجاري قد تم إحياؤه؛ لأن العالم الغربي عمومًا كان يجرب فرصًا غير مسبوقة. ولكن الاقتصاد الرأسمالي الجديد كان يُركز باطراد على الصناعة أكثر من التجارة:

«لقد تبنت الدول الأوروبية آنذاك سياسات حمائية بشكل شامل، وركزت على تحسين الأنشطة الصناعية بدلًا من تجارة المسافات الطويلة». (Israel 1985:248).

وقد برهن هذا على كونه أمرًا مصيريًّا بالنسبة للجماعات التجارية اليهودية التي انزلقت في منحنى التدهور طويل المدى. وكان السؤال آنذاك هو، هل يمكن دمج الجماعات اليهودية في المجتمعات الأوسع؟

وإذ كانت هذه الجماعات اليهودية لا تزال محل ازدراء كبير من العالم الخارجي، كما كانت حبيسة شبكة من القيود القانونية، زاد اهتمام اليهود الإصلاحيين بها، وببنائها الاقتصادي والديني. وكان هؤلاء رجالًا من أبناء العائلات الثرية، بدؤوا القيام بحملات لصالح جماعاتهم من أجل ما نسميه اليوم حقوق الإنسان أو الحقوق المدنية. وكان الإصلاح سلاحًا ذا حدين. فقد كان يعني العتق الكامل على المستوى المدني، والقانوني والسياسي، ولم يكن أقلها أن جميع الوظائف والمهن كانت متاحة أمام اليهود. ولكنه كان يعني أيضًا الإصلاح الداخلي داخل الجماعة. وكان البناء التجاري القديم، الذي يشبه البناء الرباني للتعاليم اليومية التي لا تحصى بخصوص السلوك الشخصي، كان يمثل إحراجًا ومفارقة. ففي الذروة، هناك نخبة ثرية يهودية صغيرة، وفي القاعدة عدد متزايد من الشحاذين، كان:

«يشبه الهرم، كانت الطبقة الوسطى تتألف من المتعاملين في المعادن من فرانكفورت، وهامبورج، وبراج، وكانت قاعدته مكونة من آلاف الباعة الجائلين اليهود الفقراء الذين كانوا يجوبون مدن وسط أوروبا وقراها، يشترون المعادن والعملات القديمة التي يغذون بها الجيتوات الكبرى». (Israel 1985:132).

وقد كره موسى مندلسون، الإصلاحي اليهودي البارز في القرن الثامن عشر هذا:

«لقد أدرك مندلسون أن مجتمع الأغيار قد شكل صورته عن اليهود.. في معارض التجارة.. واليهود الفقراء يعلقون بضاعتهم للعرض هناك ويقومون بمساومات مرهقة، ويثيرون اشمئزاز المسيحيين بعاداتهم وسلوكياتهم الغريبة.. كان مستعدًّا للاعتراف بأن هناك جشعًا موجودًا لا يرتوي بين «العامة الرعاع» على الرغم من أنه يقترح أن المسيحيين ربما كانوا مسؤولين عن هذا». (Meyer 1976:27).

لقد كان مندلسون نتاجًا لعصر التنوير، وقد توقع مطالب الثورة الفرنسية. وكان من دعاة الاندماج، أي إنه طلب الاحترام لليهودية الإصلاحية في مجتمعات أوروبا الغربية حيث يجب أن يحظى اليهود بكامل حقوق المواطنة. وكل الحركات الإصلاحية اليهودية، ودعاة الاندماج الذين يقودهم مندلسون، والاشتراكيون والصهاينة الذين جاؤوا فيما بعد، وافقوا على أن دور التجار اليهود الكلاسيكيين، الذين وصفهم أحد الكتاب بأنهم «قائمة أسعار تمشي على قدمين» (Kahan 1986:24) يجب تحويله.

وفي الفصل السادس سوف نرى الشد والجذب بين دعاة الاندماج والاشتراكيين والصهاينة حول كيفية تحقيق هذا. بيد أن الجميع وافقوا على أهمية «تعليم شايلوك».

اليهودي الذي كتب عنه شكسبير

كن ديريك پنسلار، الكاتب اليهودي الحديث، هو الذي وضع المسألة على هذا النحو، ولا شك أنها كانت سخرية مبهجة. ولكن إذا ما كان هناك تراث مثير للمتاعب من أحد أعظم الكتاب في الفن العالمي والأدب العالمي فيما يتعلق بفهمنا «للمسألة اليهودية»، فلا شك أن هذا هو شايلوك الذي صوره شكسبير.

شايلوك هو الرمز التاريخي والثقافي لمعاداة السامية، وهو يغوص في أعماق الوعي الشعبي رمزًا لليهودي باعتباره المحتال الذي يسرق أموال الآخرين. وكما يذكرنا إسحاق دويتشر، فإن النازيين تمسكوا بهذا «وكبروه حتى وصل إلى الأبعاد الضخمة التي لا تصدق، ورفعوه دومًا أمام عيون الجماهير.. وكان كثير منهم يبتهجون برؤية شايلوك منقادًا إلى غرفة الغاز». (Deutscher 1968:150-1). ومع هذا فإن التأثير الهائل لمسرحية شكسبير هو أعمق كثيرًا من النمط الباقي للمرابي الذي يطلب «رطل لحم» من جسد أنطونيو، تاجر البندقية، الذي فشل في أن يرد له دينه. في لحظة حرجة، جعل شكسبير شايلوك يقدم دفاعًا حارًّا عن يهوديته، تحديًا للإهانات المسيحية، تحول إلى دعوة للإنسانية المشتركة.

«لقد أهانني أنطونيو.. وضحك على خسائري، وسخر من أرباحي، واحتقر أمتي، وأحبط صفقاتي، وثبط أصدقائي، وحرض أعدائي. وما هو سببه؟ إنني يهودي. ألا يمتلك اليهودي عينين؟ أليس لليهودي يدان، أعضاء، أبعاد، حواس، مشاعر وعواطف؟.. ألسنا نتأثر حرًّا وبردًا بنفس الصيف ونفس الشتاء مثل المسيحيين؟ إذا ما كنتم تنخسوننا ألا تدمى أجسادنا؟ (The Merchant of Venice, 3-1, The Arden Shakespeare 1955:73).

والمقدمة التي تحملها طبعة أردن للمسرحية، وهي طبعة يوصى بها للمدارس بشدة، تهتم بأن الخطبة تعطي أحيانًا انطباعًا على جمهور المسرح لدرجة أنهم ينسون أنها كلام صادر عن الشخصية الشريرة في المسرحية (1955:11)، وبطبيعة الحال، فإن المسرحية منحازة إلى جانب

أنطونيو بشكل سافر، ومن الواضح أنه الشخصية الشريفة والتي وقع في حقها الخطأ. ومع هذا، فإن شكسبير قد بذر بذرة الشك في خسة شايلوك. ويا لها من مجرد خطوة كبيرة بعيدًا عن المسرحية، لكي نرى أنطونيو باعتباره ممثلًا للمسيحية التي غرست ألف سكين في اللحم اليهودي؟ ولا عجب أن اليهودي قاتل ردًّا على الهجوم.

إن قوة المسرحية هي قوة التناقض. والتناقض في كل مكان. إننا قد نزدري المرابي ونحتفي بالتاجر، ولكن اليهود كانوا تجارًا أيضًا في البندقية قبل أن تفرض المدينة قيودًا عليهم، وتجعلهم يمارسون الربا، ثم غيرت المدينة فكرها كما رأينا. وكل مدينة في أوروبا وضعت يهودها على نفس حال التأرجح والتلوي.

ويقبض دويتشر على هذا التناقض بشكل جميل... إذ إن إنجلترا عند شكسبير سرعان ما ستعيد الاعتراف بالتاجر اليهودي: «سوف يلقي المسيحي البرجوازي نظرة أخرى على شايلوك ويرحب به أخًا له». (Deutcher 1968:39).

اليهودي الذي رسمه رمبرانت

تسارع تحويل الحياة اليهودية في أوروبا بفضل «العصر الذهبي» للجمهورية الهولندية في القرن السابع عشر. فقد كان هذا الركن في شمال غرب أوروبا بزغ من غمار الحروب الدينية في القارة باعتبارها أكثر اقتصاد متقدم في العالم وكذلك باعتباره أكثر المجتمعات المدنية تسامحًا.

وقد أسهم اليهود إسهامًا كبيرًا في التجارة الاستعمارية المزدهرة وفي عمليات التصنيع: الألماس، والتبغ، والشيكولاته، وتكرير السكر (Israel 1985:179)، ونرى أيضًا بروز ظاهرة حديثة للغاية، «البروليتاري» اليهودي، أو العامل في مصانع التبغ الهولندية ومعامل تصنيع الألماس. وبدأ شيء غريب آخر يحدث، ففي بعض الأحياء على الأقل صار اليهود محبوبين.

وفي قاعة العرض الوطنية بلندن، في مواجهة ميدان الطرف الأغر، وكما سنرى، على مسيرة عشرين دقيقة من تمثال أوليفر كرومويل في ميدان البرلمان، ثمة لوحة مرسومة من العهد القديم رسمها الفنان الهولندي رمبرانت عنوانها عيد بيلشاصر:

يصور القماش المرسوم الأثري مشهدًا مخمورًا من العهد القديم من سفر دانيال وثمة يد خفية تكتب رسالة مشفرة بحروف عبرية. بيلشاصر آخر ملوك بابل، وضيوفه الفاسقون يغشاهم الرعب. وقد تم استدعاء دانيال لحل هذا اللغز. ويخبر دانيال بيلشاصر، ابن نبوخذ نصر، الذي كان قد نهب معبد القدس، أنها يدا الرب الذي هاله اضطهاد اليهود، والذي سوف يقسم مملكة بيلشاصر فيما بين الميديين والفرس. (Zell 2002:59-60).

ومؤرخو الفن مقتنعون الآن، أن منسا بن إسرائيل، الحاخام البارز في جمهورية هولندا، ساعد رمبرانت في بناء الرسالة بالحروف العبرية. والتعاون الوثيق بين الرجلين معروف تمامًا، وكان شكلًا نمطيًّا لحركة أوسع من الحوار والمصالحة بين المسيحيين واليهود، وهي ما نسميه الآن «محبة السامية- Philosemitism».

ومحبة السامية ليست عكس معاداة السامية، ولكن من المؤكد أنها تنطوي على الموافقة على اليهود، على الرغم من أنها تلوح بالأمل في أن يعتنق اليهود المسيحية. كما أنها عكست الدمار المستمر الذي ألحقته حركة الإصلاح الديني بالمسيحية. وعلى حد تعبير إسرائيل: «لأولئك

الذين تملؤهم الشكوك حول المزاعم واللاهوت الرسمي لمعظم الكنائس، كان اليهود، بمثابة حبل إنقاذ ثمين، وبمثابة خيط يقود إلى جوهر الوحي المقدس..» (Israel 1985:228). ومحبة السامية، كما يوضح، قد مثلت مرحلة انتقالية تسبق عصر التنوير (Israel 1985:228).

وقد عاش رمبرانت معظم سنين حياته في قلب الحي اليهودي بأمستردام، خلف معبد الربي منسا بن إسرائيل مباشرة. ومن بين مئتي صورة رسمها لذكور، عرف نحو خمسها بأنها ليهود، وهي نسبة مئوية عالية لافتة للنظر لأن اليهود كانوا يشكلون ما يزيد قليلًا على واحد بالمئة من سكان المدينة. وحتى في تصاويره للمسيح، كان حريصًا على أن يؤكد ملامح يسوع اليهودية. يستحوذ فن رمبرانت على «التضامن في الرسم» من «داخل» عقل وجسد موضوعه (Molyneux 2001:73-5). ويبدو رمبرانت، حتى وإن كان مختفيًا بعمق خلف حجب الغموض الديني، وكأنه وضع فنه لخدمة كسر الحواجز بين المسيحي واليهودي.

كان الراباي (الربي) منسا بن إسرائيل هو الذي قاد المفاوضات مع كرومويل للسعي إلى إعادة اليهود إلى إنجلترا. وتم التأكيد على الأرباح المالية التي ستعود على الاقتصاد وكذلك على المضامين الدينية الصوفية. كانت الحرب الأهلية الإنجليزية قد خلقت بيئة خصبة للحماسة الألفية. وكان كثير من المجموعات البروتستانتية، بما في ذلك البيوريتانز، مهتمة بشكل واضح بالدور الخاص الذي سوف يلعبه اليهود في تحقيق التوقعات المسيحانية (zell 2002:92).

بعد ذلك بقرنين من الزمان، سوف يخرج من إنجلترا تحت حكم الملكة ڤيكتوريا رئيس وزراء مشهور سيكون هو التجسيد الحقيقي، على الرغم من أنه مرتبط بالأرض بصرامة ومن هذه الأرض، لكل تلك الجهود الباكرة للمصالحة بين المسيحية واليهودية. وعلى الرغم من أن بنيامين دزرائيلي كان قد تم تعميده مسيحيًا بروتستانتيًا، فإنه بقي مأخوذًا بميراثه اليهودي. وإذ وصف المسيحية بأنها «اليهودية بعد أن اكتملت»؛ فإنه كان يسره أن يصف نفسه بأنه «صفحة مفقودة بين العهد القديم والعهد الجديد». (Johnson 1993:324).

كذلك كانت الجمهورية الهولندية علامة على طريق يهودي مختلف تمامًا نحو العالم الحديث. فثمة تاجر يهودي من أمستردام أدار ظهره لكل من الدين وحياة التجارة. كان اسمه باروخ سپينوزا، وكتب فلسفة عكست أصداء تراجع كل من اليهودية والمسيحية عند فجر العالم الجديد. كان سپينوزا واحدًا من أعظم مفكري عصر التنوير. وربما يمكن القول إن فصل الدين عن الدولة والسياسة والاقتصاد، قد بدأ معه. كذلك كان هو أول من سيسميهم دويتشر «اليهود غير اليهود»، وهم المنشقون أو الهراطقة اليهود:

«تعالوا فوق اليهود ولكنهم ينتمون إلى تراث يهودي، وكانوا استثناء من حيث إنهم بوصفهم يهودًا كانوا على مناطق الحدود بين عدة حضارات.. ونضجت عقولهم حيث كانت أكثر التأثيرات الثقافية تنوعًا تتقاطع بعضها مع بعض ويخصب كل منها الآخر.. كان هذا هو ما ساعدهم على أن يصعدوا فوق أزمانهم.. ويتطلعوا عقليًا في آفاق جديدة متسعة وبعيدة في المستقبل (Deutscher 1968: 26-7).

كان كارل ماركس، وهو يهودي آخر، واحدًا من أعظم الزعماء في النضال من أجل الديمقراطية في أوروبا القرن التاسع عشر (Nimtz 2000:7). حفزته الشعارات التي أطلقتها الثورة الفرنسية سنة 1789م. وعندما انضم إليه جبرائيل ريسر، قائد حركة تحرير اليهود في ألمانيا، ألقى ماركس

بثقله وراء مطالب رييسر:

يؤكد السيد رييسر بشكل صحيح على معنى رغبة اليهود في إنسانيتهم الحرة عندما طالب، بين أمور أخرى، بحرية الحركة والإقامة والسفر وكسب العيش إلخ. هذه التجليات «للإنسانية الحرة، تم الاعتراف بها صراحة كما هي في الإعلان الفرنسي لحقوق الإنسان..». (Droper 1977:127).

وقد ضمن ظهور الديمقراطية في أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية هذه الحقوق لليهود في العصور الحديثة.

لقد برهن «الغرب»، وأمريكا خصوصًا، الذي يضم أكبر جمهرة من السكان اليهود في العالم، على كونه مغناطيسًا يجتذب ملايين اليهود الذين هاجروا، عند نهاية القرن التاسع عشر، هربًا في الغالب من ظروف الفقر المدقع في أوروبا الشرقية. وقد برهن هؤلاء اليهود على أنهم أنجح الأقليات العرقية في ظروف توافر أي معايير لتكافؤ الفرص والحراك الاجتماعي.

وربما يصف معظم اليهود أنفسهم اليوم بعقلانية أنهم ينتمون إلى الطبقات الوسطى المهنية ويفخرون عن حق بإسهاماتهم الكثيرة البارزة في الفن، والعلوم، والتعليم والطب، والصحافة، والسياسة والتجارة. وقصة النجاح هذه قد برهنت على أنها ممكنة ليس فقط بسبب المرونة المطلوبة لحماية استقلالهم الديني، ولكن أيضًا بسبب «الشخصية التجارية والحرفية لليهودية، ميراث ماضٍ تاريخي طويل». (Leon 1970:236). تطور في السياق الحضري لحضارات الشرق الأوسط وأوروبا. نعم كانت هناك معاناة. بيد أن هذا يحكي لنا فقط جزءًا من الأداء العبقري في المجالات الاقتصادية والفكرية غير العادي، الذي تطور على مدى قرون عديدة. وآمل في أن يكون هذا الفصل قد قدم القليل لضبط الميزان.

وأخيرًا ربما يثور اعتراض لا يمكن إنكاره، أنه حيثما انكسرت الديمقراطية، مثلما حدث في ألمانيا النازية، عادت معاداة اليهود مصحوبة بانتقام رهيب يفوق التصور وسوف نتأمل الفترة النازية فيما بعد، ولكننا سوف نتحول أيضًا لنرى كيف أن المشاعر المعادية لليهود، تزداد تأججًا حينما ينكر اليهود الديمقراطية على الآخرين في الأرض التي يزعمون أنها ملك لهم وحدهم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الرابع:

«نحن» اليهود، «هم» العرب (1):

رسالة من معبد يهودي بالقاهرة منذ ألف سنة

أجبرت الصهيونية العرب واليهود على الافتراق بطريقة تسير عكس اتجاه التاريخ الطويل للحضارة العربية الإسلامية. وهذا جانب مهم يُساء فهمه في الجدل ضد الصهيونية سوف نتناوله مرة أخرى في الفصل العاشر. وهذا الفصل سوف يفحص العلاقات العربية - اليهودية في ذروة الحضارة الإسلامية، فيما بين القرن العاشر والقرن الثالث عشر تقريبًا. وسوف يدرس الفصل الأخير هذه العلاقات في الفترة الحديثة، باعتبارها الخلفية لفهم الكيفية التي يمكن بها تحقيق المصالحة العربية اليهودية. ويتحدى ضمنًا الأسطورة الصهيونية الأصولية القائلة بأن العرب واليهود مختلفون (بما يعني ضمنًا في العادة أن العرب هم الأدنى) بالقدر الذي لا يجعل من الممكن أن يتعايشوا سويًا.

كانت أغلبية اليهود تعيش في البلاد العربية حتى خمسمئة سنة مضت. وفي إسرائيل اليوم، ترجع أصول ما يزيد على مليون مواطن يهودي إلى البلاد المسلمة في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا. وهناك عدد صغير ولكنه مهم من هؤلاء اليهود، بعضهم يصفون أنفسهم بأنهم يهود عرب، مصممون على تسجيل الحال بشكل صريح. وهنا جزء من شهادة تتسم بفصاحة خاصة:

«إن حكايتي الشخصية تتساءل عن المعارضة -المرتكزة على أوروبا- بين العرب واليهود، وخاصة إنكار الأصوات العربية اليهودية (السفرديم) أنني يهودية عربية، أو بمزيد من التحديد، أنا امرأة إسرائيلية عراقية أعيش وأكتب وأتعلم في الولايات المتحدة. ومعظم أفراد عائلتي ولدوا وتربوا في بغداد.. وعندما واجهت جدتي المجتمع الإسرائيلي للمرة الأولى في الخمسينيات، كانت مقتنعة أن الناس الذين ينظرون ويتكلمون ويأكلون بشكل مختلف جدًا -اليهود الأوروبيين- كانوا بالفعل مسيحيين أوروبيين، لأن جيلها كان مرتبطًا ارتباطًا لا ينفصم بالشرق أوسطية. وكان على جدتي التي لا تزال تعيش في إسرائيل، ولا تزال تتحدث إلى حد كبير باللغة العربية، أن تتعلم الحديث عن «نحن» باعتبارنا اليهود، «وهم» العرب. وبالنسبة لسكان الشرق الأوسط، كان التمييز الفاعل باستمرار هم «مسلم»، و«يهودي»»، و«مسيحي»»، وليس العرب في مواجهة اليهود. وكان الافتراض هو أن «العروبة» تشير إلى ثقافة عامة مشتركة وإلى لغة عامة مشتركة، على الرغم من الاختلافات الدينية. فإذا ذهبت إلى معابدنا حتى في نيويورك، أو مونتريال، أو لندن، سوف يدهشك أن تسمع نغمة موسيقية، يظن من لا يعرفها أنها قادمة من أحد المساجد. وبالنسبة لعائلاتنا التي كانت تعيش في بلاد النهرين، منذ الأسر البابلي على أقل تقدير، والتي تعربت على مدى آلاف السنين، التي تم ترحيلها إلى إسرائيل منذ خمسة وأربعين عامًا بشكل مباغت، لكي تجبر فجأة على اتخاذ هوية يهودية أوروبية متجانسة قائمة على أساس تجارب في روسيا وبولندا وألمانيا، كان ذلك تدريبًا على تدمير الذات. هذه الازدواجية قادت الكثير من اليهود الشرقيين (واسمنا في إسرائيل الذي يشير إلى بلادنا الآسيوية والإفريقية الأصلية بصفة عامة هو مزراحي أو مزراخي) إلى حالات الشيزوفرانيا العميقة والدفينة. وباعتبارنا يهودًا عراقيين مع احتفاظنا بهوية جماعية، اندمجنا عمومًا في البلاد وتوافقنا معها تمامًا، بحيث شكلنا جزءًا لا يمكن الاستغناء

عنه من حياتها الاجتماعية والثقافية. وإذ تعربنا تمامًا، كنا نستخدم اللغة العربية حتى في الترانيم والاحتفالات الدينية. وقد ولدت الاتجاهات الليبرالية والعلمانية في القرن العشرين ارتباطًا أشد قوة لليهود العراقيين بالثقافة العربية، مما دفع باليهود إلى ساحة نشيطة للغاية في الحياة العامة والحياة الثقافية».

«وحتى قسمات وجوهنا تخوننا، بحيث تؤدي إلى نزعة استعمارية داخلية، أو سوء الإدراك المادي. ذلك أن نساء السفرديم الشرقيات غالبًا ما يصبغن شعورهن السوداء بلون أشقر، على حين تعرض الرجال أكثر من مرة للقبض عليهم أو ضربهم عندما يظن الناس خطأ أنهم فلسطينيون. وما كان بالنسبة للمهاجرين الأشكناز من روسيا وبولندا «عالية» (صعودًا) اجتماعيًّا، كان بالنسبة لليهود السفرديم الشرقيين «يريدا» (هبوطًا)».

Ella Haliba Shohat , Proffessor of Cultrual Studies and Women’s Studies, City University of New York.

والبروفسيرة شوحات عضوة في جمعية مزراحي للفنانين والكتاب العالمية. وموقعهم على شبكة الإنترنت مليء بالشهادات المماثلة. ويتضمن أيضًا «قائمة بقاء سفرديم»، وهي قائمة يوصى بقراءتها، ترقى إلى التحدي الذي يمثل مجابهة شاملة للصهيونية ومفاهيمها عن الهوية اليهودية. والكتاب الذي نوصي -بشدة- أن يُقرأ، هو ذلك الكتاب الرائع المكون من خمسة مجلدات بعنوان:

A Mediterranean Society: The Jwish Communities of the Arab World as Portrayed in the Documents of the Cairo Geniza by shelomo D. Goitein.

«يعيد جويتين، بقدر المهابة التي يوفرها البحث العلمي، بناء عالم جماعات اليهود العرب في شرق المتوسط بدقة متناهية وألمعية أخاذة. إذ لم يحدث من قبل، ولن يحدث من بعد، أن تم إلقاء الضوء على عالمهم بمثل هذا الكمال: وهو أحد أعظم مآثر البحث العلمي في هذا القرن، أو أي قرن غيره». (http/www-ivri-nasawi.org).

تقديم أوراق الجنيزا

سوف يتم تكريس بقية هذا الفصل لدراسات البروفيسور جويتين(38)، ولكن أولًا نطرح بعض الملاحظات التمهيدية وعرضًا للخطوط العريضة للسياق التاريخي.

كانت جنيزا القاهرة غرفة أو مكانًا للتخزين، مليئة بالوثائق، في معبد يهودي بالقاهرة يرجع إلى القرن الحادي عشر، والجنيزا كلمة عبرية، شبيهة بالكلمات العربية «جنازة»، وكلتاهما مشتقة من الكلمة الفارسية «جاني» التي تحمل معنى مخزن أو كنز. وعلى مدى مئات السنين، دخلت الوثائق غياهب النسيان، وتركت في غرفة، محجوبة عن الرؤية، حتى اكتشافها أواخر القرن التاسع عشر.

ويصفها جويتين بأنها «مخزن للكتابات المهملة»، أودعها تجار وباحثون وحرفيون وغيرهم من اليهود. ومهما كانت هذه الأوراق خطيرة، أو مهما كانت تفاهتها، فإنهم كتبوا اسم الرب عليها. وكان معنى هذا أنه في عقول الناس «أن هذه الأوراق بعد أن تؤدي الغرض منها، لا يجب تدميرها». (Goitein 1999:1:1). وهكذا احتفظت الجنيزا بسجل تاريخي فريد:

«ومع الصياغة بكلمات منتقاة بعناية والأعمال التي تم تنفيذها بعظمة، يجد المرء ملاحظات مكتوبة بتسرع، وتقارير أو رسائل مدونة بسرعة وإيجاز، بخط لا يكاد يُقرأ وبلغة حافلة بالأخطاء. وعلى أي حال، فإن أوجه القصور في الجنيزا تشكل تفردها ومجدها. إنها مرآة حقيقية للحياة، غالبًا ما تشوبها الشقوق والبقع، ولكن مداها واسع جدًّا وتعكس كل جانب في المجتمع الذي أفرزها أصلًا». (Goitein 1999:1-9).

كانت الجماعات اليهودية في تلك الفترة جزءًا لا يتجزأ من ثقافة إسلامية في إمبراطورية حققت الرفاهية بشكل خارق للعادة. وكما لاحظ المؤرخ العربي الحديث ألبرت حوارني، فإنها امتدت:

«عبر الحوضين العظيمين في العالم المتمدن، حوض البحر المتوسط وحوض المحيط الهندي. وصارت حركة الجيوش والتجار والعلماء والحجاج بينهما أكثر سهولة، وكذلك حركة أفكارهم وأساليبهم وتقنياتهم... الحكومات القومية، المدن الكبيرة والتجارة العالمية والريف المزدهر، فكان كل منها يحافظ على الأحوال التي تضمن وجود الآخر». (Hourani 1991:43).

وقد أكد برنارد لويس، وهو كاتب حديث يكتب عن الإسلام، ومفكر يوجه إليه النقد أحيانًا بسبب رؤيته للإسلام من خلال منظار الثقافة الغربية المشوش(39)، بقوة ما أسماه «تعايش» العرب واليهود في تلك الفترة في التاريخ الإسلامي. وهو يصف تراثًا من التعاون نادرًا نسبيًّا في تاريخ الشتات اليهودي» (Lwis 1984: 78) (ويقتبس لويس تفسيرًا محتملًا من جويتين لتدهور التسامح الإسلامي: وهو تدهور المجتمع البرجوازي الجنيني إلى شكل من أشكال الإقطاع العسكري (Lwis 1984: 57).

وثمة مقدمة مدهشة للجنيزا -بعضها تاريخ هدام، بعضها كتابات رحالة، وبعضها تاريخ محقق- كتبها الهندي أميتاب خوش. ففي كتابه الذي يحمل عنوان «في أرض قديمة- In an Antique Land» يسعى خوش إلى البحث عن عبد هندي لتاجر يهودي تونسي، هو بن إبراهام بن ييجو، الذي عاش في مانجالور، وهو ميناء على الشاطئ الجنوبي الغربي للهند، منذ نحو ألف سنة مضت. وخطاب الجنيزا الذي ألهب الخيال الباحث لدى خوش، كتبه تاجر مسلم صديق لبن ييجو، وهو خلف بن إسحاق، الذي كان يتخذ من عدن قاعدة له «ذلك الميناء الذي يقعد مثل ذبابة على قمع، في نفس النقطة التي ينفتح فيها المضيق للبحر الأحمر على المحيط الهندي». (Ghosh 1992:13).

ويعكس كتاب خوش بأمانة روح الجنيزا من حيث إنه لا يوجد شيء مثلما يبدو للوهلة الأولى، إذ إن بن ييجو ليس مجرد تاجر، وإنما هو أيضًا خبير خطوط متميز، وعالم وشاعر (Ghosh 1992:19)، وفقًا لخطاب آخرَ من خلف، فإن عبد بن ييجو الهندي، الذي يسميه خوش بوما، يتحول لكي يصير «وكيل أعمال وعضوًا محترمًا في منزل بن ييجو (Ghosh 1992:18). وهذا خلط غريب في عيوننا المعاصرة، تزداد غرابته من احتمال أن يكون بوما قد اعتنق اليهودية وأن بوما وبن ييچو وربما خلف أيضًا كانوا يتشاطرون الانبهار بتراث التصوف في الإسلام. واستكشاف خوش لهذه المواضيع» (1992:259-63) يخرج من نطاق هذا الفصل، على الرغم من أن الجنيزا تلقي ضوءًا مدهشًا على تأثير الصوفية على اليهودية في العصور الوسطى بالقاهرة على ما سنرى.

من الواضح أن هناك تاريخًا غاية في الخصوصية عن هذه الفترة، ينتظر من يكشف عنه النقاب. وفي الوقت نفسه، كانت الجنيزا قد بدأت تلهم خيال الروائي، عند كل من سلمان رشدي وطارق

علي، وآخرين غيرهم ممن استخدموا جو الجنيزا في كتاباتهم.

الجنيزا والإسلام واقتصاد التجار

حولت الدراسة الثاقبة التي قام بها جوبتين لأوراق الجنيزا هذا البحث إلى جهة في الاقتصاد العربي الإسلامي دون قصد. وتقتبس چانيت أبو لغد في كتابها الذي نشرته جامعة أكسفورد - والحائز على جائزة دولية- والذي يحمل عنوان:

Before European Hegemony The World System Ad 1250-1350. تستعير ملاحات جويتين عن نقطة شديدة الحساسية، وهي كيفية ربط الإسلام نفسه بالاقتصاد التجاري المزدهر في قلب الإمبراطورية.

فقد رفع الإسلام مكانة التاجر في شبه الجزيرة العربية، وصادق أخلاقيًّا على إسهاماتهم في المجتمع. وكتب جويتين: «يعتبر دخل التاجر الشريف في الأدب الديني الإسلامي مثالًا نمطيًّا للحلال، لأن كسبه لا يثير اعتراضات دينية. وبالإضافة إلى هذا كان التاجر -على وجه الخصوص- قادرًا على أداء الواجبات المفروضة على المسلم (الصلاة ودراسة الكتب الدينية) Abu-Lughod 1989:217.

كان الحج إلى مكة منذ بدايته الأولى مرتبطًا بالتجارة العظمى بين القارات، وبقي كذلك طوال العصور الوسطى. وكانت الرغبة الماثلة للحاج المسلم: «حج مقبول وذنب مغفور وبضاعة رائجة» (Goitein 1999: 1:55).

وهذه هي أيضًا الفترة التي تطورت فيها الشريعة (الإسلامية) كمدخل تقدمي للعدل والقواعد التي تحكم السلوك الشخصي والسلوك في مجال الأعمال. وكما كان هارمان قد لاحظ، يكاد يكون مستحيلًا أن نعترف بهذا الآن، إذا ما أخذنا في الاعتبار الإساءة التي أهيلت على الشريعة (الإسلامية) اليوم في الغرب. بيد أنها كانت متقدمة تمامًا في نظام القيم عما لدى الإمبراطوريات الإقطاعية الزراعية المسيحية التي كانت تنافسها. ويقتبس هارمان دراسة علمية عن الإسلام اعترافًا بما فيه من «توقعات بالمساواة من الحركة النسبية... مما أدى للحفاظ على استقلاله الذاتي في مواجهة الإمبراطوريات الزراعية». (Harman 1999: 130).

كان الاقتصاد التجاري في الشرق الأوسط والشرق الأقصى يتطلب نظام تخزين للبضائع بالغ التعقيد، ونظامًا للصيرفة والائتمان يتسم بكل خصائص أنواع المشاركة، وهو ما طوره بالفعل (Abu-Lughod 1989: 222-30)، وهو ما أكدته وثائق الجنيزا. وقد تطلب وجود قيم وقواعد للعمل تحظى بموافقة واتفاق على مستوى العالم. وإذا ما أخذنا مثالًا واحدًا فقط من أمثلة عديدة أوردتها چانيت أبو لغد، فإن المصرفيين الأوروبيين لم يطوروا «صك تبادل» مناسبًا حتى القرن الرابع عشر. ومع ذلك فإن السابقة التي ابتدعها الفرس، وهي السفتاچه، كانت مستخدمة على مدى عدة قرون في الشرق الأوسط. ويكتب جويتين: «كانت السفتاچه تصدر وتكتب على أيدي مصرفيين معروفين جيدًا، أو ممثلي التجار كقاعدة عامة، وكان هناك رسم يتم تحصيله لقاء إصدارها، وبعد تقديم جزاء يومي يجب دفعه عند أي تأخير في الدفع». (Abu-Lughod 1989:223-4).

وثمة سؤال مبهر، يشكل الأساس الذي يقوم عليه كتاب چانيت أبو لغد يقول: لماذا لم يتطور هذا النظام التجاري إلى نظام رأسمالي مكتمل الملامح بحيث يستحوذ على أوروبا الغربية؟ وعلى

الرغم من أنه لا يمكن الاستجابة لهذا الإغراء بالعودة إلى الوراء لدراسة هذا السؤال، فإننا نوافق على مقولتها بأن تأثيره على تطور اقتصاد أوروبا الغربية لم يحظَ بما يستحقه من التقدير ومن الدراسة. والحقيقة أنه على الرغم من أن الاستثمار على نطاق كبير كان نادرًا، فقد كان هناك مع هذا كمية كبيرة من البضائع (Abu-Lughod 1989:230-1). وهناك كان العمال يمتلكون أدواتهم الخاصة وغالبًا ما كانوا يمزجون بين أنشطة التصنيع وأنشطة البيع، والتي كان يمكن بالمصادفة أن تطمس الفرق بين الحرفي والتاجر. ومن بين الصناعات في القاهرة التي يضع جويتين قائمة بها، هناك ورش سبك المعادن وصناعة المشغولات المعدنية، بما في ذلك المشغولات العسكرية، والزجاج والفخار، ودباغة الجلود وصناعة المشغولات الجلدية وجلود الرق (للكتابة)، والورق، وتجليد الكتب، وأعمال البناء والتشييد. وبالإضافة إلى هذا، كانت توجد مطابخ «معامل» لتكرير السكر أو صناعة الورق. وعادة ما كانت تلك مملوكة للسلاطين وتستخدم أعدادًا كبيرة نسبيًا من العمال. وكانت صناعة النسيج وتوزيعه هي «الصناعة» السائدة.

ولا غرو أن المعز لدين الله الفاطمي، أول حكام الأسرة الفاطمية في القرن العاشر الميلادي، الذي بنى القاهرة، قد أعلن أن المدينة:

«مجد الإسلام ومركز تجارة العالم.. لقد غطت على بغداد.. وتصل إليها فواكه الشام والمغرب في كل الفصول، ولا يزال المسافرون يفدون إليها.. من البلاد الشرقية، والسفن من شبه الجزيرة ومن بلاد الروم...». (Abu - Lugod 1989:225).

ولا غرو أيضًا أن الجيوش الصليبية الأوروبية الغازية نظرت إليها بعيون ملؤها الحسد.

صلاح الدين والحملات الصليبية

قسمت الفترة التي تغطيها وثائق الجنيزا بشكل عام بين سلالتين حاكمتين، هما: الفاطميون (تأسست أسرتهم الحاكمة في مصر سنة 969م)، والأيوبيون (انتهى حكمهم في مصر سنة 12م). وثمة تاريخ فارق سنة 1168م، عندما ساعد صلاح الدين في إنقاذ القاهرة من الصليبيين. ويصفه جويتين، بأنه أعظم قائد عبقري في تلك الحقبة. وقد أشاد به يهود ذلك الزمان باعتباره المنقذ لهم، قورش الجديد (Armstrong 1996:298). وعندما استولى الصليبيون على القدس، ذبحوا جميع اليهود والمسلمين في المدينة. وطرد صلاح الدين الصليبيين، وحرر القدس ودعا اليهود للعودة إليها.

والرمزية التي يحملها هذا الحادث الجليل يتردد صداها عبر القرون ليصلنا ولا يتطلب أي تعليق إضافي. إنها تحية مناسبة لروح الجنيزا التي نفض عنها جويتين الغبار.

ولنعد الآن إلى دراسة أكثر تفصيلًا لليهود في العالم العربي الإسلامي كما تصورهم وثائق الجنيزا.

«العولمة»

ثمة مؤشر باكر على تسامح الفاطميين، وعلى روح (ذلك) العصر بالتأكيد، ينعكس في سيرة حياة يعقوب بن كلس. فقد كان تاجرًا يهوديًا من العراق عاش فترة بمدينة الرملة في فلسطين، قبل أن ينتقل إلى مصر. وأصبح ممثل التجار في القاهرة واستحوذ على انتباه الحكام الفاطميين. وكانوا حريصين على توظيف مواهبه في خدمة الحكومة وتم تعيينه وزيرًا. وكان على يعقوب بن كلس

أن يعتنق الإسلام حتى يتم قبوله، ولكن أوضح أن الديانة لا ينبغي أن تكون عقبة في التعيينات بالمناصب الحكومية. وبصفته وزيرًا كسب سمعة في توظيف كل من اليهود والمسيحيين «في أعلى المنصب»

.(Goitein:1999:1:34)(40)

وقراءة جويتين تدفع حتمًا بكلمة حديثة لتفرض نفسها على الذهن. وربما لم يكن هو على ألفة بهذه الكلمة الحديثة جدًا، لأنه مات في ثمانينيات القرن العشرين، على الرغم من أنه كان سيتعرف على الفور بالفكرة التي تدل عليها الكلمة: وهي كلمة العولمة. وهي ليست عالمية حقًّا بطبيعة الحال(41). ولكن «دولية» الناس والبضائع التي كانوا يصنعونها ويتاجرون بها، تحمل شبهًا لا يمكن إنكاره بما يجري اليوم (من عولمة).

تأمل اثنين من اليهود يمثلان نمطين شائعين في الجنيزا، تاجرًا تونسيًّا ومنجد أثاث فارسيًّا في القاهرة.

في الخطاب المكتوب سنة 1085م، والذي أودع ضمن وثائق جنيزا القاهرة يحكي التونسي عن بيع لأحد الأوروبيين في ميناء بحري فلسطيني لصفقة من الصبغة الأرجوانية، التي كانت من البضائع الرائجة في ذلك الوقت. ويحكي عدد من التجار -منهم هذا التاجر- عن الأرباح الممتازة التي يمكن جنيها من التعامل مع الأوروبيين الذين كانوا يفتقرون إلى المهارات التجارية التي يتمتع بها نظراؤهم في عالم البحر المتوسط (1999: 1:45-6).

أما المنجِّد القادم من طبرستان، التي يصفها جويتين بأنها الإقليم الفارسي الجميل جنوب بحر قزوين، فكانت شهرتها ذائعة في جميع أرجاء الإمبراطورية، لدرجة أن الإقليم أعطى اسمه لذلك الطراز الخاص من التنجيد. وكان يتم إعادة إنتاجه على نطاق واسع في مصر لدرجة أن الإصرار على التجنيد الطبرستاني الأصل كان ينص عليه صراحة في عقود الزواج التي تم اكتشافها في وثائق الجنيزا. ولكن هناك غموضًا مثيرًا في حقوق الملكية الفكرية يمكن أن يكون مماثلًا لتدريب عقلية قانونية في القرن الحادي والعشرين. متى يكون الطبرستاني ليس لحافًا طبرستانيًّا؟ يبدو أن بعض المنجدين من اليهود الفرس والمسلمين، قد اكتسبوا مهاراتهم في طبرستان ثم هاجروا صوب الغرب. وهو ما يمكن أن تؤيده حقيقة أن كثيرًا من الناس في مصر وتونس كانت لهم أسماء فارسية (Goitein 1999:1:50).

غالبًا ما يكون هناك خط يكاد يكون إعلانًا من جويتين يلقي الضوء غير العادي على العلاقات الاقتصادية الدولية بالغة التعقيد فيما بين أوروبا والشرق الأوسط، وبين المسيحيين والمسلمين واليهود، أغنياء وفقراء. ونحن نريد معرفة المزيد؛ بيد أنه ليس هناك المزيد. ولدينا حقيقة واحدة موثقة، وهي إشارة عابرة في خطاب أو وثيقة أعمال. وهكذا نعرف أنه منذ نحو 1000 سنة مضت كان التجار المسلمون يستوردون الجبن والتي كانت هي مصدر البروتين لفقراء المصريين من أوروبا (1999:1:46).

ونعرف أيضًا أن العالم الإسلامي كان يأخذ أحد المبادئ على أنه أمر مسلم به، وهو مبدأ يزعمون اليوم أنه مبدأ ليبرالي حديث، على الرغم من أنه لم يكن موضع ممارسة أبدًا في العصر الحديث، ومؤداه أن التجارة الحرة يجب أن تكون مصحوبة بحرية الحركة والتنقل للناس، مهما كان عرقهم أو لونهم. يجب على السياسيين المحدثين أن يولوا عناية فائقة للمواقف الإسلامية من

الهجرة، وهي مواقف تبدو أكثر تحضرًا إذا ما قورنت بكثير من مواقفنا الآن.

وبينما احتشدت الحملات الصليبية للانطلاق، كانت هناك هجرة يهودية من أوروبا المسيحية، خاصة فرنسا، إلى العالم الإسلامي الذي لم يفرض أي قيود عليهم.

«لم يتم العثور في أي مكان على إشارة بأن الحكومة المصرية عرقلت هذا الفيض من البشر القادم من بلاد كان حكامها، وكما أظهرت أحداث 1219 و1249م، ينوون غزو مصر نفسها». (1999:1:67).

والواقع أن العالم منذ ألف سنة مضت كان مقلوبًا رأسًا على عقب. وكانت هذه أيضًا حال الجماعة اليهودية نفسها. إذ كان المهاجر الأوروبي الفقير بحاجة إلى مساعدة مالية من الجماعة اليهودية في القاهرة كما تشير سجلات الجنيزا. وعلى النقيض، كان اليهود اليمنيون من التجار والحرفيين والعلماء بالمدينة يسجلون في القوائم باعتبارهم مساهمين في الخزانة العامة للجماعة (1999:1:57). ومن سوء الحظ أن السخرية التي تسترعي انتباه القارئ اليهودي الناقد المعاصر، لا يمكن أن نستكشفها هنا.

وتتخطى حرية السفر التي كانت من المسلمات الديانات الثلاث: «فإذا ما قرأ المرء خطابات الجنيزا ينسى أنه كانت هناك حدود سياسية موجودة على الإطلاق» (1999:1:60). ولم يكن المسافرون بدوافع اقتصادية هم المسافرون الوحيدون بأي حال. ويصف جويتين ظاهرة «العالم المتجول» وحرية البحث على الأقل داخل حدود الأديان. وهكذا نسمع عن قاضٍ يهودي من صقلية سافر إلى مصر وفلسطين وأخيرًا إلى بغداد، حيث درس المزامير مع أفضل عالم هناك. وهناك مزمور حير الاثنين معًا، ومن ثم اقتربا من رئيس الكنيسة النسطورية. ويلاحظ جويتين كيف أنه لم يكن من المتوقع اكتشاف «تعاون مثل هذا... في بغداد منذ تسعمئة وخمسين سنة مضت». (1991:1:52).

ويبدو أن الكتب والأفكار، والمعارف، والأذواق كانت تنتقل على نطاق واسع أيضًا.

«في ماينس، المدينة الرومانية القديمة على ضفاف نهر الراين، كان من الممكن أن تجد أهم أنواع التوابل الأكثر أهمية والمستوردة من الهند والشرق الأقصى، وأن تجد كذلك رجلًا يمكنه أن يترجم كتابًا عن تعاليم إنشاد ترانيم الكتاب المقدس من اللغة العربية إلى اللغة العبرية، ولم يكن ذلك يمثل شيئًا بأي حال». (1999:1:64).

بيد أن مثل هذا التبادل للأفكار كان يمكن أيضًا أن يحض على الخوف وعدم التسامح، وهكذا نقرأ عن أن اليهود الفرنسيين أحرقوا كتبًا لابن ميمون، أشهر فيلسوف يهودي في العالم الإسلامي (1999:1:64).

كان علماء الدين اليهود يسافرون على نطاق واسع للحصول على وظائف سواء في مراكز التعليم المشهورة في القاهرة، أو القدس أو بغداد أو للعمل كمدرسين، أو قضاة، أو زعماء دينيين في المدن والقرى بجميع أنحاء الإمبراطورية «ولم نجد مثالًا واحدًا على تدخل الحكومة» (1999:1:66).

وبطبيعة الحال، فإن الكوارث، والحرب الصليبية بوجه خاص، والانتفاضات التي خلقتها السلالات الحاكمة المسلمة، والتي كانت تسيء إلى المسلمين من الاتجاهات كافة بقدر ما تسيء

إلى غير المسلمين (وهو ما سوف نعود إليه فيما بعد)، كلها كانت من أسباب تحركات الشعوب.

وعمومًا، كانت مثل هذه الحركية تؤخذ أمرًا مسلمًا به، باعتبارها وسيلة لحل المشكلات. «إذ إن تغيير السكن يجلب الحظ» ونقرأ في وثائق الجنيزا عن المغني الأعمى الذي كان يفضل الشحاذة وهو في طريقه إلى مكان ما بدلًا من البقاء في المنزل. وأخيرًا، كان هناك دائمًا سبب آخر لترك الوطن، على الرغم من كونه سببًا يحمل مخاطرة الاتهام بالجنس. ولكنني آمل أن تكون دعابة جويتين هنا مقبولة باعتبارها سببًا لكي لا نفرض رقابتنا على هذا المثال غير العادي للتعايش بين الرجال المسلمين واليهود:

«وبقدر ما يبدو الأمر فظًّا، فإنه يجب التسليم بأن الهرب بعيدًا عن الزوجة بقدر الإمكان كانت ممارسة تتم كثيرًا بين الناس الذين تقدمهم وثائق الجنيزا، مثلما كان يفعل الأزواج في حكايات ألف ليلة وليلة». (1999:1:58).

وعلى أي حال، فإنه على الرغم من أن كل هذه الأمثلة الدالة على ما يصفه جويتين ب«الكوزموبوليتانية» (العالمية)؛ فإنه يصر على أن ما يسميه «الوطنية المحلية» (1999:1:64) كانت مهمة أيضًا بنفس القدر للناس الذين تتحدث عنهم الجنيزا (1999:1:58).

«الوطن»

وهنا نأتي إلى واحد من أكثر الموضوعات سحرًا في كل الموضوعات التي تضمها وثائق الجنيزا. فمن الواضح -دونما أي ظل من الشك- أن الشعب اليهودي في الحضارة العربية الإسلامية، كما تقدمه وثائق الجنيزا، أغلبية اليهود آنذاك، الناس الذين حملوا التراث الديني اليهودي من العصور التي يتحدث عنها الكتاب المقدس إلى اليوم الحالي، لهم مفهومهم الخاص، المحدد للغاية، عن «أرض الوطن» الذي يتناقض بشكل حاد مع المجالات الدائرة في العصور الحديثة.

ويشعر المرء أن جويتين مدرك للتناقض. وعلى الرغم من أنه لم يكن ناقدًا سياسيًّا حديثًا، فإنه مهموم بالعلاقة بين الجماعات اليهودية في الأراضي العربية الإسلامية و«أرض الوطن» وهو يعود إلى الموضوع في مناسبات ثلاث في المجلدات الخمسة. وهو يصف «الطبيعة الهشة تمامًا» للدليل (1999:4:40). وهو يركب المجادلات المعقدة بالأدلة القانونية لكي يقنع القارئ بأن يبدأ التفكير في مفاهيم مثل «أرض الوطن» و«الأمة» بطريقة مختلفة تمامًا. وهو أساسًا يسألنا أن نطرح الصياغات الحديثة وأن نعيد التفكير مرة أخرى بعقلية اليهودي الذي تصوره الجنيزا. وهو لا يقول ذلك، ولكن يبدو أن الصيغ الحديثة لا ينبغي أن تؤخذ على أنها أكثر «تقدمية». وعلى العكس، يمكن المجادلة بشكل معقول بأن المفاهيم العربية الإسلامية واليهودية في العصور الوسطى عن «الأمة» و«أرض الوطن» هي مفاهيم متقدمة عن مفاهيمنا.

ولننضم إلى جويتين وهو يقدم هذه الأفكار، وبينما القضية هي أن الإسلام يعتبر المسيحية واليهودية غير قادرتين على الوصول للحقيقة الدينية الكاملة، وهو ما يعني أن التفرقة الدينية كانت موجودة باستمرار، على الأقل في الفترة التي نناقشها، فإن هذا الموضوع نادرًا ما كانت له أي أهمية. حقًّا كان على غير المسلمين أن يدفعوا ضريبة الجزية، بيد أن هذا كان مقبولًا باعتباره عبئًا حتميًّا. وقد خلق قدرًا من التوتر أقل كثيرًا مما يمكن أن يتوقعه العقل الحديث. لقد كان جدلًا مع سلطات جباية الضريبة، ولكنك لم تكن لتلوم جارك المسلم، أو زميل الحرف المسلم،

أو شريكك المسلم في العمل التجاري. وهنا نصل إلى التمييز بين «الأمة»(42)، و«الوطن». إذ كانت الجماعات المسلمة والمسيحية واليهودية تشكل كل منها أمة منفردة، وكانت تشرف على معظم جوانب السلوك اليومي، بالمعنى الشخصي والديني والقانون: «وكانت جذور ذلك تتمثل في المفهوم القائل بأن القانون شخصي وليس مرتبطًا بالأرض. وليس حسب قانون المنطقة التي تصادف وجوده فيها» (1999:1:66). ويذهب جويتين إلى حد القول بأنه باستثناء بعض التشريعات المحلية لم تكن لدى الدول قوانين: «لأن سعي يهود إسبانيا أو فرنسا للحصول على قرارات المحكمة العليا في القدس أو بغداد، أو في القاهرة مع ابن ميمون وخلفائه فيما بعد، كان هو الأمر الطبيعي والعادي».

ولكن الجماعات الدينية المختلفة كانت تشترك في وطن ما. و«بينما كان طبيعيًّا التعامل بشكل مختلف مع أتباع الديانة المختلفة، كان مما يدعو إلى الثورة أن تتم التفرقة ضدهم على أساس أنهم من المقيمين الدائمين في نفس البلاد» (1999:2:276). ويشرح جويتين هذا بتقديم ما يسميه توضيحًا (جميلًا) في فقرة من خطاب كتبه قاضٍ يهودي من برقة في شرق ليبيا، يعيش بالإسكندرية، إلى صديق في القاهرة. وكان قصده أن ينضم إلى صديقه للقيام برحلة حج إلى بيت المقدس، ولكن الطريق لم يكن آمنًا، والشتاء كان باردًا، و«كان قاضينا يحنُّ إلى وطنه بشكل واضح». وغلب عليه الإغراء بأن يذهب إلى برقة بدلًا من ذلك. وفي خطابه يصف كيف أنه كان قد دفع فعلًا الرسوم عن نفسه وعن بضائعه في قافلة كانت خارجة في اليوم نفسه، وكان اليهودي الوحيد. وفي الخطاب، يصف كيف أن المسافرين الآخرين، ومعظمهم من أبناء برقة «وعدوني بالمعاملة المحترمة في أماكن استخدام المياه ومراعاة السبت وما شابه ذلك». ويعلق جويتين بأنه بعيدًا عن ثقته في الرب، فإن حقيقة أنه كان يسافر بصحبة «بني وطنه» هي التي منحت هذا اليهودي الوحيد الشعور بأنه سيكون آمنًا (1999:2:276).

وبعد ذلك بقليل في نفس الجزء يلاحظ جويتين كيف أن الاتجاه الحتمي للاستبعاد في أي ديانة، بسبب زعمه أنها وجدت الطريق الوحيد إلى الله، قد انهار «عندما يختلط الناس من أتباع الديانات المختلفة بعضهم ببعض اختلاطًا شديدًا». ويكشفون أن الجمهورية الخفية للناس المهذبين تمتد خارج الديانة والحزب والعرق.... هذه «الجمهورية الخفية» لا يجب رؤيتها باعتبارها تفلسفًا متسامحًا من لدن جويتين. على العكس، فإن جملته التالية مباشرة توضح أنه يضع تعميمات خرج بها من دراسة استمرت عشرات السنين لوثائق الجنيزا. فقد صادف خطابين مهمين فقط أحدهما من مسلم والآخر من مسيحي واقتبس منهما، على التوالي:

«إن الحقيقة المدهشة فيما يتعلق بالجنيزا هي أن الاقتباسات مثل الاقتباسين اللذين قدمتهما نادرة للغاية. والحقيقة أنني حتى الآن لم أصادق خطابات أخرى من نفس النمط، ولا نجد في أي مكان آخر أن المسيحيين والمسلمين يلعنون كجماعة، أو حتى يدور الكلام عنهم بما ينتقص من قدرهم». (1999:2:276).

وفي المجلد السابق كان جويتين قد اقتبس مثلًا عربيًّا يوضح نفس النقطة. والواقع أن الفقرة تستحق أن نوردها كاملة:

في تلك الفترة، كان اليهود يخالطون جيرانهم في حرية، ومن ثم لم يكن ممكنًا أن يختلفوا عنهم كثيرًا. لأنه كما يقول المثل العربي، الناس أقرب نسبًا لمعاصريهم من أجدادهم. ويبدو معقولًا أن الطبيب اليهودي في القرن الثاني عشر، كان يعمل بمستشفى حكومي في القاهرة أو في حلب، كان

من معظم الجوانب ممثلًا لمهنة الطب في زمانه عامة، على حين كان صانع الزجاج اليهودي، أو نساج الحرير، أو المشتغل بالمعادن، يستخدم نفس التقنيات ويشغل نفس المكانة الاجتماعية التي يشغلها رفاقه من العمال المسيحيين والمسلمين. والمساعدة المتبادلة، التي عبرت عنها القروض الصغيرة، تشهد عليها الجنيزا بأنها كانت سائدة بين أبناء الديانات المختلفة ولكن في المهن نفسها (1999:1:71).

كان المسلمون والمسيحيون واليهود يعيشون متقاربين جدًّا بعضهم من بعض، وبدرجة أبعد كثيرًا مما كان يمكن للمرء أن يفترضه اعتمادًا على مصادرنا الأدبية (1999:2:289)، ونادرًا ما يرد ذكر «الأحياء اليهودية» في وثائق الجنيزا. والعلاقات الحميمة بين أتباع الديانات المختلفة، لا سيما في القاهرة القديمة، يمكن البرهنة عليها من خلال الحقيقة القائلة بأن البيوت والدكاكين كانت مملوكة مشاركة بين أبناء الجماعات الدينية المختلفة (1999:2:292). وفي القدس أيضًا نقرأ عن منزل أو مجمع سكني (نحو سنة 1040م) حيث كانت بعض الغرف مملوكة لشخص مسلم والبعض الآخر مملوكة ليهودي. وطبعًا كان يمكن أن تثار الشكوك والمصاعب بسهولة. هل يمكنك أن تشارك في نفس البئر؟ لقد كانت النساء المسلمات يحتجبن بطريقة لم تكن تطبق على النساء اليهوديات. وكان لا بد من وضع ترتيبات خاصة لضمان الخصوصية في المكان. ولا شك في أن الكثير من الترتيبات غير الرسمية كانت تتخذ. ولكن إذا ما كان هناك ما يدعو للشك، فقد كان بوسعك أن تشكو للسلطات الدينية المختصة.

وقد وافق ابن ميمون -شرعيًّا- على التساؤل التالي الخاص بالشراكة بين مسلم ويهودي في الورش، التي كانت إحداها لصياغة الذهب، وكانت الأخرى لصناعة الزجاج «ماذا يقول سيدنا، لقد اتفقوا فيما بينهم، على أن المكاسب التي تتحقق يوم الجمعة تكون لليهود ومكاسب يوم السبت تكون للمسلمين» (1999:2:296). والواقع أن السلطات اليهودية هددت نجارًا يهوديًّا بالضرب بالسياط حينما حاول أن يكسب من عماله المسلمين الذين يصنعون الأبواب يوم السبت (1999:2:297).

وعاد جويتين إلى فكرة «الوطن» في مجلد لاحق، ليصفه بأنه يعني المدينة الوطن أو مدينة بقدر ما هي «وطن». وتبدو هذه ترجمة أفضل. إذ إنه يقدم التمييز المثير التالي: الوطن يعني بلدًا «وكانت البلاد مركبات سياسية غالبًا ما تغير حدودها وشخصياتها، أما المدن فكانت هي وحدات الحياة» (1999:4:42). ومن الواضح أن القومية كانت لا تزال غير متخيلة. وما يتحدث عنه جويتين هو الارتباط العاطفي بمسقط رأس المرء أو المكان الذي عشت فيه سنوات عديدة والعائلة المباشرة أو الممتدة وشبكة الأصدقاء والجيران وزملاء العمل مهما كانت ديانتهم.

بيد أن هذا يحمل مضامين دينية تتقاطع مع ثنائية (الأمة/ الوطن). فهذه شعوب دينية تحتاج إلى مباركة إلهية في كل نواحي حياتهم. وثمة جملة في الكتاب المقدس تقول عن مدينة القدس ما معناه الدعاء بأن يديمها الله إلى الأبد. ولكن جويتين عثر على خطاب في الجنيزا يدعو فيه كاتبه بهذه البركة نفسها للقاهرة.

وهناك عبارة أخرى في الكتاب المقدس «ميراث آبائي»، ربما يتخيل المرء أنها كانت مقصورة على مدينة القدس. وعلى العكس، عثر جويتين على حجاج يهود يكتبون الرسائل، وهم يقيمون بشكل مؤقت في القدس، ومع ذلك يكتبون عن ذلك الميراث بطريقة غير متوقعة: «ندعو خالق

الدنيا إلى أن يجمع شملنا في فرح عندما أعود برعايته إلى وطني وميراث آبائي». هذا ما يكتبه حاج يهودي في القدس لصديق أو قريب له في مراكش وطنه» (1999:1:63).

ويصف جويتين بركات أخرى مرتبطة بالمدن والبلدات. ثم يطور المناقشة بالقول إنه في القرون اللاحقة، صار من الشائع بالنسبة لمن يكتبون الخطابات من اليهود أن يدعوا بالبركة للجماعة وليس للمدينة. هذا التغير «كان انعكاسًا لتدهور العلاقات بين مختلف الجماعات الدينية» (1999:2:42). والمغزى واضح، وهو يمكن أن يحرك العواطف حتى في أكثر العقول حداثة وعلمانية. وفي الفترة التي تغطيها وثائق الجنيزا كان كثير من اليهود على استعداد لأن يسألوا الرب البركة لجيرانهم المسلمين والمسيحيين.

ويصف جويتين كيف كان «الحنين إلى الوطن» موضوعًا عظيمًا أيضًا في الشعر العربي القديم. إذ كان راسخًا في الثقافة، بغض النظر عن الدين. ويستخدم كاتبو خطابات الجنيزا الكلمة العربية «بلديًا» (بلدياتي) لوصف مشاعرهم واهتمامهم بسكان المدينة التي يعيشون بها. وهناك موظف يهودي مرموق من المغرب يكتب للسلطات اليهودية المصرية عن تاجر مسلم جاره تم اغتياله في الطريق إلى اليمن، ويعلق بقوله: «لقد كان بلدينا وأنا قلق بصفة خاصة» (1999:2:45).

ويختتم جويتين هذا القسم بتأنق ورمزية كبيرة. فهو يوضح المشابهات بين الملاحظات على حياة المدينة في التلمود، المصدر الحيوي للشروح اليهودية للتوراة، وما كتبه الشعراني، الصوفي المسلم الكبير الذي يشكر الله على «الخروج»، ببركة النبي من الريف إلى القاهرة(43) إن الرجل الذي يظهر في الجنيزا كان كائنًا اجتماعيًّا بشكل ظاهر: يجسد حكمة الشرق الأوسط القديمة «الصحبة الطيبة أو الموت» (1999:4:42).

التوترات الدينية

هل كان الشعور المعادي لليهود موجودًا طوال تلك الفترة كلها؟ نعم كان موجودًا وفي الجنيزا كلمة خاصة بهذا هي كلمة «سينعوث» أي الكراهية. وعلى أي حال «فإن الظاهرة لم ترد الإشارة إليها في أي مكان على أنها عامة؛ ويرد ذكرها في كل مرة مرتبطة بجماعات معينة، أو مدن معينة، أو شخص محدد» (1999:2:278). وكانت هناك أدلة كثيرة عليها في الإسكندرية ولكن لم يرد دليل عليها في أي مكان بالقاهرة. وكان يفترض أن أبرز توضيح للخلاف الديني هو فرض ارتداء علامة من لون مغاير أو حزام أو عمامة ذات لون محدد مختلف. وهناك إشارات لا تحصى موجودة في المصادر الأدبية العربية. وعلى أي حال، لم يكن جويتين قادرًا على أن يجد إشارة واحدة إلى هذا في وثائق الجنيزا، على الرغم من الاهتمام المستمر بالملابس. وقد توصل إلى استنتاج أن هذه القاعدة كانت قد أسقطت أو تم تجاهلها على الأقل (1999:2:286).

كانت المنطقة الوحيدة التي يصطدم فيها الإسلام مع الديانات الأخرى صدامًا مريرًا هي مسألة التحول من دين لآخر. وكان يمكن النظر إلى الجزية باعتبارها تشجيعًا على اعتناق الإسلام. ويؤكد جويتين هذا القلق الذي سببته الجزية للناس الذين تتحدث عنهم وثائق الجنيزا.

«بينما كانت التطلعات إلى الوظائف الحكومية الكبرى في الدوائر العليا بمثابة حافز لاعتناق الإسلام، وربما كان اعتناق الجماهير الإسلام في الطبقات الدنيا ناتجًا بشكل جزئي عن العبء المحتمل للجزية». (44) (1999:2:392-3)

ولم يجد جويتين دليلًا على اعتناق جماهير اليهود للإسلام في تلك الفترة بالذات، ولكن «قسمًا مهمًّا جدًّا من الجماهير غير المسلمة كان بالقطع غير قادر على دفع الجزية وغالبًا ما كانوا يعانون الإهانة والحرمان بسببها». وفي الفترة اللاحقة أدت المضايقات الدينية الممزوجة بتلك الضغوط الاقتصادية بالتأكيد إلى اعتناق أعداد كبيرة للإسلام.

كان التحول إلى الإسلام مسألة خطيرة للغاية. فالمسلم المرتد يواجه عقوبة الإعدام، ومع هذا فإن موسى ابن ميمون فضل صراحة أن يعود إلى اليهودية(45).

وتحتوي وثائق الجنيزا على خطابين منه أن اثنين ارتدا حديثًا عن الإسلام واضطرا إلى الهجرة خوفًا على حياتهما. ومما يلفت النظر أن معظم من اعتنقوا اليهودية ممن ذكرتهم أوراق الجنيزا من المسيحيين الأوروبيين (1999:2:304).

على أنه من الحماقة وسيكون تضليلًا أن نتجاهل هذا الجانب الكئيب والأكثر إثارة للمشكلات في حياة اليهود في المجتمع الإسلامي في العصور الوسطى، فإن التوازن البادي في وثائق الجنيزا إيجابي إلى أبعد الحدود.

العلم وروح العصر

وثمة معيار فريد ليس لمجرد النجاح اليهودي، ولكن للإسهام الخاص جدًّا في الحضارة العربية الإسلامية في تلك الفترة، نجده في المشاركة اليهودية الفعالة في مهنة الطب.

والمراسلات الخاصة التي تحفظها وثائق الجنيزا «تزخر بالإشارات إلى المشورة الطبية التي كان الناس يسعون إليها وغالبًا ما كانوا يدفعون فيها آخر ما يملكون». وفي أوراق الجنيزا... نجد طبيبًا يهوديًّا، وغالبًا أكثر من واحد، في كثير من المدن الصغيرة أو القرى الصغيرة، ومن حين لآخرَ يرد ذكر الزملاء المسيحيين والمسلمين كذلك. (1999:2:241).

وتشكو سجلات الشرطة في القرن الثالث عشر من أن الكثير من المدن لا يوجد بها سوى أطباء من المسيحيين أو اليهود(46). كما أن الإسهامات المسيحية واليهودية في النصوص الطبية العربية كانت خارجة عن أي تناسب مع أعدادهم. وكان لدى أول خليفة فاطمي يحكم مصر والبلاد المجاورة طبيب يهودي هو موسى بن العازر. وكان موسى يهوديًّا إيطاليًّا أسره الفاتحون المسلمون ثم أخذوه إلى تونس، وقد طور «تآليف مدهشة صنعت الأعاجيب» في تونس (1999:2:243). وكان ناجحًا جدًّا لدرجة أنه كان قادرًا على تطوير عائلة من الأطباء الذين توارثوا المهنة، إذ إن اثنين من أبنائه، وواحدًا من أحفاده خدموا الخلفاء. ويصف جويتين كيف أن الجماعات اليهودية ذاتها كانت لها قيادات من الأطباء.

وأشهر طبيب يهودي وزعيم لجماعته كان موسى ابن ميمون، الذي كان طبيبًا لصلاح الدين. وجويتين في رهبة من ابنه إبراهام الذي كان أيضًا طبيبًا للخليفة (وثمة ملاحظة في الجنيزا من طبيب مسلم يمتدح مهارته الطبية الممتازة) بحيث يكتب سيرته في صورة تفصيلية.

كان إبراهام شخصية معقدة إلى حد كبير. ويكتب جويتين أنه كان يناضل من أجل «كل شيء جدير بالثناء» في مجتمع الجنيزا. فمن ناحية كان متعمقًا في اليهودية من كل الجوانب «وكان نموذجًا للاستقامة المتعلمة» (1999:2:245). ومن ناحية أخرى، كان شديد الإعجاب بالمتصوفة المسلمين؛ وذهب إلى حد القول إن بعضهم كانوا أجدر بأن يكونوا من أتباع أنبياء

بني إسرائيل من كثير من يهود هذا اليوم (1999:2:278) وكان أيضًا مخلصًا للعلم مع مقاربة متحمسة للدين (1999:5:243).

وبينما كان انبهار إبراهام بالصوفية والتصوف، واستعداده لإعلان مثل هذا الإعلان المثير للغضب، يبعث على الاهتمام، فإن إيمانه العميق بالعلم، والمبدأ الذي ينادي به، هو الذي يهمنا أكثر من غيره في النهاية.

كان الأطباء في عالم البحر المتوسط في العصور الوسطى هم حملة المشاعل في مجال المعرفة العلمانية، وهم المدافعون المحترفون عن الفلسفة والعلم. وبينما كان المشرعون يدرسون الشرائع المقدسة لدياناتهم ويطبقونها، ومن ثم كانوا محدودين بالنظرة التي تحكم مهنتهم، كان الأطباء تلاميذ الإغريق، وباعتبارهم ورثة تراث عالمي شكلوا أخوة روحية علت فوق حواجز الدين واللغة والبلاد.

وربما لم يكن دافعهم النبيل باعتبارهم حملة العلم كافيًا لأن يضفي على مهنة الطب هالة المهابة الاجتماعية التي حظيت بها في الفترة التي يدرسها هذا الكتاب. لأن الهم الرئيس للرجل في تلك الأيام كان الدين، ومن ثم كان الامتياز في هذا المجال هو الذي يُشرف أكثر من غيره. بيد أن الطبيب كانت له ميزة أخرى. إذ كان كل طبيب متميز تقريبًا عضوًا أيضًا في حاشية خليفة أو سلطان أو وزير قائد أو والٍ. كان يشارك في مجد عظماء دنياه دون أن يكون متورطًا في جرائمهم وأساليبهم الكريهة في القهر.

لماذا كان حكام العصور الوسطى -والكثير منهم عسكريون ذوو تعليم عسكري ضئيل- يهتمون بجذب هذا العدد الكبير من الأطباء في بلاطهم؟ والإجابة هي أن أولئك الجنود الغلاظ لم يكونوا قادرين على الهروب من روح عصرهم. ففي تلك العصور كان الإيمان الهائل بالكتب، وبالكتب القديمة على وجه الخصوص، سائدًا، وكان الأطباء هم الذين يعرفون الكتب. وكلما زاد عدد الأطباء المحيطين زادت المعرفة المتاحة، وتحسنت آفاق استخدامها بشكل مفيد (1999:2:241).

«حتى أولئك الجنود الغلاظ لم يتمكنوا من الهروب من عصرهم...».

ومن الجدير بنا أن نتذكر -ونحن نختتم هذا الفصل- أن روح العصر كانت تضرب بجذورها في الثورة الإسلامية التي كانت قد جرت قبل عدة قرون. ويذهل المرء من التشابه بين ملاحظات جويتين المبنية على أساس استغراقه في وثائق الجنيزا وفخره الضمني بإسهام اليهودية، وملاحظات المؤرخ العربي ألبرت حوراني الذي يدرج كتابه المعنون History of the Arab Peoples ضمن قائمة الكتب التي توصي جمعية اليهود العرب من الفنانين والكتاب بقراءتها.

ويكتب حوراني، وهو يناقش الترجمة من الفلسفة اليونانية إلى العربية ويعلق على تأثير المؤثرات الإيرانية والهندية:

«وربما كانت الدوافع.. عملية جزئيًا؛ إذ كانت المهارة الطبية مطلوبة، كما كان يمكن للسيطرة على القوى الطبيعية أن تجلب القوة والنجاح. وعلى أي حال كان هناك أيضًا فضول عقلي وفكري أوسع نطاقًا، كما عبرت عنه كلمات الكندي (866-801) وهو مفكر يبدأ معه فعليًا تاريخ الفلسفة الإسلامية:

ولا يجب أن نخجل من الاعتراف بالحقيقة أيًا كان مصدرها، حتى لو جاءت إلينا من الأجيال السابقة ومن أقوام غرباء، فليس هناك أغلى من الحقيقة ذاتها لدى من ينشدها». (Hourani 1999:1:76-7).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الخامس:
« أرض بلا شعب..»

وفقًا لأسطورة صهيونية قوية، كانت فلسطين «أرضًا بلا شعب»، ومن هناك كانت مناسبة بصفة خاصة «لشعب بلا أرض»؛ لا سيما عندما استطاعوا أن يزعموا أنها «أرض أجدادهم». وسوف نناقش في الفصل التالي ما إذا كان اليهود «شعبًا بلا أرض» حقًّا.

وهذا الفصل حول الفلاحين الفلسطينيين الذين عاشوا على مدى القرون في هذه الأرض الخاوية. فهل يمكن أن يكون هذا صحيحًا؟ هل كان الصهاينة يكذبون ببساطة؟ هل كان الناس موجودين وغير موجودين في الوقت نفسه على نحو ما؟ هذا ما يقوله رئيس وزراء إسرائيل شمعون بيريز زعيم حزب العمل سنة 1986م.

«إن الأرض التي جاء إليها المستوطنون اليهود، وهي فعلًا الأرض المقدسة، كانت جرداء وغير جاذبة؛ أرضًا كانت قد تركت خرابًا مليئة بالمستنقعات والملاريا، تفتقر إلى الموارد الطبيعية. وفي الأرض نفسها عاش قوم آخرون، قوم أهملوا الأرض ولكنهم عاشوا عليها. والواقع أن العودة إلى صهيون كانت مصحوبة بعنف لا يتوقف في صدام مع السكان العرب القليلين...» (Said 1988:5).

حسنًا، نعم كان هناك أناس يعيشون هناك، قوم بلا اسم، وعددهم «صغير» وقد أهملوا الأرض على أي حال.

وفي الكونجرس الصهيوني الثاني، الذي عقد سنة 1898م، في مدينة بازل في سويسرا، سُمعت قصة أخرى مختلفة مؤداها أنه كان هناك 650 ألف عربي يعيشون على الأجزاء الأكثر خصوبة من «أرضنا» (Gilbert 1998:17).

والحقيقة، كانت هناك في السنوات الأخيرة بعض التقارير الأكثر أمانة كتبها عدد قليل من الذين يمثلون التيار الرئيس في الصهيونية. وواحد من أكثرهم إثارة للاهتمام هو نائب عمدة القدس السابق، ميرون بنفنستي، الذي يكشف كتابه Scred Landscape: The Buried History of the Holy Land Since 1948 2000). عن التلاعب الأيديولوجي الفظ الذي مارسه صانعو الخرائط الصهاينة، ودورهم في التعمية على قرى الفلاحين الفلسطينيين. فقد كان أبوه واحدًا منهم، وكان بنفنستي يصاحبه وهو صبي في مهمته لعمل الخرائط. وتستمر التجربة تلاحقه وقد صورها بشكل جيد في كتابه:

«أتذكر المرة الأولى التي شعرت فيها بمأساة الفلسطينيين تخترق درعي الصهيوني. فبعد حرب سنة 1948 بخمس سنوات، وأنا أقيس المياه الجوفية، ذهبت للتفتيش على بئر قرية رانا، بالقرب من بيت جبرين، وتذكرت المكان من رحلة قمت بها مع والدي، وقد صدمني الخراب: كانت المنازل الخاوية لا تزال شاخصة، شبح قرية كانت تنبض بالحياة من قبل. جلست وظهري مسند إلى حوض المياه القديم وتساءلت أين كان القرويون؟ وماذا كانت مشاعرهم؟».

وكان مقيضًا لبنفنستي أن يكتشف الإجابة بعد خمسة عشر عامًا بعد الاحتلال الإسرائيلي

للقدس سنة 1967. فقد زار معسكرًا للاجئين بالقرب من المدينة وقابل أحد الناجين من رانا:

«فجأة رأيت أمام عيني جغرافية طفولتي.. ولم أستطع مشاركتهم الإحساس بالخسارة، ولكن استطعت مشاركتهم الحنين العميق إلى موطنهم ممزوجًا بالألم من جراء خسارة الأرض والإحساس المزعج بالذنب، لأن انتصاري كان مصيبة عليهم».

وسأل نفسه السؤال النهائي الذي يجب على كل صهيوني أن يطرحه: «هل حولنا الصراع من أجل البقاء إلى عملية تطهير عرقي، بحيث نرسل الناس إلى المنفى لأننا نريد أن ننهب أرضهم؟» (Benvenisti 2000:3).

البحث عبثًا عن الفلاح الفلسطيني

لقد وضع بيريز كلمة «إهمال» بدلًا من كلمة «فراغ». وهما ليسا نفس الشيء، ولكن عادة يخدمان نفس الغرض في تبرير السلوك الصهيوني. كان الأمر يبدو كما لو أن الأرض كانت خاوية لأن العدد «الصغير» من الناس هناك قد «أهملوها» والصهيونية سوف تستعيد الشعب اليهودي مثلما استعادت الأرض. وقد لعب بن جوريون على موضوعات مماثلة. كانت الأرض «حبيسة» على مدى ألفي سنة وكان العرب «مخربين» (انظر الفصل الأول). ولكن على أي حال، فإن كلمة «يهمل» محفزة لمناقشة أوسع. إنها تقودنا إلى مفهوم أوروبا (ومفهوم الصهيونية كجزء من الأيديولوچية الأوروبية) عن الشرق الأوسط عند منعطف القرن العشرين، وهو مفهوم تم تلخيصه على نحو ألمعي في كلمة وكتاب على السواء: وهو كتاب الاستشراق لإدوارد سعيد -أي انبهار أوروبا- ب«المشرق»، والرغبة في السيطرة عليه، وهو الشرق الأوسط، والشرق الأقصى الذي أسبغت عليه الإثارة بصفة خاصة لأنه كان دائمًا ممزوجًا بتوابل الخطر.

إن «جوهر الاستشراق هو التمييز المتأصل بين التفوق الغربي والدونية الشرقية» (Said 1995:42).

وأحد مزاعم النزعة الاستشراقية الأشد تأثيرًا هو أن المجتمعات «الشرقية» حتى على الرغم من أنها تحتفظ ميراثًا ثقافيًا مدهشًا، لكنه قد صار جامدًا على مرِّ القرون، و«أهمل»، وغير قادر بصفة خاصة على التوافق مع نبضات التحديث الغربي.

ومعظم الشرق الأوسط، بما فيه فلسطين، منذ بواكير القرن السادس عشر حتى بداية القرن العشرين، كان جزءًا من بناء سياسي اقتصادي وديني، عرف باسم الدولة العثمانية. التي كانت تسيطر على هذا البناء من عاصمتها إسطنبول.

ويكاد مصطلح عثماني أن يكون مرادفًا للاستشراق. ومع كل هذا فإن الإمبراطورية العثمانية هي التي جاءت بالإسلام إلى داخل أراضي وسط أوروبا. ومن المؤكد أنها كانت «خطرًا»، و«تهديدًا» للحضارة المسيحية ولكنها كانت على الدوام مبهرة وكان المسرح في إنجلترا عصر النهضة مفتونًا بالحكايات من ميادين المعارك الأوروبية عن المعارك بين العثمانيين المسلمين والمسيحيين (Said 1995:61). وبعد ذلك بعدة قرون، كانت أوروبا تستمتع «بالتدهور» الواضح للعثمانيين (Said 1995:207)، وجاء فرسان على خيولهم البيضاء، بالمعنى الحرفي أحيانًا لإنقاذ الشعوب الخاضعة للإمبراطورية العثمانية. وهكذا منحنا الشطر الباكر من القرن العشرين الحكايات الرومانسية عن عميل المخابرات العسكرية البريطانية، لورانس العرب، الذي يقود في الواقع. وبطبيعة الحال، كان البريطانيون، وليس الصهاينة هم الذين «حرروا» فلسطين «الأرض

المقدسة» من العثمانيين.

وسرعان ما اكتشفت المقاومة القومية العربية ضد السيطرة البريطانية والفرنسية على أراضيهم الاسم السياسي المناسب للاستشراق الأوروبي: وهو الاستعمار والإمبريالية. ومع هذا فإن القوميين العرب كانوا يشاركون قاهريهم الجدد شيئًا ما، وهو الرغبة في التحدث. وبطبيعة الحال كان الفرق هو أن الزعامة العربية البازغة على المستوى السياسي كانت تريد أن تفرض السيطرة على عمليات التحديث وتشكل مصيرها الخاص، وهو أمر مفهوم.

وعلى أي حال، فعندما يتعلق الأمر بفهم تاريخهم الخاص، وهو أمر مهم لبناء حركة مقاومة شعبية، كان القوميون العرب أحيانًا يقعون دونما قصد في حبائل المفهوم الاستشراقي عن ماضيهم. وعداوتهم التي يمكن أن تفهم أسبابها تجاه قرون من الحكم العثماني، كانت تقنعهم أحيانًا بالاعتراف بالصورة الاستشراقية عن الإهمال والجمود، وبأن يروا أنفسهم، أو بالأحرى الأجيال التي سبقتهم باعتبارهم ضحايا سلبيين وقعوا في فخ التدهور العثماني (Poppe 1999:18)(47) . وهذا ما جعل من الممكن إضفاء مصداقية على مقولة «إهمال الأرض»، والتي يمكن أن تبدو مماثلة لمقولة «التدهور تحت الحكم العثماني».

ومن المؤكد، على الرغم من قرن من مقاومة الفلاحين الفلسطينيين للصهيونية، فإننا ما زلنا نعرف قدرًا أقل مما يجب عن تاريخ الفلاح الفلسطيني، الذي كان بالتأكيد فاعلًا قويًّا ومؤثرًا في مصالحه الخاصة بالمنطقة قبل وصول الصهاينة. وما زالت معلوماتنا أقل كثيرًا مما يجب عن كيفية نجاح الفلاحين في زراعة الأرض وكيف كانوا على استعداد للتعامل مع ضغوط التحديث. وعلى أي حال، فإن هذا كله بدأ يتغير في السنوات الأخيرة. وبدأ جيل جديد من المؤرخين الفلسطينيين في تناول المشكلة. وثمة إسهام متميز بشكل خاص يتمثل في كتاب بشارة دوماني بعنوان Rediscovering Palestine، والذي يمثل جوهر هذا الفصل. وجد هذا المؤرخ الفلسطيني البارز صوتًا يعبر عن الفلاحين الفلسطينيين في القرن التاسع عشر، وأتاح لهم أن يبرزوا بعد قرن من الإهانات التي وصمتهم ظلمًا بأنهم كانوا خارج التاريخ(48).

إعادة اكتشاف فلاحي فلسطين

العنوان الفرعي لكتاب دوماني هو «التجار والفلاحون في جبل نابلس 1700-1900م»، ومدينة نابلس القديمة، والمنطقة الخلفية لها ككتلة واحدة كانت تشكل وحدة منفصلة تُعرف باسم جبل نابلس على مدى عدة قرون. وكانت تشكل بنية تحتية قوية فيما سيصبح معروفًا باسم فلسطين الحديثة. ويجادل دوماني عن قناعة بأن تتبع تاريخ فلسطين في الفترة السابقة على المستوطنات الصهيونية من خلال جبل نابلس أمر أبعد تأثيرًا بكثير من محاولة رؤيتها من خلال عيون القدس، على الرغم من أننا سوف نحتاج إلى دراسة القدس في هذا الفصل فيما بعد:

«أثناء القرن الثامن عشر ومعظم القرن التاسع عشر، كانت مدينة نابلس المركز الرئيس للتجارة والصناعة في فلسطين. كما أنها كانت تعول عشرات من القرى الواقعة في وسط مناطق التلال التي كانت تمتد من الجليل إلى الخليل وكانت سكنًا لأكبر مجتمعات الفلاحين وأكثر استقرارًا منذ العصور القديمة» (Doumani 1995:1).

وبمعنًى أوسع، كانت هناك بحلول منتصف القرن التاسع عشر، نحو ثلاثمئة قرية تدير وجوهها

شطر نابلس، وهي مساحة معتبرة. وكانت هذه القرى تمتد بطول السهل الساحلي من حيفا إلى يافا في الغرب، إلى عجلون والبلقاء وراء نهر الأردن في الشرق، وكذلك محور يمتد من الشمال إلى الجنوب من الجليل إلى تلال الرملة والبيرة (Doumani 1995:30). وكان هذا يتضمن مرج ابن عامر (والذي يُعرف في إسرائيل بوادي إسرائيل).

«أكثر السهول خصوبة في فلسطين كلها، في المنطقة الخلفية لجنين التي اشتهرت بمحصولاتها الوفيرة من الحبوب، وكذلك بجودة التبغ الذي تزرعه والبطيخ والقطن. وكانت لهذا الوادي الفسيح أيضًا أهمية استراتيجية: فقد كان يشكل أوسع ممر يربط الساحل بالداخل ويتفرع عنه واحد من طرق التجارة الرئيسة إلى دمشق. وعلى ترابه جرت معارك شهيرة عديدة، منذ عصر الفراعنة إلى صلاح الدين وضربته الحاسمة التي أنزلها بالجيوش الصليبية» (Doumani 1995:31).

وفي القرن التاسع عشر صار السهل، وبلدة السوف القديمة به وهي الناصرة، بؤرة الصراع المسلح بين العشائر الحاكمة من جبل نابلس والجليل (Doumani 1995:31, 41-2) وفي القرن التاسع عشر، صارت متمركزة بأيدي كبار ملاك الأراضي الذين كانوا ينتجون كميات كثيرة من الغلال للسوق العالمية. وسوف نتناول بالتفصيل في هذا الفصل الضغوط على صغار الملاك من الفلاحين لكي يسمحوا بحدوث هذه العملية. وقد برهنت إحدى عمليات شراء الأراضي الكبيرة بوجه خاص في هذا السهل، والتي قامت بها عائلة تجارية مسيحية لبنانية من أصول يونانية هي عائلة سورسوق، على أنها كارثة لا ترد على جميع الطبقات الاجتماعية في فلسطين، لأنه فيما بعد، تمت إعادة بيع الأرض إلى المستوطنين الصهاينة (Doumani 1995: 270n.54).

وفكرة أن المدينة تحقق استقرار القرى، «الجبل» في جبل نابلس، تساعدنا على فهم مجتمع قوي، مستمر، وقائم على أساس إقليمي مكون من التجار والفلاحين ويتغذى على القدرة الإنتاجية للأرض. وقد تحول أيضًا ليكون قاعدة انطلاق ناجحة في قيادة الاستجابة للتحديات لسوق المنتجات الزراعية للفلاحين والتي فرضها تدخل الغرب الأوروبي.

وقد أدى توقيع معاهدة 1838م للتجارة الحرة بين إنجلترا وتركيا، والتي أعقبتها «التنظيمات»، وهي برنامج الإصلاح السياسي والإداري والمالي للإمبراطورية العثمانية، إلى تسارع تأثير الضغوط الأوروبية الغربية Doumani 1995: 106). بيد أن الفلاحين الفلسطينيين برهنوا على أنهم لا يخشون شيئًا من التجارة الحرة.

«في الربع الثالث من القرن التاسع عشر، تولدت فوائض زراعية كبيرة حيث كانت المنتجات الفلسطينية من القمح، والشعير، والسمسم وزيت الزيتون والصابون والقطن تباع في السوق العالمية. وعند هذه المرحلة زادت الصادرات عن الواردات من البضائع الأوروبية المصنعة آليًّا». (Doumani 1995:4).

وقد استولت القدرة الإنتاجية لجبل نابلس، وكذلك جماله المذهل، على خيال زوار المنطقة من الرحالة المسلمين في العصور الوسطى، إلى الشباب الإنجليز الباحثين عن المغامرة في القرن التاسع عشر.

«كانت تقع بين جبلين شديدي الانحدار في وادٍ ضيق ولكنه غزير النبات ويحيط بها حزام

عريض من الغابات الصغيرة، ومزارع الكروم، وبساتين الفاكهة، وعدد من أشجار النخيل المتناثرة. هذه هي مدينة نابلس القديمة التي طالما وصفت بأنها تشبه «قصرًا في حديقة» على حد تعبير شمس الدين الأنصاري في القرن الرابع عشر.

والسر هو الماء، السبب الأساسي في أن نابلس كانت قادرة على أن تعول عددًا كبيرًا من السكان ونطاقًا واسعًا من مؤسسات الصناعة. فقد تم حفر قنوات لحمل مياه عيونها الاثنتين والعشرين المتدفقة لكي تصب في الفسقيات العامة بالمدينة، وأفنية المساجد، والحدائق، ومعامل دباغة الجلود، ومعامل الصباغة والفخار، وكذلك البيوت الخاصة للأثرياء. كذلك كانت المياه تحمل إلى الوادي الذي يمتد طوله 1220 مترًا لتسير في قنوات مائية تجاه الغرب.

كانت تغذي قنوات الري وتدير الأحجار المستديرة الضخمة لمطاحن الغلال. وفي حرارة الصيف كانت المياه المتبخرة تشكل غلالة زرقاء رقيقة من الضباب تغلف المدينة وتزيد من سحرها.

ولا يمكن المبالغة في جمالها.. وعناقيد البيوت ذات الأسقف البيضاء المستكينة في أحضان كتل من الأشجار، والزيتون، والنخيل والبرتقال، والمشمش، وكثير غيرها مما يضفي تنوعًا على سجادة المشهد بكل ظلال اللون الأخضر.. وكل شيء طازج وأخضر، وناعم ويجسد صورة، مع الخضرة والظلال والماء في كل مكان.. وثمة ضباب أزرق رقيق منبثق من العيون ومنافذ البخار».

هذا ما كتبه تريسترام (H.B.Trisram, London 1881-2). وعبارة «دمشق الصغيرة»، التي يستخدمها سكان نابلس باستمرار لوصف مدينتهم، تلخص المشهد، والإحساس وجوهر المدينة (Doumani 1995:22).

ويوافق المبجل چون ميلز على هذه العبارات العاطفية المتوهجة: «والسكان فخورون بها للغاية، ويظنون أنه لا يوجد مكان في العالم يضاهيها» (Doumain 1995:21) كان ميلز في مهمة خاصة في نابلس. فقد أتى إليها للبحث في أمر جماعة صغيرة من السامرة، هم بالفعل الوحيدون ممن بقي من الناس الذين يزعمون أنهم ينحدرون من نسل السامرة الذين تحدث عنهم الكتاب المقدس. وأحد الجبال المنحدرة التي تطل على نابلس والذي يسميه الكتاب المقدس جبل شيكيم (Benvenisti 2000:13)، هو جبل جرزيم، المركز الروحى للسامرة. ويبدو أن السامرة قد بقوا جزءًا من جماعة نابلس على مدى ما يزيد على 2000 سنة. وفي القرن التاسع عشر كان لهم الحي الخاص بهم هناك. وكانت قلة منهم تعمل كتبة أو محاسبين في الحكومة، وكان منهم واحد أو اثنان من التجار الأثرياء، ولكن معظمهم كانوا فقراء نسبيًّا من تجار التجزئة أو من الحرفيين (Deumani 1995:23).

كانت هناك أيضًا جماعة مسيحية صغيرة، وكذلك وُجدت جماعة يهودية صغيرة العدد في نابلس فيما مضى، وهو ما يدل عليه ذلك الطريق الصغير الذي اتخذ شكل الدرج قرب السوق المركزية، وكان يسمى «درج اليهود» (Dumanti 1995: 267n. 22).

ألم يتم تبرير ذلك القدر القليل من التساهل الاستشراقي هنا، وإن كان معكوسًا؟ لأن من المؤكد أن هناك سخرية في أن قلب فلسطين أواخر العصور الوسطى وبواكير العصور الحديثة كان في نابلس، في ظل الجبل السامري العظيم، الذي كان منذ ألفي سنة مضت المركز الروحى

«للإسرائيليين» المثقفين، الذين نفاهم الأحبار اليهود في القدس (انظر الفصلين الأول والثاني). وهنا ثمة اتساق شعري، إن لم يكن تاريخيًّا، على الأقل. وكما كان مناسبًا أن يعتبر السامريون الموجودون في نابلس الآن أنفسهم فلسطينيين وليسوا إسرائيليين(49).

المقاومة المسلحة من جبل النار

كان لجبل نابلس، ولا يزال، اسم آخر هو «جبل النار». وهو اسم يشهد على ولاء إقليمي حار وعلى حماسة السكان المحليين واستعدادهم لحمل السلاح لحماية أسلوب حياتهم.

في سنة 1798م جاء نابوليون بونابرت إلى القاهرة، وقصد غزو فلسطين. وكتب الشيخ يوسف جرار، «متسلم» ناحية جنين قصيدة يحض فيها زملاءه من زعماء جبل نابلس على الاتحاد تحت راية واحدة ضد القوات الفرنسية. وعلى الرغم من أن الشيخ جرار كان يطيع الأوامر الصادرة إليه من أعلى، فإن التزاماته الحقيقية كانت محلية حسبما عبَّر عنه في دعوته للبيوت والعائلات في الحضر والعشائر في الريف.

يا بيت طوقان سلّوا سيوفكم(50)

وامتطو خيولكم الغالية

يا بيت غر، أيتها النمور القوية، قووا صفوفكم الباسلة

عبئ رجالك؛ يا محمد عثمان

واجلب الخيل من كل النواحي

وأنت يا أحمد القاسم؛ أيها الأسد الجسور

تصدر الصفوف المتقدمة.

«ولم يحدث مرة واحدة أن ذكرت القصيدة في أبياتها الواحد والعشرين الحكم العثماني، مما يدل على أنه لم تكن هناك الحاجة إلى حماية الإمبراطورية أو المجد.. في خدمة السلطان هي الدافع» (Dumani 1995: 17). لقد كان الشيخ جرار ابنًا لإحدى تلك العائلات المحلية الحاكمة. وكان على العثمانيين أن يعتمدوا عليهم للحفاظ على حكمهم، ولكن هذا كان يعني أيضًا أن التوترات مع هياكل السلطة الأعلى في الإمبراطورية لم تكن أبدًا بعيدة عن السطح. وتكشف القصيدة عن افتراض أن العائلات الحاكمة كان بوسعها تعبئة الميليشيات المسلحة من الفلاحين المحليين. وعلى الرغم من أن هذه الروابط سترتهل بمرور الزمن، فإن تقاليد الفلاحين في الدفاع المسلح عن مناطقهم سوف تتعمق، بما يحمله ذلك من مضامين خطيرة بالنسبة للقوى الحاكمة في القرن العشرين: أي بريطانيا وإسرائيل.

ولقد لعب جبل النار دورًا رئيسًا سنة 1834م ضد القوات المصرية الغازية.

وفي ثورة 1936-1939م ضد الحكم البريطاني.

وفي الانتفاضة الفلسطينية ضد الاحتلال الإسرائيلي والتي تفجرت في سنة 1987م (Doumani 1995: 22).

نقل المحصول إلى السوق: الفلاحون والتجار

كانت نابلس، مدينة، بيد أنها كانت مدينة فلاحين:

«إذ كانت إيقاعات الحياة فيها تعكس التقويم لجماعة الفلاحين. فالحركة الناشطة المزدحمة لأطنان الزيت التي توضع في الآبار تحت الأرض في المباني الضخمة لمصانع الصابون بعد جني محصول الزيتون في الخريف، مثلًا، لم يكن يفوقها سوى جمع القطن الخام الذي كان يصل إلى المدينة لكي يتم حلجه وغزله في الصيف. لم يكن ثمة خط حاد يفصل بين المدينة والريف. فقد كانت نابلس تشبه بطريقة ما قرية كبيرة جدًّا. فعند شروق الشمس، كان كثير من النابلسيين يعبرون بوابات المدينة لكي يعملوا في مزارع الزيتون والكروم والبساتين التي كانت تغطي المنحدرات التي تشبه الشرفات، وكذلك في الحقول، ومزارع الخضروات، وطواحين الغلال التي كانت متناثرة خلال الوادي. وفي اتجاه معاكس، كان فيض من الفلاحين يصبُّون في المدينة لكي يبيعوا بضائعهم ولكي يبحثوا عن ملابس الزفاف، وأدوات العمل، وأواني الطبخ، والأرز، والقهوة والعديد من الأشياء الأخرى... وكان كثير منهم يبقون بالمدينة أيامًا قليلة. لكي يصيروا أكثر اعتيادًا على... مئات الدكاكين.. والأسواق المغطاة لتجارة المنسوجات.. والجوامع المركزية الخمسة.. والحصون الكبيرة التي تشبه إلى حد كبير المجمعات للأسرات الحضرية الحاكمة، آل نمر، وآل طوقان، وآل عبد الهادي». (Doumain 1995: 26-7).

وفي الأراضي التي تشكل ظهير نابلس كان الفلاحون قد تعلموا على مدى آلاف السنين أن يستفيدوا من كل ملمح طبوغرافي في الأرض. فقد كانت الحقول تزرع بالغلال والخضروات، وكانت التلال تمهد على شكل مصاطب وتزرع الأشجار، أما الأرض الصخرية الأكثر ارتفاعًا فكانت تستخدم للرعي. وحتى العقود الأخيرة من الحكم العثماني، كان معظم الفلاحين من صغار الملاك، على الرغم من أن حقوقهم القانونية في الأرض بقيت غير واضحة(51).

وقد عاش الفلاحون في مناطق التلال في جماعات قروية متقاربة كانت تختلف من حيث الحجم ما بين عشرات قليلة إلى مئات قليلة من السكان. وكانت معظم القرى تتكون من عشيرتين إلى أربع عشائر في المتوسط وبعض العائلات الممتدة. وكان أساس التضامن الجماعي هو تنظيم المجتمع الفلاحي في عشائر (حمولة، حمولات): وهي جماعات سلالية يعتقد أنها تنحدر من جد مشترك. وكان نظام العشيرة (الحمولة) يوفر شبكة أمان كانت تساند العائلات المفردة في أوقات الشدة، وكان مناسبًا تمامًا لتقلبات الأطوار في أقاليم التلال ذات التربة الخفيفة والتي تعتمد الزراعة فيها على ماء المطر (Doumani 1995:26,28). وكانت قوانين السلوك تحسم بنظام متعمق الجذور من الممارسات العرفية، كانت تحدد الحقوق والمسؤوليات. ولأنها كانت انعكاسًا لجذور بدوية، فإن هذه الأعراف اختلفت كثيرًا عن الشريعة الإسلامية التي كانت هي السائدة في المراكز الحضرية. وبعبارة أخرى، فإنه حتى مع حلول القرن التاسع عشر، كان هناك قدر كبير من الاستقلال الذاتي لدى الفلاحين في الأمور القانونية والأخلاقية والشخصية والمالية القائمة على أساس عشائري.

ومع هذا، مهما كان فخرهم باستقلالهم، فإن الفلاحين وعشائرهم كانوا بحاجة إلى تجار الحضر لكي يطرحوا منتجاتهم فيما وراء الأسواق المحلية. وقد أوضح الفصل الرابع الممارسة القديمة التي استمرت على مر القرون للأنشطة التي يقوم بها التجار العرب في جميع أنحاء عالم البحر المتوسط. وفي القرن التاسع عشر ظهرت سوق جديدة تتوسع بسرعة في أوروبا. فقد كان لدى التجار المعرفة التي يحتاج إليها الفلاحون وبطبيعة الحال كان لدى الفلاحين المنتجات التي كان التجار يطلبونها. وكانت العلاقات بين التجار والفلاحين مرعية بعناية. وكان على التجار بناء

الثقة، وهنا كانت القيم الدينية مهمة. كانت شبكات العمل هذه غير رسمية، إذ لم تصدق عليها الدولة العثمانية، وغالبًا ما كان التجار يقدمون القروض الائتمانية. وقد كان «الشرف» بوصفه قيمة إسلامية، هو الذي يتعزز، وكان يمكن بناؤه في المواقف تجاه عدم الوفاء بالديون. فقد كان يمكن لكل من الجانبين أن يناور حول الدين، وغالبًا ما كان يحدث هذا. ولكن التاجر لم يكن يستطيع أن يتحمل مغبة السقوط إلى درجة الخزي مع عشرية ريفية كان قد أمضى معها سنوات هو وعائلته، ربما كانت أجيالًا، وهو يبني علاقات طيبة. ويوضح دوماني هذا بمناقشته عن زيجات الفلاحين.

كانت الزيجات، ولا تزال مهمة بشكل لا يصدق في حياة الفلاحين بالقرى. وشراء ثوب الزفاف وغيره من الهدايا كان يمثل مناسبة لزيارة المدينة. ويبدو أن احتفال الزفاف كان يبدأ بالزيارة، حيث كان الفلاحون يصلون في صورة عظيمة: يغنون ويرقصون ويحملون الهدايا (Doumain 1995:84) وكانوا يمكثون عدة أيام في بيت التاجر الذي يعتزمون شراء معظم احتياجاتهم منه. وكانت مسألة مبدأ أخلاقي، كما كانت تشي بممارسة تجارية، لأن التاجر وعائلته كان عليهم إظهار دلائل الكرم والصداقة. وكان يمكن للائتمان أن يمتد بحسب توقيت الزواج وعلاقته بالمحصول.

وكان الطقس الذي يحيط بعملية جمع الديون راسخًا في الثقافة المحلية. وكانت المنازعات بشأن مستوى الدين شائعة؛ فقد كان جامع الديون، وهو غالبًا فلاح يعمل بأجر لحساب التاجر، يُرسل إلى الريف. وكانت نقطة شرف لجامع الديون أن يلقى معاملة محترمة. وكانت تقاليد الضيافة الفلاحية تعني أنه كان يستطيع أن يبقى في غرفة خاصة في مربع القرية ويتم تزويده بالطعام والشراب. ولم يكن هذا يمنع الفلاحين من ممارسة تكتيكات ماهرة في المراوغة. وبينما كانت للتاجر في النهاية قوة أكبر، كان الفلاح وعشيرته هم السادة المتنفذون في ممارسة الضغوط لإعادة جدولة الديون. وعلى أي حال، كان للحداثة أن تقلب هذا الميزان الحساس بين المدينة والريف.

«الزيتون هو الوثيقة المادية للتاريخ»

هكذا كتب مراقب بريطاني ثاقب البصيرة في منتصف القرن التاسع عشر (Douani 1995:178). وقد صارت شجرة الزيتون العتيقة تستخدم رمزيًا، ليس بصفتها رمزًا وطنيًا فحسب بالنسبة للفلسطينيين، تذكرهم بزمن لم يكونوا فيه لاجئين أو مضطهدين تحت الحكم الاستعماري، وإنما باعتبارهم فلاحين أحرارًا يعيشون على ثمار الأرض، ولكن أيضًا باعتبارها رمزًا ماليًا بالمعنى الحرفي للكلمة. هذه الثمرة النبيلة هي التي أدت إلى وصول الرأسمالية، والعلاقات فيما بين الطبقات الاجتماعية الحديثة، إلى داخل القرية الفلسطينية في القرن التاسع عشر(52).

وهنا مستخرج من خطاب كتبه محمد بك عبد الهادي، رئيس المجلس الاستشاري بنابلس إلى حاكم القدس سنة 1851م.

«لقد نقلت إلى المجلس أمركم الكريم متضمنًا التماس أهل قرية جابا... الذي يتهمون فيه شيوخ قريتهم بإجبارهم على توقيع للسندات عن هذه السنة بمقدار 1200 إناء من الزيت، وللسنة القادمة 1400 إناء...» (Doumani 1995: 146).

وقد أوضح عبد الهادي بك، في شرحه وتفسيره للسندات المستحقة للحكومة، أن تلك كانت

ممارسة معتادة بين أهل القرى.. أن يبيعوا محصولهم القادم من زيت الزيتون مقدمًا بأسعار منخفضة من خلال عقد (سلَم)(53) مقابل مبلغ الضرائب المستحقة على قريتهم (Doumani 1995: 147).

والآن يعرض دوماني المهارات الشرعية الماكرة في كسر هذه الوثائق غير العادية التي كانت تصل إلى المحاكم الإسلامية في فلسطين تحت الحكم العثماني. وهو أيضًا جعل من نفسه خبيرًا في استخدام عقود «السلَم» لإقراض الأموال في تغيير صفتها، وهو الأمر الذي كان يحكم العلاقات بين الفلاحين والتجار، وفي بعض الأحيان بين قرى الفلاحين بأسرها وسلطات جباية الضرائب في هذه الفترة.

كان عقد (السلَم) عبارة عن قرض نقدي لأحد الفلاحين يقدمه أحد التجار مقابل حقه في أخذ محصول ما، عادة ما كان محصول زيت الزيتون، بغض النظر عما يدره المحصول في المستقبل، والأحوال الجوية... إلخ. وكان يمكن أيضًا تأجيل دفع الضرائب أو يُعاد التفاوض بشأنها على نفس الأساس، حيث يتم ترتيب الأمر بشأن المبلغ الذي سيتم دفعه على هيئة كميات من زيت الزيتون في تاريخ لاحق. ومن الواضح، أن هذا النظام كان عرضة لسوء الاستغلال. إذ إن تجار الزيت المحليين الذين بدؤوا السيطرة على مجلس المدينة، كانوا يجمعون الضرائب أيضًا لصالح الدولة العثمانية، وربما كان الاتفاق يتضمن أيضًا رسوم فائدة خفية. وكان عدم الوفاء بالدين يمكن أن يؤدي بالفلاح إلى تسليم أرضه مرغمًا، أو حقوقه في الأرض، إلى أحد التجار. ويبدو أن التجارة «المستقبلية» في تبادل الأسهم العالمية في زمننا كانت لها سوابق مدهشة.

هذه المجادلات تمت بشكل كامل في الفصل الذي عقده دوماني تحت عنوان «الاقتصاد السياسي لزيت الزيتون»، وهو ما يصر على أنه أمر أساسي لفهم الاقتصاد الفلسطيني في تلك الفترة. وهو فصل ممتاز ويكاد يكون من الصعب أن نوفيه حقه هنا. ومع ذلك يجب أن نحاول تقديم الخطوط العريضة الأساسية لكي نوضح السرعة التي كان على الاقتصاد الفلسطيني الفلاحي أن يتوافق بها مع العالم المتغير بسرعة.

وبطبيعة الحال، فإن الالتماس المقدم من الفلاحين المربوطين بأغلال الديون ليس أمرًا جديدًا. إذ إننا نجد هذه العلاقات الاستغلالية على الأرض تضرب بجذورها العميقة في العصور التاريخية القديمة. بيد أن المثير هنا هو الطريقة التي صارت بها هذه العقود لإقراض الأموال، والصراعات التي كانت تتولد عنها، أدوات ووسائل للتحديث.

وإذا عدنا إلى خطاب الحاكم؛ فإن فكرة أن الفلاحين يستطيعون أن يقدموا التماسًا إلى الوالي كانت جديدة بحد ذاتها. فعلى مدى أجيال كان الفلاحون يتجاهلون محاكم المدن. إذ كانوا معتادين على حسم المنازعات من خلال قوة عشائرهم الريفية. والآن يتجاهلون عشائرهم، ويتجاوزون المجلس الأعلى في نابلس ورئيسه (تاجر الزيت) عبد الهادي الذي كان يعتمد على شيوخ القرية في جباية الضرائب، وذهبوا إلى القدس بحثًا عن العدالة.

كذلك أدى الاقتصاد الجديد إلى تقسيم العشائر. إذ إن التماسهم هاجم زعماء عشائرهم لأنهم خدعوهم، وهو ما يشي بتغيير أساسي جرى آنذاك. فقد كان زعماء العشائر -سواء عن وعي أم لا- يتوقعون تشكيل ما يسميه دوماني طبقة وسطى ريفية. وكانوا يحتذون خطى تجار المدن من حيث إنهم رأوا في عقود إقراض الأموال آلية لتكوين مبالغ للربح الشخصي وللاستثمار على

السواء. وفي الوقت نفسه كان فلاحو القرية مضطرين إلى تنظيم أنفسهم بشكل مستقل لحماية مصالحهم، بالالتماس السلمي أولًا، ثم يتبعه في حالة الضرورة، كما سنرى، أساليب أكثر عدوانية. كما أخرجت القرى أيضًا نفرًا من الناس سيكونون هم المتعهدون ممن لم يكونوا زعماء عشائر وبعبارة أخرى، فإن الاختلافات بين الطبقات الاجتماعية في عدة مستويات كانت تتبلور في الريف.

وقصة عبد الرحمن، وهو فلاح من نابلس من قرية «عقربة»، تستدعي الكثير من هذه الموضوعات. فقد وقَّع على عقد «سلَم» مع تاجر مسيحي من يافا سنة 1851م، والذي كان على صلة بالسوق الأوروبية المتوسعة في استيراد السمسم الفلسطيني. وكان المقاول الفلاح يسافر إلى يافا لعقد الصفقة مع التاجر، متجاوزًا الكبار في القرية وتجار نابلس أيضًا.

هذا التطور لم يكن فريدًا بأي حال، وهو يقوض الكثير من الدراسات التي تستمر في رؤية الفلاحين الفلسطينيين «أثناء الفترة العثمانية يعيشون في قرى منعزلة ولا يشتغلون سوى بالزراعة التي تقيم أودهم.. فقد كان كثير من الفلاحين الفلسطينيين متوافقين بشكل حاد مع متغيرات الطلب العالمي وتصرفوا وفقًا لها» (Doumani 1995:141). وثمة أمثلة أخرى تتضمن شركات أعمال أقامها الفلاحون، تتقاطع خطوطها خلال القرى، والعشائر، بل الخطوط الدينية، وتضع تسهيلات عقود «السلَم» في منح القروض أمام الفلاحين المحليين الآخرين (Doumani 1995:167).

والعقد الذي وقعه عبد الرحمن مثير بشكل خاص لأنه يحمل ملامح متناقضة. فقد احتوى على حافزين: فقد كان يغطي تكاليف النقل من القرية إلى ميناء على البحر المتوسط، كما تضمن ترتيبًا لاقتسام الربح: «كان من الممكن أن يؤدي عقد السلام» إلى تشجيع التجارة، ويساعده على مواجهة الحاجة إلى رأس المال المحلي، ويزيد الاستثمارات في الإنتاج الزراعي، ويحسن النمو الاقتصادي بل يفيد كلًّا من الطرفين (Doumani 1995:152).

ومن ناحية أخرى، فإن هذه العقود، بما فيها هذا العقد، كانت تحمل دائمًا إمكانية تدمير معيشة الفلاح لصالح التاجر في حالة عدم الوفاء بالدين. وهذا هو ما حدث بالضبط لعبد الرحمن، الذي أرغم على بيع أرضه للتاجر المسيحي عندما لم يستطع الوفاء بما يخصه من العقد (Doumani 1995: 163).

وهكذا سهلت العقود للرأسمالية بطريقة كلاسيكية. فقد كان بوسع التجار الحصول على المحاصيل للأسواق العالمية المتنامية مع مكافأة أنه في حالة عدم الوفاء بالدين يمكنهم السيطرة على الأراضي الزراعية داخل فلسطين. وكانت هناك أقلية من الفلاحين استطاعوا أن يلعبوا اللعبة أيضًا ولم يكونوا هم الخاسرين دومًا. لأنه من الواضح أن تجارة التصدير الجديدة قد جلبت ثروات طائلة لبعض القرى الفلسطينية، وهو ما يبدو أنه أزعج القنصل البريطاني في القدس. وفي سنة 1856م أرسل تقريرًا إلى لندن مؤداه أن القرويين كانوا يصدرون الغلال «ويقبضون بجشع على النقود في مقابل هذا». وبعد ذلك بسنتين، يبدو أن الأرباح كانت تساعد الفلاحين على شراء الأسلحة وتزيين نسائهم (Schotch 1982:12).

الصراع الطبقي

بمنتصف القرن التاسع عشر، كان تجار الزيت في نابلس قد راكموا ما يكفي من الأرباح من

الفلاحين، بما يتيح لهم القيام بتوسع كبير في مصانع الصابون القائمة على أساس زيت الزيتون بالمدينة. وقد صارت أنجح صناعة محلية في المنطقة، كما صارت صناعة لا تواجه أي منافسة أوروبية. ومن سوء الحظ أن المجال لا يسمح سوى بمناقشة مختصرة للغاية.

كانت للصابون النابلسي شهرة في كفة أرجاء عالم البحر المتوسط، وهي شهرة ترجع إلى القرن الرابع عشر، وعلى مدى عدة عقود في القرن العشرين، سوف يكتشف الفلسطينيون، كما حدث بالنسبة لبرتقال يافا، طريقة جديدة ستجعل شهرة هذا المنتج مدوية في عالم أوسع، وذلك عندما قام رجال الأعمال اليهود بتسويق الصابون الذي صنعوه في مستوطناتهم على أنه في نفس جودة الصابون النابلسي (Doumani 1995:185).

ويضع دوماني ضمن كتابه أوصافًا بالرسم لمصانع بنابلس. وهي إحدى الخصائص المذهلة التي تقوض نمطية الاستشراق الكلاسيكي بتصوير البدو على أنهم قوم يعيشون في الصحراوات النائية ويمارسون السلب والنهب. فإلى جانب الفلاحين الذين يسلمون زيت الزيتون إلى الآبار الكبيرة تحت الأرض في المصانع، برهن البدو على أنهم «عامل حيوي في الإنتاج». فقد كانوا يجمعون سنويًّا نبات الحرض، ثم يحرقونه ويحملون منه على الجمال ثلاثة آلاف حمل من رماده الذي يسمى «القلو» إلى نابلس. وفي المقابل كانوا يحصلون على النقود والأرز، والتبغ والسكر والصابون والبُن (Doumani 1995: 204).

وقد نشبت صراعات مريرة للسيطرة على مصانع الصابون عندما حلَّ تجار الزيت -الذين كونوا ثرواتهم حديثًا من جراء عقود السلام- محل العائلات الحاكمة القديمة. وفي الوقت نفسه، أصر الموظفون العثمانيون على فرض نظام ضريبي أشد وطأة. وقد تمرد أصحاب مصانع الصابون. إذ استخدموا قاعدتهم المتمثلة في مجلس مدينة نابلس الذي كانوا يسيطرون عليه، ونظموا إضرابًا ضد الضريبة سنة 1853م. وكان أكثر ما يثير اعتراض هؤلاء التجار هو محاولة الحكومة العثمانية أن.. تقتطع من أساسهم المادي دون أن تقدم أي حماية حقيقية ضد الهيمنة الأوروبية (Doumani 1995:231). لقد كانت هناك برجوازية فلسطينية جنينية تستعرض عضلاتها ضد التدخل الخارجي.

ولا نعرف ما إذا كان الفلاحون قد ساندوا الإضراب ضد الضريبة أم لا، لأنهم استاؤوا لدرجة عظيمة من أن تجار الزيت كانوا يثرون على حسابهم بواسطة عقود «السلَم». وقبل سنة من الإضراب الضريبي، كان على مجلس مدينة نابلس أن يشرح للسلطات العثمانية في القدس السبب في أنهم سجنوا بعض الناس في قرية عسيرة كانوا قد قصفوا مندوب أحد تجار الزيت بالأحجار وكسروا سيفه ومسدسه (Doumani 1995: 173).

ويمكن للمرء أن يقول إنه من الناحية السياسية. كان للتوتر المتصاعد بعض الخصائص التي تميز الصراع الطبقي (Doumani 1995: 180). وقد لخص الفلاحون من سكان قرية «تلوظه» الأمر كله في أغنية ساخرة تقول:

«الله أكبر عندما يتجمع التجار (على أرض القرية).. وتعلو أصوات جامعي الديون، وينصت المرابون لأصوات الأغنام العائدة، ثم يقفزون مع أصحابهم من الشرطة، يبحثون عن ضحية يجزون صوفها..

الله أكبر عندما يحيي أهل القرية موسم زيت الزيتون المبارك والري. يذهبون إلى سوق المدينة

لشراء مؤونتهم. ولكن الدائن يطلب حقه، أو يتجدد الديْن بفائدة مضاعفة.. والروح الفقيرة عليها الخضوع والله أكبر.. الله أكبر...(54) (Doumani 1995:94).

أول عمدة للقدس

توضيح الهوية الفلسطينية

متى تبلورت فلسطين هوية وطنية في عقول الناس الذين عاشوا فيها؟ حتى الآن كنا مشغولين بمناقشة تحديث المجتمع الذي كان جزءًا من الإمبراطورية العثمانية. وفي النصف الأخير من القرن التاسع عشر، بدأ المفكرون الفلسطينيون الحضاريون من أصحاب العقلية المستقلة وذوي الخلفيات التقليدية، يظهرون في البناء السياسي والإداري للإمبراطورية. وفي هذا الخصوص ترشدنا المسيرة الوظيفية ليوسف ضياء (Doumani 1997:69-76).

وُلد يوسف ضياء سنة 1842م، وهو أحد خمسة أبناء لموظف محلي كبير بالمحكمة الشرعية الإسلامية في القدس، وكان من ذلك الجيل من العرب المأخوذين والملتهبين بنفس القدر بالتقدم الذي بدا غير قابل للتوقف لكل الأشياء الأوروبية. وكان الشيء الوحيد لمقاومة الأوروبي هو أن تفهمه أولًا حسبما استنتج يوسف في نهاية المطاف. وبدأ برنامجًا للتعليم الأوروبي، وتعلم اللغة الإنجليزية والفرنسية والألمانية. واستكمل تعليمه في إسطنبول، حيث لفت نظر رجال حركة الإصلاح التركية (تنظيمات)، وهم من رجال الدولة الذين شجعوا طموحاته السياسية. وكانت عملية إعادة التنظيم العثمانية تتضمن ترقية الحكم البلدي المحلي. وكان معنى هذا أن يوسف ضياء بمرور الوقت، كان قادرًا على السعي للتعيين في وظيفة أول عمدة لبيت المقدس. وفي هذا المنصب أظهر جدارته وقدراته الفذة على التحديث بالمساعدة في بدء بناء أول طريق للعربات من القدس إلى يافا، وكذلك تحسين إمدادات المياه في المدينة. وفي سنة 1877م، تم انتخابه في البرلمان العثماني.

ولم يكن هذا سوى ازدهار قصير العمر للديمقراطية في الإمبراطورية العثمانية وفي سنة 1م، أوقف السلطان البرلمان وفرض الحكم الفردي المباشر، ومع هذا كان يوسف قد ترك بصمته باعتباره رجل دولة ديمقراطيًّا ثوريًّا، ووصفه أحد الدبلوماسيين الأمريكيين باعتباره الخطيب الأول وأقدر مجادل بالبرلمان. وربطه دبلومسي آخر بصورة «جمهوري فرنسي». ولا شك في أنه كان مصدر إزعاج للسلطان. لقد كان يوسف ضمن عدة نواب عرب حرموا لفترة وجيزة من دخول إسطنبول واعتبروا «غاية في الخطورة».

ثم وضعته السلطات العثمانية تحت المراقبة الدقيقة، وبدأ يتخذ اتجاهًا أكاديميًّا، وصار أستاذًا للغة العربية في ڤيينا، ونشر الشعر العربي الجاهلي وكتب قاموسًا عربيًّا -كرديًّا- وكانت طموحاته السياسية في ذلك الحين قد أحبطت، ولكن من الواضح أنه كان قد أمسك تمامًا بما سيصبح الأجنده السياسية الفلسطينية في القرن العشرين.

فقد استعاض يوسف عن الحظر المفروض على أنشطته السياسية بالمراسلات الممتدة مع الشخصيات العامة، والعلماء من أوروبا والشرق الأوسط وفي سنة 1899م، ومن خلال الحاخام اليهودي الرئيس في فرنسا اتصل بتيودور هرتزل المنظر الرئيس للحركة الصهيونية، وحذر هرتزل من أن فلسطين «كثيفه السكان من غير اليهود ويقدسها 390 مليون مسيحي و300 مليون مسلم» وسأل: «بأي حق يطلب اليهود فلسطين لأنفسهم؟ إن الثروة لا يمكن أن تشتري

فلسطين التي لا يمكن الاستيلاء عليها سوى بقوة المدافع والسفن الحربية».

حرب الفلاحين على المستوطنين الصهاينة في فلسطين

لا بد أن يوسف ضياء، كان قد عرف أن اشتباكات الفلاحين مع المستوطنين الصهاينة قد بدأت بالفعل. ففي معركة بتاخ-تيفا، التي وقعت سنة 1886م، تدخلت القوات العثمانية وقبضت على الكثير من الفلاحين، بعد قتل مستوطن يهودي وجرح عدد آخر من المستوطنين في هجوم من القرية العربية المجاورة. وكان مثار غضب الفلاحين أنهم اعتبروا أن أرضهم قد بيعت للمستوطنين بعد أن كانوا قد سلموها للمرابين في يافا وللسلطات المحلية. وبالنسبة للفلسطينيين، فإن القرن العشرين بدأ في بتاخ-تيڤا (Khalidi 1997: 96-115).

ومن الأمور ذات الدلالة أن هرتزل لم يذكر أبدًا العرب ولو مرة واحدة في كتابه الأشهر «الدولة اليهودية»، كما لو كانوا غير موجودين. بيد أن كاتبًا يهوديًّا شهيرًا، «أحاد - هاعام»، اعترف بعد زيارة استمرت ثلاثة أشهر لفلسطين في سنة 1891م أنه كان (من الصعب أن تجد حقولًا غير مزروعة بأيدي الفلاحين العرب).. وأضاف أنه كانت هناك أرض ليست مملوكة لأحد، وهي الكثبان الرملية والجبال الصخرية، يمكن أن تستزرع بأشجار الفاكهة، ولكنها كانت بحاجة إلى العمل الشاق، والتنظيف والاستصلاح (Khanlidi 1997:96-115).

وهو ما يجيء بنا إلى قصة برتقال يافا الشهير. وقد زعم الصهاينة على مدى زمن طويل أن برتقال يافا برتقالهم، وأنه نتيجة لاستصلاح الأرض «وتحويل الصحراء إلى أرض خضراء»، ولكن الحقائق تحكي لنا قصة مختلفة.

لقد كان «العمل الشاق» الذي قام به العرب هو الذي حول التربة الرملية، وجهزها لزراعة الحمضيات في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. كذلك تم تجفيف أراضي البرك والمستنقعات. وكانت النتائج مذهلة وساعدت على تحويل بؤرة الاقتصاد بعيدًا عن جبل نابلس. وقد أدى استخدام الملاحة البخارية إلى وصول هذا المحصول التصديري -الذي كان سنة 1880م، ينمو في نحو خمسمئة حديقة موالح في منطقة يافا- إلى السوق العالمية. وأدى المزيد من التوسع أنه في سنة 1913م، كان يتم تصدير ما لا يقل عن 1.6 مليون صندوق برتقال من يافا، مما جعله أهم محصول تصديري في فلسطين.

وفي تلك الأثناء كان يحدث تطور مشؤوم في المستوطنات الصهيونية بمنطقة الجليل. ففي سنة م سمحت السلطات العثمانية للمستوطنين بتسليح أنفسهم والدفاع عن أنفسهم ضد الهجمات المتزايدة التي كان يشنها الفلاحون الذين جُردوا من أراضيهم. وتم تكوين منظمة يهودية سرية «بار جيورا» رفعت شعار «العمل العبري»، وأدت إلى ظهور منظمة شبه عسكرية «الهاشومير». وسوف ندرس المضامين السياسية العنصرية لشعار العمل العبري بمزيد من الدقة في الفصل التالي. وفي وقت لاحق في القرن العشرين. وبعد خلق دولة إسرائيل بعدة سنوات. أوضح الجنرال بيجال آلون في كتابه «صنع جيش إسرائيل The Making of Israel Army»، أن «الهاشومير» كان بمثابة السابقة التي احتذت بها القوات المسلحة الإسرائيلية.

وفي ذلك الحين كانت الاشتباكات بين الفلاحين والمستوطنين الصهاينة تصير أكثر تأثيرًا وعلانية وتم تسييسها بتدخل السياسيين العرب إلى جانب الفلاحين. وكان بيع أراضي قرية الفولة، في منتصف الطريق بين المناصرة وجنين في سهل مرج ابن عامر الشهير، إلى الصهاينة على يد نفس

العائلة التجارية اللبنانية، وهي عائلة سوروق التي ذكرناها من قبل، سببًا في وصول الأمور إلى ذروتها. فقد تم البيع هذه المرة إلى «الصندوق القومي اليهودي» (JNF)، والذي يرأسه آرثرروبين، صهيوني آخر كان يعرف جيدًا أنه لا يوجد مكان يمكن أن يكون «أرض بلا شعب». وقد اعترف فيما بعد بأنه لم يكن هناك أي أرض قابلة للزراعة غير مأهولة بالسكان. وأنه باتباع أسلوب شراء الأراضي من الملاك الغائبين «كان علينا أن نزيح الفلاحين الذين كانوا يزرعون الأرض».

كان الموظف الذي عينه العثمانيون للناصرة، «شكري العسلي» الذي كان ابنًا لإحدى العائلات الدمشقية البارزة، خطيبًا جماهيريًّا شهيرًا وصحفيًّا معروفًا. وقد رفض تسليم حجج الأرض إلى الملاك الجدد، على الرغم من التعليمات الصادرة له من السلطات العثمانية. وقد استفاد العسلي من مساحة الحرية الكبيرة التي أتاحتها في ذلك الحين فترة الإصلاحات الدستورية المتجددة وهاجم عملية البيع، والصهيونية بشكل عام، في صحيفة دمشقية تحت اسم مستعار هو «صلاح الدين». وتمت إعادة طباعة مقالاته في صحف بيروت وحيفا. وعندما أرسلت هاشومير ثلاثين مسلحًا لاحتلال الأرض، أمر العسلي القوات بطردهم. وعلى أي حال فإن رؤساءه سرعان ما أبطلوا أوامره، وتم فرض البيع بالقوة. ومع هذا تصاعدت الأمور بشكل درامي وكثرت غارات الفلاحين المسلوبين على أرضهم المسلوبة، وفي بعض الأحيان كانت هذه الهجمات دموية. وكان هناك مناخ سياسية آخذًا في التطور، فقد تم ترشيح العسلي ممثلًا عن دمشق في البرلمان العثماني الذي أعيد إحياؤه، وكان برنامجه «محاربة الصهيونية حتى آخر نقطة من الدماء». وفاز بالمقعد وأدى انتصاره بالنواب العرب الآخرين وبالصحافة العربية إلى الثناء على المقاومة الفلاحية ضد الصهيونية باعتبارها القضية الأثيرة لدى الشعب العربي.

وهكذا كانت هناك حركة تحرر سياسي من نمط جديد تتكون عندما استولى البريطانيون على فلسطين بعد الحرب العالمية الأولى. وكان من ثمار تلك الحركة أنها:

«وحدت الفلاحين الذين حاولوا في يأس أن يتشبثوا بأرضهم أو يردوا على المستوطنين الصهاينة بأسلوب عنيف إذا فقدوها... ومعهم المفكرون والأعيان في الحضر... وفي سنة 1935م، تحولت جنازة في حيفا لأول شهيد علني في حركة المقاومة المسلحة وهو الشيخ السوري عز الدين القسَّام، الذي عاش وعمل على مدى خمسة عشر عامًا بين الفلاحين المعدمين، وكان قد هاجر إلى المناطق العشوائية في حيفا، ومات في معركة ضد القوات البريطانية، تحولت إلى مظاهرة عامة ضخمة. وقد أدى هذا بدوره إلى إطلاق شرارة الإضراب العام سنة 1936م، وإلى اندلاع ثورة فلسطين العربية 1936-1939م. وعلى حد تعبير أفضل دراسة عن القسَّام.. لقد ألهبت وفاته حماسة الشعب الفلسطيني (Khalidi 1997: 114-15) لقد بلغ جبل النار سن الرشد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السادس:
«... لشعب بلا أرض»

بحلول سنة 1880م، كانت غالبية يهود العالم البالغ عددهم ثمانية ملايين تقريبًا تعيش في شرق أوروبا، للأسباب التي شرحناها في الفصل الثالث. وكان هناك نحو أربعة ملايين يعيشون في الأراضي التي حازتها الإمبراطورية القيصرية الروسية في غمرة توسعها غربًا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. هذه المنطقة التي امتدت من ليوتانيا في الشمال إلى البحر الأسود في الجنوب، ومن بولندا في الغرب إلى روسيا البيضاء، وأوكرانيا في الشرق، صارت معروفة بأنها نطاق الاستيطان.

أدت السياسات المعادية التي انتهجها القياصرة المتعاقبون إلى تركيز اليهود في هذه المنطقة. وحسب أسطورة صهيونية ذائعة ومنتشرة جدًّا، كان أولئك اليهود يشكلون «شعبًا بلا أرض».

استخدمت هذه الساحة بمثابة معمل تقطير شاسع لكل الاتجاهات الاجتماعية اليهودية البازغة ولكل الحركات السياسية اليهودية التي تحاول الظهور: الذوبان في المجتمع، والهجرات الجماعية باتجاه الغرب ولا سيما أمريكا، والمشاركة اليهودية الضخمة في الأحزاب الاشتراكية النامية بسرعة، ونمو الحركة الصهيونية. وثمة حدث يعلو على كل الأحداث الأخرى، يلوح في الأفق بحتمية كئيبة مرعبة، سيكون بمثابة خميرة تهيج كل هذه الاتجاهات والحركات، بيد أن ذلك سيكون في اتجاه مناقض: ذلك الحدث كان هو الثورة الروسية. فقد كانت الثورة الفرنسية التي وقعت سنة 1789م، قد رفعت وعدًا بالتحرير النهائي والدائم لليهود في أوروبا الغربية. كان اليهود أبعد من أن يكونوا شعبًا بلا أرض، وإذا كان للوعد أن يتحقق، فإنهم سيكونون أصحاب حقوق متساوية، ومواطنين شرعيين لهم حقوق متساوية في الأرض المستقرين عليها، والتي وُلدوا على ترابها. وبطبيعة الحال، كانت نزعة العداء لليهود لا تزال موجودة. ومع ذلك أحس أولئك اليهود بثقة جديدة وأمان جديد يضربان بجذورهما في الدستور الديمقراطي أو التشريع البرلماني. وعند نهاية القرن التاسع عشر، سوف تطرح الثورة الروسية نفس الوعد ليهود أوروبا الشرقية.

حقًّا، استغرق الأمر عدة عقود لكي تظهر أولى الموجات التي كانت متوقعة من جراء هذه الدراما التاريخية التي هزت العالم وتركت أثرها على منطقة الاستيطان. ومع هذا فإن التحديث والرأسمالية، وهما بمثابة محركات الثورة، على شكل حركة التصنيع، قد خلقا بداية بطيئة، ومعيبة في منطقة تمركز اليهود بأوروبا الشرقية. ذلك أن آلافًا من اليهود الريفيين الفقراء والحرفيين المعدمين، وأصحاب الحانات السابقين، والتجار الصغار، والباعة الجائلين، والفقراء الذين يتحدث عنهم الفولكلور الألماني اليهودي (اليبيديش، Deutscher 1968:62 Yiddish)، احتشدوا في البلدان والمدن. وكان معنى المهارات الحرفية لدى اليهود والتي تراكمت خلال القرون في تراث حرفي أن الحرفيين هم الذين تأقلموا بسهولة أكثر مع البيئة الحضرية. وناضل الباقون قدر طاقاتهم. بيد أن شيئًا واحدًا كان واضحًا: هو أن البنية التحتية الاقتصادية اليهودية في شرق أوروبا العصور الوسطى كانت تختفي بسرعة.

ويلتقط المؤرخ الصهيوني دافيد ڤيتال القصة (vital 1975: 3160). عند بداية القرن التاسع

عشر، لم تكن هناك أي جماعة يهودية يزيد عدد أفرادها على عشرة آلاف نسمة في نطاق الاستيطان. وبنهاية القرن، كانت هناك أربعون جماعة يهودية يبلغ عددها الإجمالي مليونًا ونصف المليون نسمة، أي ثلث عدد السكان اليهود.

وفي حد ذاتها لم تكن عملية الهجرة الداخلية هذه لتؤدي إلى جعل السكان راديكاليين يسعون وراء تغيير جذري. إذ إن هذه الجماعات المنكفئة على نفسها، المتماسكة، التي كانت لغة البيديش (هي لغة عرفتها الجماعات اليهودية بشرق أوروبا في العصور الوسطى، وهي مزيج من الألمانية وبعض المفردات العبرانية) هي اللغة الأم لـ 98٪ منها، قد تمكنت بشكل أو بآخر من إعادة بناء نفسها في البيئة الحضرية. ولكن القياصرة فرضوا سياسة واحدة محددة وكريهة «غاصت في أعماق الوعي الاجتماعي والسياسي بلهيبها»: وهي سياسة التجنيد الإجباري.

فقد كان على اليهود أن يقدموا عشرة شبان عن كل ألف من السكان اليهود للخدمة العسكرية في الإمبراطورية، مقارنة بسبعة عن كل ألف من السكان غير اليهود. وبالنسبة لليهود تم تخفيض السن من ثمانية عشر عامًا إلى اثني عشر عامًا. وكان المجندون الأطفال والمراهقون يوضعون في مؤسسات إعدادية خاصة للتدريب العسكري، حيث كانوا يخضعون لتعليم خاص كان يتضمن بالنسبة للشبان اليهود نظامًا يجبرهم على قبول الديانة المسيحية. وكانت لهذه السياسة عاقبة واحدة غير مقصودة على أي حال ذلك أنها جهزت أقلية من اليهود للنضال المسلح ضد النظام نفسه.

كان التجنيد الإجباري مكروهًا في جميع أرجاء الإمبراطورية «كان مثل الموت؛ كان التفكير في الجندي بالبيت يمزق قلب المرء بلا فائدة» على حد تعبير الروائي الروسي العظيم ليو تولستوي.

وقد أججت كراهية التجنيد الإجباري السخط العام على القياصرة. وفي كل أنحاء الإمبراطورية، وبالنسبة لكل الناس والقوميات والطبقات الاجتماعية، بعيدًا عن عناصر الأرستقراطية المستقرة تمامًا، امتزجت بإدراك للحرية التي تم تحقيقها في غرب أوروبا عقب الثورة الفرنسية. وعقدت آمال عظيمة على القيصر المصلح ألكسندر الثاني في ستينيات القرن التاسع عشر.

وبدأت مُثُل حركة عتق اليهود في أوروبا الغربية تستحوذ على خيال اليهود في شرق أوروبا. وقد كتب أديب صغير ولكنه يمثل يهود شرق أوروبا بدافع منها:

استيقظي يا إسرائيل ويهودا، انهضوا

انفضوا الغبار، وافتحوا عيونكم على اتساعها

إن العدل ينمو، والحق هنا

لقد نسيت خطيئتكم، وليس ثمة ما تخشون. (Vital 1975: 43)

ومن المثير أن هذا التعديل العلماني للنثر الوارد في الكتاب المقدس، والذي سرعان ما يصير علامة مميزة للدعاية الصهيونية، تم وضعه أولًا في خدمة حركة الاندماج في المجتمع على غرار ما جرى في غرب أوروبا. وقد تنبأ سير موسى مونتيفيوري زعيم اليهود البريطانيين -بثقة- بإصلاح ديمقراطي ناجح سوف يحرر اليهود في الإمبراطورية الروسية.

ولم يحدث هذا؛ إذ إن حماسة القيصر لإصلاح الإمبراطورية الروسية القائمة على ملكية الأرض في العصور الوسطى كانت بطيئة أكثر من اللازم، كما أنها لم تكن متسقة في نظر الحركة الديمقراطية الثورية البادئة في الظهور. وفي سنة 1881م، تم اغتيال القيصر ألكسندر.

كان الاغتيال نقطة تحول في روسيا من جميع النواحي. إذ كان رمزًا لوجهة نظر الطبقة المثقفة المتنامية في روسيا، والقائلة بأن الثورة هي الوسيلة الوحيدة لتحويل النظام القيصري. وقد أدرك الكُتاب العظام لتلك الفترة؛ تولستوي، وتشيكوف ودوستويفسكي حالة التوقع التي كانت تشكل تهديدًا وإثارة في آن معًا. وأحس الحكام القياصرة بأن اللعبة على وشك أن تبدأ وجهزوا الأرض لأكبر رد فعل وهو الثورة المضادة.

المذابح

كان عام 1881م أيضًا هو العام الذي تضافرت فيه كل الآثار الاجتماعية طويلة المدى مثل الحركة التي أسيء تدبيرها لتحرير الأقنان، والمجاعة والبطالة الزراعية والصناعية.. لتضخم من حجم «جيش الحفاة» من الفلاحين الذين ضربهم الفقر والبروليتاريا المعدمة لا سيما في جنوب روسيا.. وأراد النظام.. توجيه الطاقة المتفجرة في الجماهير الهائجة من الفلاحين المضطربين الفقراء بعيدًا عن نفسه.

وفي الوقت نفسه.. كان الخوف من الفلاحين بشكل متزايد مع اتجاه لرؤيتهم، باعتبارهم خلاصة الناس، والنظر إليهم بصورة عاطفية للغاية.. وهو ما كان أشبه بنظرة الثوريين الشعوبيين (Vital 1975:49-50).

كان الشعبويون الثوريون، «النارودنيك - Narodniks» هم أول من تحدوا الحكم الفردي. وكانت كوادرهم أساسًا من الطلاب، ومن ثم تبنوا استراتيجية تقوم على اغتيال الحكام مع منظور «الذهاب إلى الفلاحين» على أمل تعبئتهم من أجل الثورة. أما النظام الذي كان قائمًا على أساس العدو الرئيس للفلاحين، أي الأرستقراطية من ملاك الأراضي، فقد رأى أن هناك طريقة لتفكيك صفوف دعاة الثورة وإبعاد النار عن ملاك الأراضي، تمثلت في توجيه الغضب والطاقة ضد اليهود (كذلك كان الشعبويون الثوريون يرون في اليهود هدفًا مشروعًا لعداوة الفلاحين، ولكنهم سرعان ما غيروا موقفهم إلى موقف الإدانة من حيث المبدأ) (Frankel:120).

«كان اليهود متناسبين مع الدور بشكل يدعو إلى الإعجاب.. فقد كانوا مكروهين لا من الفلاحين وحدهم، والذين كانت علاقاتهم معهم في الغالب على أساس وظيفة اليهود في الاقتصاد عمومًا باعتبارهم تجارًا صغارًا، ووسطاء، وأصحاب حانات ووكلاء ضياع ومرابين، ولكنهم كانوا يحظون أيضًا بكراهية مقيتة من أصحاب المناصب في روسيا، أي رجال الإدارة والعسكريين، ورجال الكنيسة.. والقيصر نفسه» (Vital 1975:51).

هنا إذا كانت تلك الثقافة السياسية الفاسدة لنظام حكم القياصرة وهو يعاني سكرات الموت. وهي الثقافة التي أطلقت عنان العصابات المئة السوداء من الجزارين السفاحين على اليهود، والتي سوف تزور فيما بعد وثيقة، كانت مفضلة لدى هتلر، وهي «بروتوكلات حكماء صهيون»، وهي الفنتازيا القيصرية الخيالية التي زعمت أن هناك «مؤامرة» يهودية لحكم العالم.

وبنهاية سنة 1881م، تعرضت ما يزيد على مئتي جماعة يهودية للهجوم من جانب عصابات الفلاحين وصغار المجرمين، على حين كانت الشرطة والجيش يغمضان عيونهما عما يحدث.

وعمومًا جرت المذابح وفق نموذج مشترك. فقد سجلت جريدة Le Temps الباريسية مذبحة اتسمت بدموية خاصة حدثت في مدينة بالتا في جنوب روسيا أثناء عيد الفصح لليهود في أبريل سنة 1882م.

«بدأ الشغب بعد الظهر؛ واستعد السكان اليهود للدفاع عن أنفسهم، على حين كانت السلطات البلدية قد فرقتهم بالقوات التي ضربتهم بكعوب البنادق، وفي صباح اليوم التالي، عاود ستمئة فلاح من الريف المجاور الهجوم وواصلوه دونما أي عوائق. لقد كان مشهدًا من النهب، والحرق العمد، والقتل، والاغتصاب، مما يجعل المرء يرتجف من الرعب... فقد جرح 211 شخصًا وقتل تسعة، كما اغتصبت الفتيات.. وهدمت معظم المنازل». (Vital 1975: 52-3).

لقد كسرت المذابح مرة وإلى الأبد «نزعة الجمود والقدرية المتأصلة بعمق في اليهود» (Vital 1975:49). ذلك أن الذعر امتزج بالتصميم على إيجاد إجابات لكراهية اليهود الفتاكة على هذا النحو الخاص بجذورها المنظمة في دفاع الحكام الروس عن امتيازاتهم الإقطاعية. لقد كانت تلك في وقتها أزمة سياسية واضحة تتطلب حلولًا سياسة. ويرى ڤيتال (Vital 1975:65). بدء تكوين الحركة الصهيونية وأصولها في هذه الفترة والواقع أن بقية كتاباته مكرسة لبيان كيف أن الحركة الصهيونية تطورت آنذاك.

ومع هذا، فإن حمى الهجرة، بحثًا عن أرض يمكن أن يتحقق فيها خلاص اليهود في النهاية، لم تكن موجهة بالتأكيد صوب فلسطين، كان ڤيتال هو أول من اعترف بهذا. وبدلًا من ذلك كانت أمريكا التي اتخذت خاصية رمزية، توحي برحيل جديد، وحياة جديدة، وآفاق غير محدودة لم تفِدها على مدى سبعين سنة (Vital 1975: 61-2). وتتحدث إحصاءات الهجرة عن نفسها. ففي عام 1880م، كان هناك أقل من ربع مليون يهودي في أمريكا. وبعد ذلك بخمسين سنة وصل العدد إلى خمسة ملايين تقريبًا، نتيجة الهجرة من أوروبا الشرقية مع النمو الطبيعي للسكان (Eban 1984:260).

ولكن بطريقة ما حدث تطور أكثر أهمية بعد المذابح. ذلك أن معظم اليهود لم يهاجروا، أو لم يتمكنوا من الهجرة، واكتشف كثير منهم الآمال المتجددة لتحريرهم في الأرض التي ولدوا عليها في الحركة الثورية الصاعدة التي بدأت تكتسح الإمبراطورية الروسية طولًا وعرضًا. وظهر الاشتراكيون، ولا سيما العصبة الاشتراكية اليهودية، على سطح المشهد في أوروبا الشرقية. وإذ غطت هذه الجماعة اليهودية الاشتراكية على الصهيانة في جاذبيتها الجماهيرية حتى سنة 19م على الأقل كما يقول مندلسون (Mendelsohn 1970:6)، فإنها التزمت بحصة يهودية في أراضي الاستيطان. وكانت خصمًا عنيفًا لا يهادن لمشروعات الهجرة الصهيونية إلى فلسطين. ومن المحزن أن كتاب ڤيتال الذي يصل إلى نحو أربعمئة صفحة عن أصول الحركة الصهيونية لا يخصص سوى صفحتين لهذه الجماعة.

تحرير الذات

لقد غيرت سنة 1881م الطريقة التي كان اليهود آنذاك يرون بها التحرير. ففي الماضي، كان الاعتماد على الآخرين -السلطة الحكومية وزعماء اليهود القائمين- يُرى باعتباره الآلية المناسبة لحماية المصالح اليهودية. وقد غيرت سنة 1881م هذا كله. فقد صار اليهود العاديون آنذاك معنيين بشكل مباشر، ونشطاء، فيما يتعلق بمصالحهم:

«كان لا بد من النضال لكي تصبح الممارسات السياسية اليهودية مستقلة ذاتيًا». وكان أكثر الشعارات تأثيرًا قد برز من غمار الأزمة، والذي روج له وأعطاه شهرته پنسكر هو: تحرير الذات. إذ لم يعد الهدف هو التوافق مع البيئة وإنما خلق بيئة جديدة تمامًا... «ومفهوم التنظيم الجماهيري... هو الذي ساد». وسياسات «الأحزاب، القومية من ناحية، والاشتراكية من ناحية أخرى برزت باعتبارها وجهًا ثابتًا من الحياة اليهودية - الروسية» (55)(Frankel 1981:51).

وتعود جذور هذه الفكرة إلى انشغال الجماهير وتنظيمهم المطلوب للدفاع عن الجماعات اليهودية المحاصرة ضد مرتكبي المذابح. بيد أنها عكست أيضًا الطريقة التي كانت الحركة الثورية الروسية الأوسع قد بدأت آنذاك تتوغل في الجماعات اليهودية من خلالها. وبعيدًا تمامًا عن أن تحرير الذات كان شأنًا يهوديًا خالصًا، فإن تطوره كان مرتبطًا بعروة وثقى بالتوقعات المتزايدة بتحرير الذات في المجتمع الأوسع.

كان من يحمل الفكرة الثورية إلى الجماعات اليهودية الفقيرة هو الطالب اليهودي الروسي من أبناء الطبقة الوسطى المندمجة في المجتمع. وكان هذا تعديلًا واعيًا لمفهوم السعي إلى الناس الذي نادى به الناردونيك Narodinks.

أحد الطلاب، وهو الكاتب اليهودي، الذي عرف فيما بعد باسم «بن عامي» سجَّل التأثير الذي كان لهم على تجمعات المعابد في أوديسا:

«إن الفكرة المجردة هي وجود أشخاص متعلمين، كانت الجماهير تفخر بهم، ولكن أيضًا باعتبارهم بعيدين عن متناولهم، وكانوا يفكرون فيهم -هذا وحده رفع معنوياتهم من الحضيض، ورفع شعورهم بالكرامة الإنسانية، ففي كل مكان، فعلًا في كل مكان، كان الشباب يقابلون بالامتنان الشامل وحده- والأهم من هذا، بالثقة المطلقة والوعد بعمل أي شيء سوف يقترحه الشباب، وحتى هذا اليوم أرى أمامي صورة رجل جليل في نحو السبعين من عمره... وضع يده على رأسي ليباركني... ثم انفجر باكيًا» (Frankel 1981:84).

ولم يتخاذل هؤلاء الطلاب. فقد زودوا اللجان المشكلة حديثًا للدفاع عن النفس بالتدريبات والبنادق.

ومنذ ذلك الحين فصاعدًا لم يكن للمثقفين اليهود جمهور كبير من بين اليهود الفقراء فحسب، وإنما كان هذا الجمهور على استعداد للفعل استجابة للأفكار المطروحة عن التحرير. كذلك أفرز الشباب في الجماعات الفقيرة زعماء جددًا مستعدين لتحدي الأساليب القديمة. وعلى أي حال، لم تكن المذابح وحدها هي التي حفزت النشاط الجماهيري. إذ كان لعملية التمدن نفسها أثر درامي على الجماعات اليهودية. حيث غرست روحًا غير متوقعة من التمرد بين الجيل الجديد من العمال اليدويين اليهود في شرق أوروبا.

كانت هناك سخرية حقيقية هنا؛ إذ إن الدوائر السياسية في حركة التحرير اليهودية ربطت جذور معاداة الفلاحين لليهود بدور «الوسيط» الذي كان اليهود يلعبونه في اقتصاد العصور الوسطى. وهكذا فإن باڤل أكسيلورد، وهو زعيم سياسي يهودي سيلعب دورًا رئيسًا في الحزب السياسي الثوري الروسي «المينشيڤيك- Menshevike»، حدد علاقة بين المذابح المكثفة في المناطق التي كان يعمل بها عدد غير مناسب من اليهود في مهن لا إنتاجية. حتى صاحب الحانة الجائع، مثل والده، كان يعتبر مستغلًا للفلاحين، فقد لاحظ أكسيلورد أنه (مهما كانت حدة

الفقر الذي تعانيه الجماهير اليهودية.. تبقى الحقيقة التي تؤخذ برمتها... أن غير المنتج كان عبئًا على الطبقات الدنيا في روسيا) (Frankel1981:105). وقد كان أحد الحلول هو إقناع العناصر غير المنتجة بأن يصيروا عُمالًا يدويين. وقد تحول هذا إلى مثال شيوعي، والواقع أن بعض المهاجرين اليهود انطلقوا إلى أمريكا لكي يقيموا كومبينات زراعية (Frankel 1981:55). وكانت أصول استعمار فلسطين بهدف محدد هو إقامة مثل هذه الكومبينات «الكيبوتز» ترجع إلى هذه الفترة.

ولكن آلافًا من اليهود صاروا عُمالًا يدويين، بما فيهم أصحاب الحانات المعدمون فيما سبق، وحتى هؤلاء المعروفون بكونهم «قوائم الأسعار الماشية» غير المحبوبة عندما وجدوا أنفسهم بلا بضاعة يبيعونها، وليس بدافع الاختيار الفكري أو المثالية السياسية وإنما بسبب الضرورة والحاجة وحدها، قاموا بهذا التحول. فقد كانت تلك هي الطريقة الوحيدة لتجنب الموت جوعًا.

ولم يكن ذلك العمل اليدوي قادرًا على ضمان ما هو أكثر من سد الرمق إذ كانت فترات التوظيف القصيرة تعقبها فترات بطالة طويلة «يجب أن نعيش 52 أسبوعًا من عائد عمل عشرة أسابيع» هذا ما يردده الآلاف (mendelsohn 1970:13). وقد وصف العمال الروس الأحوال في المدن الجديدة في بيلا روسيا وليتوانيا عند نهاية القرن التاسع عشر:

«كانت الأغلبية تعيش في عتمة السراديب أو الأكواخ الحقيرة المتشابهة ذات الحوائط الرطبة والقاعات المبللة، وكانوا يحشرون سويًّا في جو قاهر مذهل.. عشرة أشخاص يعيشون في حجرة. وكان من الرفاهية أن تكون هناك حجرة لأسرة واحد من العمال». Mendelson 1970: 13-14).

هكذا كانت ظروف المناطق الحضرية في أوروبا الشرقية شنيعة. وفضلًا عن ذلك، كان الإبداع التكنولوجي بطيئًا بطريقة تبعث على الأسى، وكانت معظم أماكن العمل صغيرة لا تستخدم أكثر من خمسين شخصًا، وفي غالب الأحيان لم يكن عددهم يزيد على حفنة قليلة. وهكذا كانت «صناعة النسيج» تستأجر النساجين من أجل أنوالهم الخشبية العتيقة. ويعملون ما بين 16 إلى 1 ساعة يوميًّا في أماكن مزدحمة بلا تهوية وكان اليهود نادرًا ما يستخدمون في المصانع الآلية التي كانت أحوالها أفضل. كذلك استُخدم اليهود للعمل اليدوي في النجارة، وصناعة الأقفال، وصناعة الجوارب والملابس الداخلية والدباغة، ومصانع التبغ والكبريت (التي كانت تستخدم أعدادًا كبيرة من النساء والأطفال حتى سن السادسة)، وفي صناعة ألياف من الشعر، وهي صناعات لم يكن من شأنها أن تصير جوهر الاقتصاد الجديد والمجتمع الجديد في الإمبراطورية الروسية. ومع هذا، فإن هؤلاء العمال اليهود كان عليهم أن يقوموا بمحاولة بارزة للتحرر الاقتصادي والاجتماعي والسياسي. وقد برهنوا على استعدادهم للقيام بعمل جماعي ضد هذه الظروف الشنيعة، وساعدوا على نشر فكرة الإضراب الجماعي باعتباره سلاحًا سياسيًّا للتحرير، خارج نطاق صفوفهم(3).

حركة إضراب العمال اليهود

لماذا لم يكن اليهود يُستخدمون في المصانع المميكنة؟ لقد لعب العداء لليهود دورًا في هذا بطبيعة الحال، ولكن السبب الرئيس مدهش تمامًا:

«كان معظم أصحاب العمل (من اليهود وغير اليهود) يفضلون المسيحيين عن العمال اليهود؛ لأن المسيحيين كانوا محل ثقة أكثر. وحركة إضراب اليهود في أوروبا الشرقية... زرعت الرعب في قلوب أرباب العمل. ففي سمورجون شرح صاحب مصنع يهودي الأمر: «اليهود عمال جيدون ولكنهم قادرون على تنظيم حركات التمرد.. ضد صاحب العمل، وضد النظام، وضد القيصر نفسه..» وقد اتفق المراقبون الاشتراكيون وغير الاشتراكيين معًا على أن أرباب العمل في بياليستوك يخشون الإمكانية الثورية لدى العمال اليهود مما قادهم إلى تفضيل الاستقرار النسبي للقوة العاملة غير اليهودية (Mendelsohn 1970:22).

وكانت حركة إضراب العمال اليهود عبر شرق أوروبا، ولا سيما بيلا روسيا وليتوانيا، جديرة تمامًا بالشهرة التي تحققت لها:

«الحرفيون.. شكلوا الكوادر الأولى لتحريض العمال. وبالتدريج عندما تكاثرت الحركة وانتشرت، انجذب العمال الأكثر تخلفًا من مصانع السجائر والكبريت الكبيرة داخل موجة الاحتجاج (هنا المستوى الثقافي متدنٍّ للغاية؛ إذ كانت أغلبية العاملين في مصنع جروندنو الضخم من الأميين). وفي ڤيلنا حدث أول إضراب من عمال المصانع سنة 1895م، بعد ثلاث سنوات من بداية هجوم الحرفيين. وقد كان الإضراب الذي قام به عدة مئات من العمال في مصنع السجائر أكبر مؤسسة في ڤيلنا، علامة على مرحلة جديدة في تطور حركة عمال المدينة. لقد كانت في الحقيقة المرة الأولى التي يتم فيها تحدي رجل صناعة رئيس، وليس مالك حانوت صغير.. وفي بياليستوك تم تنظيم الفتيات العاملات في مصنع السجائر بواسطة محرض من ڤيلنا، وهو رجل محنك من حركة مينسك.

انتشر الإضراب من الحوانيت إلى المصانع، ومن المراكز الكبيرة إلى المدن الصغيرة وبصفة عامة كانت حركة العمال في الجماعات الصغيرة تندلع شرارتها بوصول العمال من المدن المجاورة.. ولأنهم كانوا أصحاب خبرة في أساليب التحريض.. وفي ديسنا المدينة التي تقع في إقليم ڤيلنا، طرحت فكرة صراع الطبقات من قبل عدد من عمال الغزل. وكانت حركة العمال في إهومين قد اندلعت بتحريض من محرض جاء من مينسك مجهزًا بحقيبة مليئة بالكتابات غير القانونية، وفي دروهيكزين اندلعت الإضرابات الأولى بعد أن عقد عدد من اتحاد بينسك اجتماعًا في المعبد اليهودي المحلي». (Mendelsohn).

لقد كان المحرضون على حركات الإضراب وقادتها جميعًا أعضاء في البوند، وهي العصبة التي امتدت بسرعة خلال تلك الفترة بحيث صارت حزبًا سياسيًّا ثوريًّا. والزعيم الصهيوني، حاييم وايزمان، الذي كتب سنة 1903م، سلم بقوتها قائلًا: «إن أقسى نضال خضناه في كل مكان ضد البوند... هذه الحركة تستهلك الكثير من الطاقة والبطولة... فالأولاد في حال من التمرد الصريح ضد آبائهم» (Finkel 1984:141). وقد كسبت حركة الإضراب للبوند مكانًا خاصًّا، بيد أنه مثير للجدل، إلى جانب الأحزاب الثورية الرئيسة التي كانت تتحدى الإمبراطورية الروسية، الثوريون الاشتراكيون والمينشڤيك والبلشڤيك، وكذلك الأحزاب القومية. وقد أنتجت حركة البوند عددًا كبيرًا من الكوادر الاشتراكية من أبناء الطبقة العاملة، الذين حمل الكثير منهم أفكارهم معهم إلى خارج البلاد عندما هاجروا، وكان لهم فيما بعد إسهامات مؤثرة في انتشار الحركات الاشتراكية في جميع أنحاء العالم الصناعي. وكانت حركة البوند تعتبر التعليم الاشتراكي مهمًّا بقدر التحريض على الإضرابات ذات المراحل لتحسين الأجور وظروف العمل. وقد سُئل عمال الغزل بمدينة ميزريخ، وهم إحدى أكثر المجموعات تشددًا، من جانب صاحب العمل

القلق عمّا سيفعلونه في وقت «فراغهم» بعد أن أجبروه على تخفيض ساعات العمل (إلى اثنتي عشرة ساعة يوميًّا). وقد أطلعوه على الكتابات الاشتراكية التي أصدرتها حركة البوند وأجابوا «هذه ثوراتنا، سوف ندرسها في وقت فراغنا» (Mendelson 1970:86).

هذه الملاحظة ليست على سبيل المزاح والسخرية، ولم يكن أصحاب العمل اليهود وحدهم الذين تكدروا منها. إذ كان الحاخامات قلقين بشكل متزايد بشأن المانفيستو الشيوعي الذي حل محل التوراة، وفي بعض الأحيان في الأماكن المستبعدة تمامًا.

«لقد تركت مئات عديدة من الشباب المدارس الدينية اليهودية، اليشيڤا، وانغمسوا في العالم العلماني البهيج. وقد انطوت هذه العملية على الابتعاد تمامًا عن الكثير من القيم الموروثة من عالم آبائهم، مثل تفضيل حياة الدراسة الدينية على غيرها... كانت حدة الشقاق والانفصال عن الماضي تتجلى بأكبر قدر من الحيوية عندما كان... طلاب اليشيڤا... يتحولون عن وعي من مقعد الدراسة إلى طاولة العمل، وهناك يتعرضون لرسالة التحرير الاجتماعي التي تروجها حركة البوند بكل عيونهم وقلوبهم وعقولهم». (Medem 1979:217n 1).

هذه الفقرة من مذكرات ڤلاديمير ميديم، وكان أحد زعماء حركة بوند في شرق أوروبا. ويشرح البروفيشور سام بورتنوي في تقديمه المذكرات نفسية العامل اليهودي الجديد «الذي خاض الصراع ضد نفسه وكسبها، صراع ضد سلبياته ومخاوفه»، وظهر آنذاك ثوري على استعداد لأن «يتنصل من نظام الخوف المؤسس» الذي كان يسود زعامة الجماعات اليهودية القديمة (Medem 1979:16).

وقد ترك لنا أحد أعضاء البوند، وهو آبي كاهان صورة حية عن الشاب ميديم نفسه، الذي كان من الثوريين الاشتراكيين اليهود، طالبًا أرستقراطيًّا روسيًّا شجاعًا من عائلة كانت قد اعتنقت المسيحية، وكان على استعداد دائم لمواجهة الموت بترحيله إلى سيبيريا، وتعلم اللغة اليديشية «بشكل جميل»، وهي لغة الفقراء اليهود، والتي كان اليهود الروس المندمجون يستبعدونها عادة على أنها «رطانة» غير مفهومة (Medem 1979: 33-36).

ونلحق بميديم في «البيرزها Birzha»، و«هو الشارع الذي كان في كل مدينة محددًا لاجتماع المحرضين مع الجموع». وكانت هذه الجموع المزدحمة توفر غطاء يحمي من مراقبة البوليس على حين تؤسس الروابط «بالاتصال الجديد بورشة أو أخرى». وكانت هذه الشوارع «البيرزهات» تغص بالمئات من الأشخاص كل ليلة، وكلهم من نمط العمال الشباب.. والوجوه المألوفة للناشطين.. والناس الجدد المتلذذين بالنشوة الناجمة عن المرحلة الأولى في تلقي التعاليم المدهشة الجديدة» (Medem 1979:159).

ويبين ميديم أيضًا الطريقة التي كانت الحركة الثورية تبدأ بها في قلب نزعة معاداة السامية رأسًا على عقب. إذ كان قد درس بجامعة مينسك. وهناك إذا ما صدمهم تدخل أحد المعادين للسامية المعزولين، أمسك الطلبة الثوريون بهذا الشخص وحاكموه على مدى يومين، أمام اجتماع شامل للجامعة بأسرها (Medem 1979:108).

ويصف حادثًا لافتًا للنظر في مدينة ريجا سنة 1905م عندما اندلعت الثورة في النهاية. وقد اعتمد مصيرها على عمال السكة الحديد هناك، ولم يكونوا من اليهود بالتأكيد؛ لأن مشاركتهم في الإضراب العام كانت حيوية تمامًا من الوجهة الاستراتيجية. وكانوا يصيحون بلفظ Zhid

(وهو سب خاص باليهود) ضد الخطباء حتى أولئك الذين لم يكونوا يهودًا من بينهم.. بيد أن «مكسيم» الخطيب الممثل للبوند «وهو شاحب رفيع هزيل، له ذقن قاتم اللون.. ليس من البروليتاريا المكدودة من غير اليهود» استطاع أن يكسبهم إلى جانبه (Medem 1979: 430n.6).

وبدا أن توقعات البوند على وشك أن تتحقق في ثورة 1905م. وباختصار ظهر وكأن المثل العليا للثورة الفرنسية سوف تحملها حركة عمالية اشتراكية متعددة الأعراق ومتعايشة دينيًّا، بحيث تحقق التحرير للجميع، على حين كانت إمبراطورية القيصر تترنح، حتى وإن كان الثمن تضحيات جسيمة.

«في الخامس من شهر يونيو وفي مدينة لودز (ثانية المدن الكبرى في بولندا) تم إطلاق النار على مظاهرة، شارك فيها مؤيدو البوند والأحزاب الاشتراكية البولندية، وبعدها بيومين سار في جنازة القتلى خمسون ألف شخص. وتمت الدعوة إلى إضراب عام... وفي تلك الليلة أقيمت المتاريس والحواجز في الحي اليهودي وفي غيره من المناطق في المدينة... وجرت معارك مريرة مع الخيالة طوال الليل وفي اليوم التالي.

ولقي المئات حتفهم، وكانت غالبيتهم من اليهود. وقد كتب مراسل الصحيفة الثورية الروسية «إسكرا»:

«إنني لا أملك سوى التأكيد على الاحترام العظيم الذي كان... لودز المسيحي يكنه لليهود. إذ إن المسلك البطولي لليهود في المصادمات مع البوليس والجيش قد أثار الإعجاب في كل مكان... وثمة أساطير تنتشر عن معركة الأمس بين اليهود والقوزاق، وهي أساطير تصف اليهود بأنهم من نوع شمشمون». (Frankel 1981: 147).

وقد لاحظت «ڤوسخود» الجريدة اليهودية -التي كانت تتسم عادة بالحذر والاعتدال- الاتجاه العام في كل مكان بقوله: «لم يحدث من قبل أن كان السكان المسيحيون في شرق أوروبا على هذا القدر من التضامن مع اليهود» (Frankel 1981:147).

لقد آتت استعدادات السنوات الطوال التي قامت بها البوند واليهود الذين تصرفوا باعتبارهم أعضاء من الأحزاب الاشتراكية الروسية والبولندية ثمارها. وكانت الثورة قد اندلعت:

«ولقد رأت فيها قطاعات كبيرة من اليهود جزءًا من النظام الطبيعي للأشياء: الانتقام من خمسة وعشرين عامًا من الإهانة. وتحويل اليهود إلى ضحايا. والدخول المستحق منذ زمن طويل لروسيا في أوروبا» (Frankel 1981:141).

هزيمة الثورة: النضال من أجل روح العمال اليهود

على أي حال، فشلت الثورة. واندلعت موجة جديدة من المذابح بدأت في أكتوبر 1905م لتضع الحركة جماهيريًّا في موقف الدفاع عن نفسها. وقد عبر ليون تروتسكي(4)، زعيم السوڤييت، أي المجلس الثوري للعمال في بطرسبرج، الذي كان يسيطر عليه عمال المعادن المتشددون عن أهميتها بوضوح بقوله:

«لقد تحولت مئة مدينة وبلدة روسية إلى جحيم. كان ثمة حجاب من الدخان يحجب الشمس. والتهمت النيران شوارع بكاملها بما فيها من المنازل والسكان. لقد كان ذلك انتقام النظام القديم

لما ناله من إذلال» (Trotsky 1972:131).

وغرق البوند في خضم الأزمة. فعلى يمينها كان زعماء الصهيونية من أمثال فلاديمير چابوتنسكى يؤذونها بسبب انشغالها الشديد بالعمال اليهود، ورفض أخذ مسألة الحاجة لتوحيد كل الطبقات الاجتماعية داخل الجماعة اليهودية مأخذ الجد، وبسبب رفض رؤية «الأمة اليهودية» (Frankel 1981:253). وعلى اليسار، جاء الطلب من العمال اليهود كافة لتوحيد البوند في حزب واحد مع البولشفيك والمينشفيك (56)(Frankel 1981:256).

كانت هذه مجادلة قديمة. وكانت من أكبر أسباب غضب لينين، لأنها كانت قد انشقت عن حزب ثوري موحد سنة 1903م، على أساس أن البوند وحدها هي التي تستطيع أن تمثل العمال اليهود ولا يجب أن يمثلهم غيرها. لقد طلبت البوند لليهود الاستقلال الذاتي الثقافي الوطني داخل سياق الثورة. ولكن ماذا كان يعني هذا في الحقيقة؟ لقد كان الاعتراف بلغة اليديييش أمرًا مسلمًا به بالفعل من جانب البلاشفة (وبقدر أكبر من تسليم الصهاينة بذلك). ولكن ماذا عن الاعتراف بوطن يهودي؟ كان هذا يجعل البوند «تصيب الصهاينة بالدوار»، على حد تعبير الثوري چيورچي بليخانوف (Frankel 1981: 225). كان رأي لينين أن العمال اليهود ربما كانوا على قدر من التقدم يمكنهم من التغلب على حدود الوعي القومي. وأشار إلى نيويورك، حيث كان المهاجرون من العمال اليهود منشغلين إلى درجة كبيرة في بناء اتحادات مهنية متعددة الأعراق وفي بناء الحركة الاشتراكية الأممية (Lenin 1972:20,27-33).

وفي سنة 1903م، أدت هذه المجادلة إلى انقسام حاد في مجلس البوند... فقد كانت القيادة في وضع حرج تمامًا لدرجة أنها حذفت المناقشة من المضبطة (Medem 1979:281).

وكان هناك عامل آخر لاحظه «الماركسي الصهيوني» بن بوروشوف. إذ لم يكن العمال اليهود قادرين على أن يقاتلوا وحدهم إلى الأبد. فمن ناحية، وفي ضوء عدد الإضرابات، أظهرت حركة الإضراب اليهودية في شرق أوروبا كثافة أعظم من أي مكان آخر في العالم. ومن ناحية أخرى، كانت إحصاءات الإضراب مضللة إلى درجة كبيرة. فقد وقع معظمها في أماكن عمل صغيرة، لدرجة أن إضراب ثلاثة حاكة في مينسك كان يُعد مساويًا لإضراب قام به ثلاثة آلاف من عمال الصلب في بيتسبرج (Mendelsohn 1970:85). وقد خلص بوروشوف إلى نتيجة مؤداها الهجرة إلى فلسطين. وكان على لينين أن يدمج حركة العمال اليهود في الحركة العمالية الأوسع وأن يجعل الحرب من أجل حقوق المساواة اليهودية، والعداء لكل أشكال معاداة السامية، جزءًا مندمجًا من البرنامج الثوري.

ومن المثير أنه حتى بن جوريون كان مجبرًا على الاعتراف بأن لينين والبلاشفة لم يكونوا قط يساومون في عزمهم على تدمير معاداة السامية. لقد كانت إدارة لينين وحدها هي القادرة على جمع القوة اللازمة للدفاع عن اليهود ضد أعدائهم، كما ذكر بن جوريون بعد ثورة 1917 (Tweveth 1987:232).

بعد سنة 1905م دارت المعركة بين البوند والصهاينة، وعلى حد تعبير أحد الكُتاب: «من أجل كسب قلب كل شاب وفتاة يهودية وعقلها في كل مدينة وفي كل قرية يهودية (شتيتل) (Frankel 1981:156).

وكان معيار قياس تأثير السياسات الماركسية، ومركزية العامل اليهودي كمقاتل ثوري، هو

الطريقة التي كانت بها الحركة الصهيونية نفسها مجبرة على أن تتواءم معها وكان بن جوريون شاهدًا فريدًا.

عندما اندلعت ثورة 1905م، كان بن جوريون يعيش في وارسو على بعد ستين كيلومترًا من مدينته بلونسك. ووفقًا لشابتاي تيڤيث، كاتب سيرته المتعاطف معه، كان بن جوريون يعتبر أولئك اليهود، الذين رآهم في طليعتها، يضيعون حياتهم في قضية لا أمل منها، إذ كان يرى أن «الخلاص اليهودي لن يوجد سوى في فلسطين... وربما تحرر الثورة روسيا وبولندا ولكنها لن تحرر اليهود» (Teveth 1978: 25-6).

بيد أن بن جوريون فهم تأثير الأفكار الماركسية على الخيال الراديكالي للشباب اليهودي. ففي وارسو صادف الحزب الصهيوني - الماركسي، وهو حزب «پوال زيون» الذي حاول تعديل الأفكار الماركسية لتلائم القضية الصهيونية. وشعر بن جوريون أنه مضطر إلى الانضمام إلى هذا الحزب حتى على الرغم من أنه لا يوافق على أفكاره (Teveth 1987:30). ولم يكن بوسع الصهاينة أن ينافسوا الأحزاب الثورية إلا باللعب حسب قواعد اللعبة لديهم، وكان حزب پوال صهيون هو أداتهم المختارة. ومر بن جوريون بتجربة شخصية عن معنى هذا. فبينما كان بوارسو، كانت البوند قد نظمت فرقًا دفاعية تحسبًا لهجوم ومذابح متوقعة في پلونسك وعلم بها بن جوريون وتأثر بها للغاية. وعاد بن جوريون إلى موطنه وقد عقد العزم على هزيمة البوند. ووصف تيڤيث لما حدث بعد ذلك كان يمكن تطبيقه على أي قرية يهودية، أو بلدة، أو مدينة بشرق أوروبا.

وتحدى بن جوريون وحزب «پوال زيون» البوند في مناقشة عامة في المعبد اليهودي الكبير بالمدينة. وأرسلت البوند خطيبًا بارزًا. وأغلقت الحوانيت بهذه المناسبة «وبدافع الاحترام للمعبد وضعوا مسدساتهم على الطاولات» (Teveth 1987:32).

ويؤكد لنا تيڤيث أن بن جوريون كسب بسهولة المناقشة، ولكن يبدو أن صحافة البوند اعتبرت هذا نوعًا من النصر فادح الثمن عندما قالوا إنه هدد بتوجيه بنادقه على أعضاء البوند. ومن المثير أيضًا أن بن جوريون شعر أنه مرغم على تدعيم قاعدته في البلدة بتنظيم النقابات (Teveth 1987:33).

الانعكاس المتصدع: تأثير 1905م على الحركة الصهيونية في فلسطين

تأثر جيل بن جوريون من الشباب الصهيوني في شرق أوروبا بتجربة ثورة 1905م إلى درجة عميقة. إذ إنها وفرت كادرًا خاصًا للغاية ليقوم ببعثة الحركة الصهيونية إلى فلسطين. بل إن هناك من يجادل بأنه لم يكن ممكنًا أن تقوم دولة يهودية:

«من دون تدخلهم في البيشوف... والجوهر الصلب داخل الشباب المهاجر، الذين ربما لم يزد عددهم على مئتين أو ثلاثمئة، كانوا مشحونين بدرجة استثنائية من الطاقة السياسية، وهي طاقة تستمد قوتها من التجربة الثورية الروسية، من ناحية، ومن مذهب الخلاص اليهودي من ناحية أخرى...

كانوا معادين للكهنة، وغالبًا من الملحدين، بيد أن رؤيتهم للعالم بقيت في غالب الأحوال مسيحانية، شكلتها «الهدير» (أي تعليم الشباب والميشيڤا) أي المدارس الدينية، وبالتربية الحيدية أو بارتباطهم العاطفي الدقيق بهرتزل، باعتباره البشير بالخلاص الذي طال انتظاره، في

نهاية الزمن...

أما أولئك الذين كان ارتباطهم بالصهيونية من بين الشباب المهاجر يضرب بجذوره في المفاهيم الاجتماعية - الثورية وحدها دون الخليط الإضافي بالأسطورة القومية، فإنهم نادرًا ما كانوا يمكثون في البلاد قدر بن جوريون الباقين بنسبة 10٪ فقط». (Frankel 1981:366-8).

وجرت محاولة لخلق أيديولوجية اشتراكية متماسكة من هذه الطريقة الغربية التي أعطت بها الثورة الروسية الطاقة لما يمكن أن نسميه الحنين الديني لدى أقلية من الشباب اليهودي، لتكون أساسًا لقومية يهودية في فلسطين. وعلى الرغم من أن العمال اليهود اعتبروا من قبل البوند بمثابة العنصر الاجتماعي لعملية التحول في الحياة القومية اليهودية، فإن هذه الحجة أُخذت بمعنًى مختلف تمام الاختلاف عندما وضعت على أرض الحقائق في العالم العربي. إذ إن الأفكار الاشتراكية كانت تستسلم باستمرار للقومية اليهودية الكامنة في بؤرة التركيز الأيديولوجي على العمال اليهود(57).

وفي مؤتمر حزب پاول زيون (الماركسي/ الصهيوني) الذي عقد في يافا سنة 1906م، عارض بن جوريون بشدة الأقلية الماركسية الأكثر تشددًا، والذين اعتقدوا بسذاجة أن على الاشتراكيين اليهود أن يساندوا ويساعدوا العمال العرب في تنظيم اتحادات مهنية، بدلًا من النضال من أجل العمال اليهود وحدهم.

وكان لا بد لهذه الحجة من أن توضع بسرعة موضع الامتحان القاسي أثناء الإضراب احتجاجًا على الأجور المتدنية من جانب عمال مزارع البرتقال العرب من قرية بتاخ-تيڤا. إذ حاولت نفس الأقلية الماركسية تنظيم حركة تضامن مع أولئك الذين اعتقدوا أنهم إخوانهم العرب في النضال. «وفي الحال قامت السلطات العثمانية والمستوطنون اليهود وزعماء العمال الصهاينة بإغلاق الصفوف أمام عمال مزارع البرتقال، وتم القبض على المضربين وتعذيبهم ولكنهم رفضوا أن يخونوا رفاقهم اليهود».

(58)(Weinstock 1979:87).

ومن وجهة نظر الصهيونية، لم تكن المشكلة مع العمال العرب في بتاخ-تيڤا أنهم قاموا بالإضراب فحسب، وإنما كانت المشكلة أنهم يشغلون وظائف في «الاقتصاد اليهودي». وظهر شعار جديد مشؤوم. لقد ظهر ليكون شعارًا اشتراكيًا ولكن في الممارسة كان هو النقيض تمامًا للاشتراكية من حيث إنه كشف عن المشاعر المعادية للعرب على نحو مهلك، وهي المشاعر التي كانت وصمة على حركة اتحادات العمال الصهيونية، الهيستدروت. كان الشعار يقول «غزو العمل» (Weistock 1979:133) وهو ما يعني «غزو اليهود لوظائف العرب».

كان الهيستدروت على الدوام أكثر من مجرد اتحاد عمال. ففي الأيام الباكرة تحت حكم الانتداب البريطاني كان هو أكبر مستخدم بعد الحكومة.

«كانت هذه السياسة تميل إلى تجهيز الطبقة العاملة اليهودية النامية في فلسطين ببنية تحتية اقتصادية لا يمكن الاستغناء عنها؛ إذ كانت تعاونياتها المنتجة توفر الوظائف للمهاجرين اليهود، كما أن شركات البيع لديه تضمن تسويق المنتجات الصهيونية... كان المعادل لشعار اتحاد العمال «العمالة اليهودية» هو شعار «الإنتاج اليهودي».

«كان الأبارتهيد الاقتصادي الصهيوني مكونًا أصيلًا في الهيستدروت... وكان على كل عضو أن يدفع ضريبتين إجباريتين»:

(1) للعمال اليهود، ميزانيات لتنظيم فرق الإضراب من العمال ضد استخدام العمال العرب، إلخ..

(2) للإنتاج اليهودي لتنظيم مقاطعة الإنتاج العربي.(59)(Weistock 1979: 184)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وهكذا، فإن الأفكار التي كانت مرتبطة تقليديًّا باتحاد العمال والنضال الاشتراكي، مثل تنظيم الاضرابات والمقاطعة، انقلبت رأسًا على عقب واتخذت معاني على النقيض تمامًا من مقصدها؛ وبعبارة أخرى، تدمير التضامن بين العرب واليهود بدلًا من ترقيته. هذه «المبادئ» التي تبنتها حركة اتحاد العمال اليهودية في فلسطين، كانت بمثابة نذير بأسس الدولة الإسرائيلية نفسها: أي الفصل المؤسس بين العربي واليهودي، وتفضيل اليهودي على حساب العربي.

هرتزل: مسيح رد الفعل القادم من الغرب

أوضحت الحقائق العربية في فلسطين النزعة الانعزالية المتضمنة في المشروع الصهيوني وزادت من صلابتها. والحقيقة، مع هذا، فإن المنظرين الأصليين للصهيونية مثل ملهمها الرئيس تيودور هرتزل، كانوا بالفعل قد حولوا الشعور بالعزلة اليهودية الذي فرضته معاداة السامية الأوروبية إلى فضيلة، هذا البعد في الصهيونية هو الذي يعطي أيديولوجيتها هذه السمة العميقة لرد الفعل، وذلك قبل مواجهتها الحتمية مع فلسطين العربية بزمن طويل.

وثمة صورة حديثة تتعاطف مع هرتزل، كتبها بقلمه الكاتب الصهيوني روبرت وبستريتش، تذكرنا بأنه كان في باريس سنة 1892م أن بدأ هرتزل يرى معاداة السامية كظاهرة عالمية. وزعم أن الناس «في فرنسا الجمهورية، الحديثة المتحضرة، وبعد مئة سنة من إعلان حقوق الإنسان» قد أبطلوا بطريقة عفوية مرسوم الثورة العظمى (Wistrich and Ohana 1995:17-18). كانت تلك استجابته لمحاكمة ألفريد دريفوس ضابط الجيش اليهودي الفرنسي، الذي اتهم بالخيانة، وقد صارت المحاكمة قضية مهمة لكل من اليمين واليسار، وقد اشتهرت على يد الروائي إميل زولا، وصيحة الحشد التي أطلقها «إني أتهم J`Accuse»، حيث عبأ اليسار لصالح دريفوس. ولكن هرتزل لم يستطع أن يرى فرنسا سوى من خلال عيون اليمين القومي، حيث تكمن ميوله السياسية (Shapira 1992:12) واستسلم لرؤية اليمين بأن نزعة معاداة السامية سوف تستحوذ على غالبية الشعب في فرنسا. وكان عليه أن يقول إن المحاكمة هي التي حولته إلى صهيوني.

ويتجاهل ويستريتش، وهو يعاود حكاية هذه القصة، الطريقة التي كانت بها محاكمة دريفوس أيضًا خط تقسيم حدود لليسار. لقد كانت بمثابة صيحة استيقاظ، على حد تعبير الزعيم الاشتراكي الفرنسي چان جوريه «لاتخاذ مواقف في الصراعات الدائرة بين مختلف الفصائل البرجوازية. لإنقاذ الحرية السياسية، كما حدث في قضية دريفوس، للدفاع عن الإنسانية» (Jacob 1992:15). وكما في روسيا، كان على الحركة الاشتراكية النامية آنذاك أن تتقدم حاملة المثل المكتوبة على راية الثورة الفرنسية. ومنذ ذلك الحين فصاعدًا سوف يرى اليسار معاداة السامية «أكثر خصومه خطورة». 60)(Jacob) (1992:12). وقد ألزم اليسار نفسه بتحدي الانحيازات في صفوف مؤيديه المتزايدين من الطبقة العاملة. ومن المثير حقًّا، أن دريفوس نفسه وقف مع الاشتراكيين، ورفض الصهيونية باعتبارها «فوضوية» (Buns 1992: 302).

حينذاك طور هرتزل موقفًا صادمًا صريحًا من معاداة السامية. وكتب أنه كان مستعدًّا للفهم والعفو تجاهها (Wistrich and Hhana 1995:11). ومسامحة معاداة السامية أتاحت له أن يطور مبادرة دبلوماسية عكسية في روسيا، صدمت الكثيرين حتى داخل المعسكر الصهيوني وهزتهم، فبعد عدة أشهر من وقوع واحدة من أكبر المذابح دموية على الإطلاق في كيشينيف سنة 1903م عندما قتل نحو خمسين يهوديًّا، عقد هرتزل اجتماعًا مع سياتسلاف

قنسطنطوفيتش بليڤي، الوزير القيصري الذي يعد مسؤولًا عن المذابح المئة السوداء. وبعيدًا عن أن يكونوا في موقف الدفاع، أخبر بليڤي ورفاقه الوزراء هرتزل أن المشكلة كانت هي ثورة اليهود التي تشكل تهديدًا ماثلًا. وزعم بليڤي أن الشباب اليهودي كانوا يكونون ما يصل إلى نصف عضوية الأحزاب الثورية.

واستمع هرتزل بروح من التعاطف. وكتب تقريرًا إلى المؤتمر الصهيوني السادس تلك السنة بأن مؤيديه في روسيا ممن يدعمون الثورة يجب أن يبدؤوا التصرف «بهدوء وبطريقة قانونية». وقد اعتبر الشباب الاشتراكيون في المؤتمر أن ملاحظاته خيانة حقيقية، وأصدروا كتيبًا متمردًا عنوانه «لا بهدوء ولا بطريقة قانونية» (Ftankel 1981: 279). وقد زادت البوند من قوة الاتهام بالخيانة. لقد كانت «مساهمة حقيقية... تساعد النظام على التخلص من اليهود الذين لا يريدهم» (Medem 1979: XV).

ومع هذا، فإنه لا ينبغي لنا أن نقلل من قيمة جاذبية هرتزل في شرق أوروبا. فبعد زيارته لبليڤي، استطاع أن يجمع الجموع الغفيرة، حتى في معقل البوند في ڤيلنا (Frankel 1981:179). إن جاذبيته المسيحانية -إذ كان يحمل لقب ملك اليهود في شرق أوروبا- قدمت وهمًا حذقًا مريحًا وباقيًا. وكان محبًا للجمال، أوروبيًا شهيرًا -بوصفه كاتبًا مسرحيًا وصحفيًا كان حبيب البرجوازية اليهودية في ڤيينا-يلعب على موضوعات وعواطف يهودية قديمة، لشعب يناضل الآن ضد الأحوال الكريهة والخانقة. كان ما يقدمه هو حلم أشبه بتذكرة العودة إلى المستقبل. كان يقول: «انظروا إليّ إنني يهودي شق طريقه في العالم الحديث، وفي وسعكم أن تفعلوا هذا أيضًا إذا اتبعتموني إلى فلسطين، لنبني وطنًا حديثًا في وطننا القديم». ونسي أن يخبرهم عن الشعب العربي الذي كان يعيش هناك بالفعل. «كانت لدى هرتزل موهبة فريدة لنسج وهم القوة، لخلق حالة فرض الإرادة الوطنية على شعب مشتت، ويعاني من الإحباط» (Wistrich and Ohama 1995:16).

كان هرتزل على استعداد للمساعدة في حماية الوضع القيصري كما هو؛ لأنه أراد من القيصر أن يمارس الضغط على السلطان العثماني لكي يسمح لمزيد من اليهود الروس بدخول فلسطين. وكان قد أطلق دعوة هجومية وديماجوجية شديدة للسلطان حيث كان قد عرض التنظيم اليهودي لماليات السلطان في مقابل السماح لليهود بدخول فلسطين، مما ساعد وشجع تلك الأصوات التي كانت تبالغ بالفعل في مزاعمها بشأن القوة المالية اليهودية. بيد أن السلطان رفض في أدب.

كانت دعوة هرتزل كاشفة في زاوية أخرى. إذ كانت تضع الخاتم على الاستراتيجية الصهيونية حتى نهاية القرن العشرين، وهو ما ستتم دراسته بالتفصيل في بقية الكتاب، باعتبارها أداة سيطرة القوة العظمى على العالم العربي «كان لنا أن نشكل جزءًا من استحكامات أوروبا ضد آسيا، لتكون طليعة للحضارة ضد البربرية» (Vital 1975:266).

هل هو شعب بلا أرض؟

بعد ذلك بمئة سنة نستطيع أن نضع تقويمًا كاملًا لهذه الخرافة، التي ربما كانت هي الخرافة الوحيدة التي لها صدى في الحقيقة. وهذا بسبب أن كل الطرق الثلاث الممكنة لتحرير اليهود في شرق أوروبا في بداية القرن العشرين -الهجرة إلى أمريكا، والهجرة إلى فلسطين، أو التحرر من خلال النضال للإطاحة بإمبراطورية القياصرة- كان عليها أن تواجه أقسى الاختبارات. وعلى الرغم

من أن التطبيق الناجح للبرنامج البلشفي، في أعقاب ثورة 1917م في روسيا، كان لا بد أن يحقق التحرر اليهودي بعيد المنال، فإن الأمر لم يكن كذلك. ذلك أن سنوات الستالينية الطويلة قد أعادت لفترة مشاعر معاداة السامية التي تستميل الجمهور، لدرجة أنه عندما تفكك الاتحاد السوفيتي في أواخر ثمانينيات القرن العشرين، حدث خروج جماعي لما يزيد على مليون يهودي سوفييتي.

ولكن هنا كان الاختبار. هل كانوا سيختارون أمريكا أم إسرائيل؟ لقد اختارت أعداد هائلة منهم الذهاب إلى أمريكا حينما كان ذلك ممكنًا، مستغلين التأشيرات الإسرائيلية التي حصلوا عليها. وتم إيقاف ذلك سنة 1989م. (61)(Beit Hallahmi 1992, 198). إذ إن زعيم الجناح اليميني الإسرائيلي إسحاق شامير قد أصابه الهلع. وهنا كانت النظرية الصهيونية عن التاريخ اليهودي قد انقلبت أمام عيون العالم. واتصل شامير بالرئيس ريجان لعقد صفقة مؤداها: ساعدونا على إعادة توجيه هؤلاء المهاجرين إلى إسرائيل، ونحن سوف نكون أصدقاءكم بدرجة أكبر وسوف نتبع سياساتكم في الشرق الأوسط بقدر أكبر من القوة. ووافق ريجان بروح متعاطفة. وسوف يكشف أحد الفصول اللاحقة بقدر أكبر تفاصيل العلاقات بين الولايات المتحدة وإسرائيل في ذلك الوقت. وهنا نحتاج إلى أن نستنتج فقط أن الولايات المتحدة كانت تلعب اللعبة الصهيونية خدمة لمصالحها الخاصة. أما اليهود السوفييت. فإن مفهومهم عن التحرير كان قد تم إحباطه فعلًا وحقًّا عندما وجدوا أنفسهم مخالب السياسة الخارجية الأمريكية في الشرق الأوسط وأنهم مجبرون على الحياة في أقل الأماكن أمنًا بالنسبة لليهود من أي مكان آخرَ في العالم.

الفصل السابع:
هل هي إسرائيل الصغيرة الجسورة؟
أم محمية القوة العظمى؟ (1)

بريطانيا والمستعمرة الصهيونية في فلسطين

غالبًا ما رسمت الدعاية الصهيونية الصراع من أجل إقامة دولة يهودية في فلسطين في صورة ما ورد في العهد القديم عن داوود وجاولوت والصراع الخرافي بينهما كتعبير مجازي في خلفية الصورة: شعب معزول مضطهد بطولي، يقاتل ضد أغراب مسيطرين من أجل الحصول على وطن له. وكان لا بد للنجاح أن يعتمد على اليهود وحدهم، أي على مبادرتهم وشجاعتهم المادية والأخلاقية. ومثل هذه النتيجة لن تكون شيئًا أقل من معجزة حديثة. إذ إن الاستقلال اليهودي والحرية اليهودية قد تحققت في نهاية المطاف.

إنها أسطورة قوية مقنعة، بيد أنها كانت متصدعة بشكل أساسي في جذورها وقد وضعت العمليات في سلسلة منظمة، أخذت آلافًا من المستوطنين اليهود إلى داخل فلسطين، وأعادت إنتاج نسخة حديثة من الاعتماد اليهودي على الحكم الفردي -وكذلك إنتاج أيديولوجيات يهودية أوتوقراطية حديثة- تحمل الكثير من خصائص العصور الوسطى بل والعصور القديمة. ففي الماضي كان اليهود يبيعون خدماتهم للحكام في مقابل حماية دينهم. وهم الآن يخدمون مصالح القوى العظمى في مقابل حماية احتلالهم لأرض مملوكة لعشب آخر. وتطورت الأيديولوجية الصهيونية باعتبارها أيديولوجية أوتوقراطية متمايزة على الأقل فيما يتعلق باستجاباتها لسكان فلسطين الأصليين.

ويكشف هذا الفصل وبالتفصيل كيف أن بريطانيا كانت قد صارت القوة العظمى الأولى التي قامت رسميًّا بالمصادقة والتطبيق بتبني الزعم اليهودي في فلسطين وكيف توقعت أن تستفيد في المقابل. إذ إن الطموح الإمبريالي الخالص اختلط بتيارات تحتية قوية ومزعجة من مشاعر معاداة السامية في عقول حكام بريطانيا عندما بدؤوا يحتضنون العقيدة الصهيونية أثناء الحرب العالمية الأولى. ولم تكن تلك بداية جذابة لحركة «العودة إلى صهيون» الشهيرة جدًّا، إعادة مولد الشعب اليهودي التي طال انتظارها في أرض أصولهم كما زعموا. وعلاوة على ذلك، كانت تلك بداية سوف تخلف للأبد لعنة وجُرحًا في سياسات الصهيونية، لقد كانت علامة على أنها جاءت إلى فلسطين باعتبارها سياسات اضطهاد.

وينتهي الفصل بتأكيد تاريخي لهذا الفرض: الانتفاضة الوطنية الفلسطينية العظمى، الانتفاضة الأولى، وهي حركة تقليدية معادية للإمبريالية والاستعمار، كشفت بحدة شديدة عن أن البريطانيين والصهاينة كانوا مستعمرين يمارسون القهر والاضطهاد.

وهناك فصل لاحق سوف يكشف ما حدث عندما حلت الولايات المتحدة محل بريطانيا كراع، وبدأت تستغل دولة إسرائيل التي تم اختلاقها حديثًا لكي تتابع الخطط الإمبريالية. وقد أدى هذا إلى توسيع الصهيونية باعتبارها سياسات اضطهاد وقهر لدرجة أنها كانت عند بداية القرن

الحادي والعشرين، تترنح من الإدانة ضدها على اتساع العالم.

كيف أعلنت بريطانيا -لصالح الصهيونية- وعد بلفور؟

كان تيودور هرتزل يجادل دائمًا بأن خلق مستعمرة صهيونية في فلسطين سوف يحتاج إلى مساندة قوة عظمى. في مرحلة حرجة أثناء الحرب العالمية الأولى، أقنع حكام بريطانيا أنفسهم أن هذه قضية لهم. بطبيعة الحال قضية من أسمى درجات النبالة والشرف، سواء من الناحية السياسية أو حتى من الناحية الروحية، كانت قضية تتماشى تمامًا مع أولئك الذين كانوا يطمحون إلى حكم أعظم إمبراطورية شهدها العالم. كما كانت لها أيضًا جدارة أنها يمكن في الوقت نفسه أن تساعد الجهود الحربية للحلفاء وكذلك تضمن فلسطين للإمبراطورية البريطانية عندما تضع الحرب أوزارها. بل إن بعضًا ممن يحملون أشهر الأسماء في التاريخ الإمبريالي في القرن العشرين، مثل داڤيد لويد چورچ، وونستون تشرشل، وآرثر بلفور، أعلنوا أنهم اعتنقوا الصهيونية. ومن الغريب أن هؤلاء الرجال أنفسهم معروفون أيضًا باتخاذهم أقصى المواقف غرابة، بل وانحطاطًا، في معاداة اليهود. فكيف يمكن أن نفسر هذا التطور المحير المربك؟

إننا بحاجة إلى أن نستوعب تمامًا التقاليد الإمبريالية البريطانية، أو على الأقل نعي حالتها، لم يقترب أحد من هذا بقدر ما فعل الشاعر ﭙيرسي شيللي. إذ كان قد سطر قصيدة عنوانها «قناع الفوضى Mask of Anarchy» قبل مئة سنة عن بعض رجال الدولة المشهورين في التاريخ الإمبريالي أوائل القرن التاسع عشر:

قابلت الاغتيال في الطريق

كان له وجه يشبه كاسلرياج

كان يبدو ناعمًا للغاية ولكنه عابس:

كانت تتبعه سبعة كلاب بوليسية

ثم جاء التدليس والغش، وكان

مثل إلدون، يرتدي ثوبًا مُحلى بالفراء

وكانت دموعه الكثيرة، لأنه يبكي جيدًا

تتحول إلى أحجار رحى الطاحونة وهي تتساقط

يرتدي الكتاب المقدس، وكذلك النور

وظلال الليل

مثل سيدماوث، جاء النفاق بعده

راكبًا على تمساح

والمزيد المزيد من الدمار لعبوا

في هذه المسخرة الفظيعة

كلهم تنكروا حتى عيونهم

مثل الأساقفة، والمحامي، أو النبلاء، أو الجواسيس.

(مختصرة)(62)

كان أحد أشهر اللاعبين الإمبرياليين الصغار من حيث سوء السمعة، هو الدمار، إذا كان هناك بالفعل من يحمل هذا الاسم خلال الحرب العالمية الأولى، فهو مارك سايكس الذي كان دبلوماسيًّا أرستقراطيًّا، من كبار حزب المحافظين، مكلفًا بمهام متعددة، من أتباع الكنيسة الرومانية الكاثوليكية ومعاديًا فظًّا للسامية، وكان ومعه چورچ پيكو نظيره في فرنسا، حليف إنجلترا الرئيس في «آلة الموت»، كما وصف إريك هوبسباوم (1994) الحرب العالمية الأولى، قد وجه عينيه الجشعتين إلى شرق المتوسط (الشرق الأوسط) بما فيه فلسطين بطبيعة الحال. كانت الإمبراطورية العثمانية تترنح، وسرعان ما ستكون عرضة للاغتصاب والنهب. وفي سنة 1م، تقابل سايكس وبيكو نيابة عن دولتيهما الإمبرياليتين (إنجلترا وفرنسا)، لكي يعكفا على دراسة سقوطها والنظر في توزيع غنائم الحرب، وتذكر عبارات سايكس:

«كان من الواضح أن انتفاضة عربية ستحدث إن عاجلًا أو آجلًا، وأن الفرنسيين ونحن ينبغي لنا أن نكون في أفضل وضع إذا ما كان للانتفاضة ألا تكون لعنة بدلًا من أن تكون نعمة» (Saied 1995: 221).

وقد صار سايكس أيضًا متعطافًا مع الصهيونية. ففي غصون سنة واحدة سوف تُلزم وزارة الحرب الإمبراطورية برمتها نفسها بالصهيونية وتنشر إعلان بلفور الشهير، وهو تصريح آرثر بلفور، نيابة عن الحكومة البريطانية، الذي ضمن وطنًا قوميًّا لليهود في فلسطين.

ولدينا شاهد خاصٌّ جدًّا على هذا التحول الممسوخ الغريب هو حاييم وايزمان. كان وايزمان خليفة هرتزل بالأمر الواقع، على الأقل من حيث ما يتعلق بتحسين القضية الصهيونية في بريطانيا. ولأنه كان مهاجرًا يهوديًّا من روسيا، وعالمًا متمرسًا، فعندما اندلعت الحرب كان وايزمان يعمل خبير مفرقعات لصالح الحكومة البريطانية. أليس مناسبًا تمامًا أن الرجل الذي ساعد على تحويل وزارة الحرب الإمبراطورية إلى الصهيونية كان هو الرجل الذي استخدمته هذه الوزارة لتحسين كفاءة آلتها القاتلة؟ الواقع أن لويد چورچ قد تهكم مرة على سبيل المداعبة قائلًا: إن إعلان بلفور كان هديته إلى وايزمان مقابل خدماته للمجهود الحربي (Segev 2000:43-4). ومع هذا فإن الدور الأكثر فعالية الذي لعبه وايزمان، كان هو الخضوع لانحيازات وزارة الحرب الإمبراطورية والطريقة القبيحة التي كانت تحكم بها على ما يسمى أحيانًا «المسألة اليهودية».

يا لها من عصابة! الصهاينة الإمبرياليون البريطانيون

رقم (1) ديڤيد لويد چورچ

عندما صار لويد چورچ رئيسًا للوزراء في نهاية سنة 1916م، أعاد تأكيد تفكيك الإمبراطورية العثمانية باعتبار ذلك «هدفًا رئيسًا من أهداف الحرب» (Vital 1987:209). وقد أصرَّ أيضًا على أن يحتل البريطانيون فلسطين. وكان هذا خرقًا فاضحًا لاتفاق «سايكس - بيكو»، الذي كان قد وعد فرنسا بنصيب كبير في فلسطين. وكان يدعمه س.ب سكوت محرر «المانشستر

جارديان» وأحد أقوى مؤيدي لويد. وقبل أن يتولى لويد جورج المنصب مباشرة، كان مراسل الصحيفة الحربي قد كتب: «إن مستقبل الإمبراطورية البريطانية كله باعتبارها إمبراطورية بحرية» يعتمد على أن تصير فلسطين دولة حاجزة «يسكنها جنس محب لوطنه بدرجة كبيرة» (Fromkin 1989:271). وقد تطابق هذا مع رؤية وازيمان ومؤداها: «أن فلسطين يهودية ستكون ضمان أمن لإنجلترا، ولا سيما بالنسبة لقناة السويس» (Weinstock 1979-69) كان سكوت قد عرف عن الصهيونية وعن احتمالاتها المزعومة من وايزمان.

والتقارير العاطفية عن صهيوية لويد چورچ تشدد دائمًا على ارتباطه بالكتاب المقدس. وقد قيل إنه كان مؤمنًا صحيح الإيمان بإعادة اليهود إلى صهيون بفلسطين (Fromkin 1989:268) في ذلك التراث البروتسانتي المحب للسامية. بيد أنه كان هناك أيضًا موقف أشد ظلامًا وشؤمًا. إذ كانت لديه رؤية طنانة بشكل مشوه عن «القوة اليهودية»، لدرجة أنها قادته إلى الرأي القائل بأن يهود روسيا كان يمكنهم منع البلاد من الانسحاب من المجهود الحربي المتحالف في السنة التي اندلعت فيها الثورة الروسية، سنة 1917م. وهناك حجة تبدو مقنعة، سوف نتفحصها فيما بعد، بأن هذا هو ما حسم توقيت إعلان بلفور، وليس حقيقته. لقد أشار لويد جورج إلى «الجنس اليهودي» و«يهود العالم» وإلى «الصهاينة» كما لو كانوا هم نفس الشيء الذي تدل عليه هذه العبارات كلها، وبذل وايزمان ما في وسعه لكي يشجع مثل هذه الرؤية (Seveg 2000:42). وربما كانت لدى هربرت أسكويث، رئيس الوزراء البريطاني السابق على چورچ لويد، أصدق رؤية لخليفته. إذ إن أسكويث لاحظ أن «لويد چورچ لا يهتم البتة باليهود أو ماضيهم أو مستقبلهم» ولكنه كان يهتم فعلًا بفلسطين (Vital 1987:233).

رقم (2) آرثر بلفور

كان بلفور رجل الدولة الذي وقع على الإعلان الشهير، أيضًا ورئيس وزراء في زمن مرسوم الأجانب Aliens Act سنة 1905م غير المشهور. وقد أدى هذا التشريع إلى إغلاق الباب تمامًا في وجه المهاجرين من يهود أوروبا الشرقية الذين فروا من موجات المذابح التي جرت في الإمبراطورية الروسية. وكان بلفور يتابع بنفسه المرسوم في مجلس العموم. ومع هذا، فإنه أصرَّ على أنه كان معارضًا شرسًا لمعاداة السامية. بل إن جريدة Jewish Chronicle، التي كانت آنذاك مثل اليوم تعلق بتحفظ على الشؤون العامة، عبرت عن دهشتها من هذا النفاق المذهل (63)(Stein 1961L149-50). ولم تكن الكلمة المؤلفة من الحروف الأولى لعبارة «لا تلعب في فنائي الخلفي» NIMBY Not in My Back Yard قد صكت بعد، ولكنها تناسب موقف بلفور تمامًا. إذ لم يكن اليهود يلقون الترحيب في الفناء الخلفي لبريطانيا، ولكن كان على بريطانيا أن ترحب بهم في الحديقة الأمامية لعرب فلسطين، بموافقة العرب أو دون موافقتهم.

في الحقيقة، كان بلفور قد اعترف لوايزمان نفسه بتعاطفه مع معاداة اليهود. إذ كان قد أخبر وايزمان عن حوارات جرت بينه وبين كوسيما ڤاجنر، أرملة الموسيقار الألماني الشهير الذي كان معاديًا صريحًا لليهود، ريتشارد ڤاجنر. بيد أن الصهاينة شاركوا أيضًا في «معاداة السامية الثقافية» كما أكد وايزمان لبلفور إذ اعتقد الصهاينة كذلك أن أولئك اليهود الألمان الذين عرفوا أنفسهم بأنهم ألمان «يؤمنون بالعقيدة الموسوية» (أي أنهم ألمان بالقومية يهود بالديانة) كانوا يشكلون «ظاهرة غير مرغوبة تحط من الروح المعنوية» (Seveg 2000:41).

كان بلفور تلخيصًا ورمزًا لذلك التيار المعادي للسامية في الفكر الإمبريالي البريطاني الذي تحالف

مع الصهيونية بعد ذلك. ولم يكن ذلك التيار يحب اليهود الحقيقيين الذين شاهدهم وكذلك لم يكن الزعماء الصهاينة يحبونهم. لقد وافقت الإمبريالية البريطانية على المفهوم الصهيوني بإعادة تنظيم الحياة اليهودية بحيث تناسب النسخة الفجة لإعادة بعث يهود العهد القديم في ثياب جديدة. وهنا كانت تجربة رومانسية مثيرة حقًّا بالنسبة للإمبراطورية البريطانية لإحياء الاستمرارية في الحضارة الغربية، التي كانت على أي حال تضرب بجذورها في التراث اليهودي - المسيحي، وفي الوقت نفسه تقوي وجودها في العالم العربي، كانت لها بشأنها خاصية أخلاقية وروحية فريدة على مستوى فكري لا يمكن أن تصل إليه العقلية العربية ببساطة. وقد لاحظ چورج أنطونيوس، وهو عربي مسيحي فلسطيني بارز يقيم بالقدس، في لمحة ذكية أن بلفور رأى فلسطين باعتبارها «تمرين تاريخي - فكري وتسلية». وكان على بلفور نفسه أن يقول «إن الصهيونية سواء كانت على صواب أو على خطأ... ذات أهمية أعمق كثيرًا من رغبات السبعمئة ألف عربي الذين يعيشون في الأرض العتيقة وانحيازاتهم» (Seveg 2000:45).

رقم (3) ونستون تشرشل

فكرة أن الصهيونية قد تعيد تنظيم الحياة اليهودية كانت لها جاذبية خاصة بالنسبة لونستون تشرشل، الذي صار وزير المستعمرات بعد الحرب ومن ثم صار الوزير المسؤول مباشرة عن تطبيق إعلان بلفور، وكان تشرشل غاية في الانزعاج من الثورة الروسية، كما كان على اقتناع بأن «اليهودي العالمي» كان وراءها. وسمى البلاشفة «ميكروب»؛ وهو تعبير يطلق كثيرًا على اليهود في المنشورات المعادية لهم، وهذا يعزز قناعاته الصهيونية. إذ كان يعتقد أن الصهاينة «سوف يوفرون الترياق المضاد لهذه المؤامرة المنحوسة ويحققون الاستقرار بدلًا من الفوضى في العالم الغربي» (Seveg 2000:158).

وكان يمكن لبريطانيا أن تسدي معروفًا للعالم وتوقف الاتجاهات الهدامة لدى يهود روسيا بأن تقدم لهم وطنًا قوميًّا في فلسطين، التي كانت آنذاك جزءًا من الإمبراطورية البريطانية.. ووفقًا لما كتب قبل أن يتولى وزارة المستعمرات مباشرة سنة 1920م:

«إذا ما كان من الممكن والوارد حدوثه، ينبغي أن نخلق في حياتنا دولة يهودية على ضفاف نهر الأردن تحت حماية التاج البريطاني.. وهو حدث كان لا بد أن يشهده تاريخ العالم، سيكون من جميع النواحي مفيدًا ومنسجمًا على نحو خاص مع مصالح الإمبراطورية البريطانية» (Fromkin 1989: 519).

حتى وايزمان كان مندهشًا من استعداد تشرشل لتشجيع الصهاينة، إذ إن وايزمان اعترف ذات مرة لوزير المستعمرات الجديد أن الصهاينة كانوا يهربون الأسلحة إلى داخل فلسطين ردًّا على العداء العربي المتصاعد. وأخبره تشرشل: «نحن لا نهتم ولكن لا نتحدث عن هذا» (Seveg 2000: 194).

رقم (4) مارك سايكس

إن تحول سايكس من عدو لليهود إلى صهيوني يمثل دراسة حالة واضحة لهذه الظاهرة المشبوهة. كان سايكس ينفر من اليهود. فقد كان اليهودي هو «النمط العتيق من المرابي العالمي.. جشع همه جمع المال ولا جذور له، ويستحقون الاحتقار عن جدارة عندما يحاولون أن يظهروا بمظهر آخر»، بل إنه في شبابه رسم أنماطًا يهودية شنيعة (Stein 1961:272).

ومع هذا فإن سايكس سوف يصير مرتبطًا بالصهيونية ويرى فيها تجربة اجتماعية عظمى. فقد أخبر البابا سنة 1917م، أنها سوف ترفع «احترام الذات العرقي لدى الشعب اليهودي» وسوف تنتج سكانًا بسطاء مزارعين يتحلون بالفضيلة في فلسطين (Stein 1961:275). وعلى أي حال فإن هذا لم يكن يعني أن سايكس لم يكن معاديًا لليهود. بل على العكس، كان يرى في الصهيونية المعادل للمال اليهودي العالمي، والذي كان يعتقد أنه يساند المجهود الحربي الألماني (Stein 1961:276) وكان مثل تشرشل من حيث إنه كان يرى أيضًا أن الصهيونية تستطيع مواجهة العناصر اليهودية الدولية الهدامة، ممن كانوا يرون في «كارل ماركس النبي الأوحد لإسرائيل» (Stein 1961:275). إذ كان يمكن لهذه العناصر الهدامة أن تدمر المجهود الحربي أيضًا لأنهم كانوا قادرين على سحب روسيا من الحرب كما يعتقد.

لقد كان سايكس يمثل وجهة النظر الإمبريالية البريطانية، بشكل مكثف، والقائلة إن الصهيونية تستطيع إصلاح سلوك «يهود العالم»، وتضمن مساندة «يهود العالم» للمجهود الحربي للحلفاء؛ وضمان فلسطين للإمبراطورية البريطانية بعد الحرب.

وفي الحقيقة، كان الافتراضان الأخيران هما اللذان يهمان أكثر من غيرهما. فعلى أساس هذين الافتراضين كان تشجيع لويد چورج على انتهاك الاتفاقية التي كان قد توصل إليها مع چورچ بيكو، وكان على سايكس أن يلعب «بالورقة الصهيونية» لكي يرهب الفرنسيين حتى يسقطوا دعاواهم بشأن فلسطين. ولكن قبل أن نتحول إلى تصرفات لويد چورچ وسايكس الهزلية الخسيسة، يجب أولًا أن نعرض باختصار وجهة نظر أخرى مشرفة ومنسية، وهي رؤية يهودية بريطانية ضد الصهيونية.

«معاداة السامية لدى الحكومة الحالية»

كان هذا عنوان ورقة وزارية كتبها إدوين لمونتاجو في أغسطس 1917م. (Vital 1987:287). وإذ كان مونتاجو قد عُيِّن حديثًا وزيرًا لشؤون الهند، كان من الصعب اتهامه بأنه لا يحمل في قلبه مصالح الإمبراطورية البريطانية. وعلى أي حال، فعلى الرغم من أنه كان اليهودي الوحيد في الوزارة البريطانية، ومن ثم كان يجب أخذ آرائه مأخذ الجد، وبمصادقة غريبة من القدر، كان ابن عمه هربرت صمويل، أول يهودي يخدم في وزارة بريطانية، قد خرج لتوه من الوزارة. كان صمويل صهيونيًا وفيًا، وبذلك قوَّض أي مزاعم كان يمكن لمونتاجو أن يزعمها بأنه -لا الصهاينة- كان يمثل المصالح الحقيقية للجماعة اليهودية في بريطانيا(64). ومع هذا، فإن قوة حجة مونتاجو لمست وترًا حساسًا. ألن تخلق الصهيونية هويتين قوميتين لليهود؟ ألن يشجع هذا المعادين لليهود في كل مكان على المناداة بإخراج اليهود وترحيلهم إلى فلسطين؟ ألم يكن معنى هذا أن فلسطين سوف تصير جيتو يهوديًا حديثًا؟ ألن تقوم الصهيونية نفسها، بعيدًا عن تهدئة نزعة معاداة اليهود، بتزكيتها دونما قصد؟(65)

وكما لاحظ سجيف، كان هذا بالضبط ما تريده الصهيونية «إن أعداء اليهود، سيكونون أشد أصدقائنا إخلاصًا، والدول المعادية لليهود ستكون حلفاءنا». هذا ما كان هرتزل قد دونه في يومياته (Segev 2000:47).

وما يلفت النظر هو كيفية حذق استجابة وزارة الحرب، التي كانت في ذلك الحين ملتزمة تمامًا بالقضية الصهيونية. فقد ذهبوا شوطًا بعيدًا لإقناع مونتاجو بأنه كان على خطأ. وتم تخصيص ورقة من وزارة الخارجية لتنفيذ آراء مونتاجو نقطة بنقطة. كان بلفور، من بين الجميع، هو

الذي قاد مناقشات وزارة الحرب مصرًا على أن استيعاب اليهود في بريطانيا أو أي مكان آخر لا ينبغي أن يتأثر. لقد كان ذلك مقياسًا لمدى كيفية التزام وزارة الحرب آنذاك بالصهيونية، وتم تغافل التحدي الذي طرحه مونتاجو (Vital 1987:280-6).

إبعاد فرنسا عن فلسطين

«المؤامرة الصهيونية» التي دبرها لويد چورچ وسايكس

إن «الصهاينة ربما يكونون حلفاء مفيدين في جهود خرق الاتفاقية الأنجلو فرنسية وكانوا بالتأكيد السبب الرئيس في إعادة ظهور فكرة فلسطين على أجندة الحكومة في الشهور الباكرة من سنة 1917م (Vital 1987:213). وڤيتال، الذي كان قد أولى اهتمامًا عميقًا لهذه المرحلة من ارتباط وزارة الحرب بالصهيونية، يختار كلماته بعناية استخدام الصهاينة بهذه الطريقة كان أمرًا طيبًا بالنسبة للناس (ومنهم كيرزون...) الذي لم يكن يحمل أي تعاطف خاص لقضيتهم أو لليهود عمومًا (66)(Vital 1987:214). وهنا نرى العلاقة بين حكام الإمبراطورية البريطانية والصهيونية كما هي بالضبط. وكان للصهيونية أن تلعب دور «الأداة» المفيدة والموثوق بها، عارية من أي تعاطف، لكي تعزز المصالح البريطانية (Vital 1987:222).

والواقع أنه بينما تم استدراج زعماء الصهاينة في المؤامرة لخرق المعاهدة الأنجلو فرنسية، جرت تعميتهم بشأن المقاصد الحقيقية. وعلى أي حال، كانت الاتفاقية سرًا من أسرار زمن الحرب، لتقسيم غنائم الحرب قبل وقت طويل من الانتصار في الحرب فعلًا، وعلى كل حال، فإن الاعتبارات الصهيونية لم تكن واردة فيها على الإطلاق (Vital 1987:202)، ولم يكن هذا شيئًا يهم سايكس وبيكو بأن يدعا الصهاينة يدركونه. بيد أن الموقف آنذاك كان مختلفًا تمام الاختلاف. ذلك أن التطلعات الصهيونية لم تصبح «مفيدة» فجأة فحسب، بل كان لا بد من تشجيعها بصورة نشيطة وحصل سايكس على الدعم الكامل من لويد چورچ عندما جعل للصهيونية «يلتهبون» على حد تعبيره (Vital 1987:224). كانت تلك لحظة حاسمة للصهيونية في بريطانيا. إذا تحولت وضعيتهم بين عشية وضحاها، وصاروا آنذاك هم المفضلون في عيون الحكومة. واضطر الزعماء التقليديون لليهود الإنجليز، بسبب شكوكهم في خطط الصهيونية، إلى الجلوس في المقاعد الخلفية. ووفقًا لرواية وايزمان، صار الصهاينة آنذاك أقرب إلى «قلب الموضوع» عن ذي قبل (Vital 1987:238). وتمت دعوتهم إلى اجتماع خاص حيث ألقى سايكس محاضرة على مسامع الصهاينة في السياسة الفرنسية، وقد أعرب عن تعاطفه مع فكرة «فلسطين يهودية»، ولكنه قال إن اليهود كانوا يضعون العراقيل في الطريق، فقد كانوا بحاجة إلى الاقتناع بحرارة الصهيونية ومزاياها. ومن الذي يمكن أن يفعل هذا أحسن من الصهاينة أنفسهم (Vital 1987:238-40).

وتم الاتفاق على أنه يجب أن يقوم ناحوم سوكولوف، وهو زعيم صهيوني من روسيا، بعرض القضية على الفرنسيين. وهكذا نُصب الفخ للفرنسيين، دون أن يفهم الصهاينة تمامًا القصد الحقيقي منه. وتأثر الفرنسيون بقضية الصهيونية. فقد قابل سوكولوف بيكو وغيره من كبار الموظفين الرسميين الفرنسيين على مدى عدة أسابيع.

ولكن عندما قدم الفرنسيون عرضهم الواضح بأنهم قد يكونون على استعداد لرعاية مستعمرة صهيونية عندما تحتل فرنسا فلسطين، أوضح سوكولوف أن الرعاية البريطانية هي المفضلة. وبعبارة أخرى، بدأ الفرنسيون يدركون أن الصهيونية جاءت كجزء من صورة أوسع وأن الرعاية

البريطانية للمشروع قد بدأت بالفعل. وإذا ما وضعنا في الاعتبار أن الإنجليز كانوا الأقدر على الاستيلاء عسكريًّا على فلسطين وليس الفرنسيين سندرك كيف وجد الفرنسيون أنفسهم في موقف ضعيف. وحينئذ قابل سايكس بيكو مرة أخرى لكي يؤكد على «أهمية الاستجابة للمطالب اليهودية، ولكي يحقق فحوى تفضيل الصهاينة «للسيادة البريطانية» (Vital 1987:243).

وكان سايكس مسرورًا من نفسه لأسباب مفهومة. فقد كتب إلى بلفور: «فيما يتعلق بالصهيونية، بدأ الفرنسيون يدركون أنهم في مواجهة أمر كبير ولا يمكنهم أن يغمضوا عيونهم عنه» (Vital: 1987:277).

ومع هذا، لماذا رأى كل من البريطانيين والفرنسيين في الصهيونية شيئًا كبيرًا؟ في إحدى نقاط المناقشة بين بيكو وسولوكوف، جادل بيكو بأنه «سيكون مفيدًا جدًّا لقضيتهم أن يجعل اليهود إخلاصهم للوفاق (بين فرنسيا وبريطانيا) أكثر وضوحًا» (Vital 1987:241).

يبدو أن الصهيونية كانت في عيون الحلفاء تحمل شيئًا أكبر من مجرد مزاعمها في فلسطين.

الصهيونية: «الشيء الكبير»

في مذكراته عن الحرب كتب لويد چورچ:

«لقد أصبح اليهود الروس الوكلاء الرئيسين للدعاية السلمية الألمانية في روسيا فبحلول سنة 191م كان اليهود الروس قد قطعوا شوطًا كبيرًا في التجهيز للتفكيك العام للمجتمع الروسي... إذا كان الاعتقاد سائدًا بأنه إذا أعلنت بريطانيا العظمى عن تحقيق الأهداف الصهيونية في فلسطين... فإن تأثير ذلك سوف يكون مؤازرة اليهود الروس للوفاق» (Leven 1992: 6-70).

والواقع أن سقوط القيصر نيقولاس في فبراير سنة 1917م كان قد زاد من احتمال انسحاب روسيا من المجهود الحربي للحلفاء. ولكن فكرة أن يهود روسيا كانوا هم المسؤولون في النهاية، وأنهم ربما يقتنعون بإبقاء روسيا في الحرب إذا ما تم الإذعان للأهداف الصهيونية، فكرة معاكسة تمامًا. ومع هذا فإننا قد رأينا بالفعل أن بعض هذه الأفكار وردت على لسان زملاء لويد چورچ في الحرب. كما أنها كانت رؤية تتبناها قطاعات من المؤسسة العسكرية البريطانية. ذلك أن چنرال، سير چورج ماكمون والكابتن سيريل فولز في كتابهم عن تاريخ الحرب العالمية الأولى زعمًا أن الضغط الذي لا يقاوم لحاجات الحلفاء، والقوة العالمية للجنس اليهودي، جعلوا من المرغوب الاعتراف بتطلعات اليهود نحو «وطن قومي» (Vital 1987:297).

لقد عمل وايزمان طويلًا وبدأب لتشجيع مثل تلك الرؤية. إذ جمع أجزاء فانتازيا سياسية عن اليهود في الثورة الروسية والتأثير الذي يمكن أن يكون لهم على المجهود الحربي لكل من الألمان والحلفاء على السواء. لقد كانت فانتازيا لعبت مباشرة على الانحيازات اللاسامية في وزارة الحرب الإمبراطورية التي كانت مهمومة بما يسمى «القوة اليهودية».

وكما ذكر وايزمان، كان اليهود الروس في تلك الآونة يتجمعون لدعم القضية الصهيونية، وهو يزعم هذا الزعم على الرغم من حقيقة أن الإطاحة بنظام القيصر كان يعني أنه -للمرة الأولى في روسيا- كان التحرير الكامل لليهود قد بات احتمالًا حقيقيًّا، يُعززه التزام واضح من كل الأحزاب الثورية الروسية.

ومرة أخرى، زعم وايزمان أن صهاينة روسيا كانت بحوزتهم القوة على تجنيد يهود روسيا وراء المجهود الحربي للحلفاء، على الرغم من اعترافه بشكل خاص بالصعوبة التي كان يواجهها في إقناع صهاينة روسيا بالكف عن سياسة «الحياد» التي اتبعوها إزاء الحرب. (Levene 1992:b:74). وأخيرًا تحدث وايزمان على نطاق واسع عن كيف أن إعلانًا لصالح الصهيونية سوف يكون دافعًا إلى الصداقة مع يهود العالم.. وهو شيء لا يجب التضحية به.. شيء يهم إلى درجة كبيرة، حتى بالنسبة لإمبراطورية شديدة البأس مثل الإمبراطورية البريطانية (Levene 6) (1992 b: 73). لقد كان وايزمان يلعب على خوف محدد تمامًا. إذ كانت ألمانيا تحتل بولندا وأجزاء من ليتوانيا، وأجزاء من شرق أوروبا، كما أن ألمانيا كانت قد بدأت تعطي وعودًا حول فلسطين يهودية، وكان من الأفضل لبريطانيا أن يكون لها قصب السبق.

وسرعان ما سيؤدي التاريخ نفسه إلى تفجير فقاعة الفانتازيا حول القوة الصهيونية في التأثير على المساندة اليهودية للمجهود الحربي للحلفاء. وفي مفارقة ساخرة مدهشة، حدث في نفس الأسبوع الذي نُشر فيه إعلان بلفور في أكتوبر 1917م أن استولى البلاشفة على السلطة في روسيا وسحبوا البلاد خارج الحرب. وبُـهت أصحاب نظرية المؤامرة اليهودية في كل مكان. فقد كان المفترض، في النهاية. أن يقوم اليهود بإبقاء روسيا في الحرب، بما أن الحلفاء قد وعدوهم بوطن يهودي في فلسطين. ومع ذلك، فإن رضاءنا برؤية مدى السهولة التي تمت بها السخرية من أصحاب نظرية المؤامرة ودارت بهم الدوائر، ينبغي أن نكبحه بمدى عمق اللاسامية التي تم الكشف عنها. فقد أشار ليفني إلى ملاحظات في بداية المجلد الرابع من كتاب ليون بولياكوف The History of Antisemitism فحواها أن الهوس الذي استحوذ على المجتمع الراقي في أوروبا أوائل القرن العشرين بشأن اليهود، قد اختفى في زوايا النسيان بدرجة كبيرة (Levene 1992b:76) بيد أن هذا الهوس لعب دورًا في فرض المستعمرة الصهيونية على الفلسطينيين: وهو هوس معاد لليهود في جوهره، ولم يكن لدى الزعماء الصهاينة اليهود أي رغبة في تحديه.

إمبريالي عنصري وصهيوني

تشرشل بين اليهود والعرب في فلسطين

صار تشرشل وزير المستعمرات في فبراير 1921م، وحمل المسؤولية المباشرة في الشرق الأوسط. وفي غضون ثلاثة أشهر اندلعت أخطر الاحتجاجات العربية ضد الصهيونية حتى ذلك الحين في شتى أنحاء فلسطين (Fromkin 1989:515) وقد رد هربرت صمويل، الذي كان هو اليهودي الصهيوني الوحيد في وزارة الحرب قبل ذلك والذي كان آنذاك هو المندوب السامي البريطاني فلي فلسطين، بإيقاف أي هجرات يهودية جديدة. وقد أدى هذا إلى نشوب أزمة كبرى بالنسبة للصهيونية وهدد بتقويض الأسس التي قام عليها إعلان بلفور نفسه. وسوف يتهم بن جوريون صمويل بأنه «خائن» (Sgev 2000:492). وكان على تشرشل أن يصلح ما فعله صمويل.

وقد أوضح تشرشل أنه لم يكن هناك أي قصد للارتداد عن إعلان بلفور. وكان قد أخبر وفدًا عربيًّا فلسطينيًّا في القاهرة أن الصهيونية «جيدة للعالم، وجيدة لليهود، وجيدة للإمبراطورية البريطانية، بل أيضًا جيدة للعرب» (Fromkin 1989:519). وفي أعقاب أعمال الشغب الاحتجاجية، في صيف سنة 1921م، كرر نفس الملاحظة لوفد عربي فلسطيني في لندن: «إن الحكومة البريطانية تقصد أن تنفذ وعد بلفور. لقد أخبرتكم مرات ومرات» (Fromkin

1989:524)، وسرعان ما استؤنفت الهجرة اليهودية إلى فلسطين.

وفي الممارسة، كان تشرشل يكنُّ احتقارًا عميقًا للعرب. فقد كان مستشاره الرئيس في «الشؤون العربية» العميل العسكري البريطاني الأسطوري «لورانس العرب». وأحيانًا تخلق الأسطورة الانطباع بأن هناك محبة بريطانية عميقة لكل ما هو عربي. وعلى مدى السنين كان هناك كلام كثير عن «المستعمرين» في وزارة الخارجية بزعم أنهم ورثة تراث لورانس، وأنهم على استعداد دائم لتفويض الالتزام الكامل من جانب بريطانيا تجاه الصهيونية. بيد أن هذا يكشف عن سوء فهم عميق للورانس «والاستعراب البريطاني». ففي أحد المعاني كان «الاستعراب البريطاني» يشبه نظيره الإمبريالي «الصهيونية البريطانية». ذلك أن الطبقات الإنجليزية الحاكمة تشعوذت بأن ابتدعت نمطًا لـ«العربي» بنفس الطريقة التي اختلقوا به نمطًا مثاليًّا لـ«اليهودي». لقد كان اليهودي المثالي «يهوديًّا جديدًا»، من نوعية متفوقة، من نفس نوع الرجل الذي يساعد على حكم الإمبراطورية. ولكن العربي النموذجي كان هو الصورة الاستشراقية التي قدمها بدوي الصحراء في شبه الجزيرة العربية، «عربي قديم» ممن يظهرون في حكايات «ألف ليلة وليلة»، سريع البديهة ومنكر لذاته، وعلى النقيض من ذلك، كان العرب الفلسطينيون، من وجهة نظر لورانس «بلهاء، ماديين... فقراء مدقعين» (Cohen 1985:77). والحقيقة، كان ثمة شك في كونهم عربًا أصلًا، وكتب جلبرت كلايتون، أول رئيس للإدارة العسكرية البريطانية في فلسطين بعد الحرب مباشرة، أن العرب الفلسطينيين كانوا «من أعراق مختلطة وهويتهم محل تساؤل... ومن يطلق عليهم اسم عرب فلسطين لا يمكن مقارنتهم بعرب الصحراء الحقيقيين» (Cohen 1985:77).

وقد امتص تشرشل هذه المواقف جملة واحدة. وقد اضطر بعد عدة سنوات فيما بعد إلى أن يقدم الدليل إلى لجنة هيل التي كانت تحقق في أسباب الثورة العربية عام 1936م في فلسطين. وفيما بعد منع اللجنة من طباعة هذه الأدلة، إدراكًا منه لمحتواها المتفجر. والحقيقة، نحن نفهم أنه كان قد تفوه بأكثر أنماط التحيز الصهيوني تطرفًا ضد العرب. وإذ كان تشرشل مصرًّا على أن الوطن القومي اليهودي يجب أن يغطي في النهاية كل فلسطين، فإنه قال إن هذا لم يكن ظلمًا للعرب. فقد قال: «إن الظلم يكون عندما يترك أولئك الذين عاشوا في البلاد فلسطين لتكون صحراء على مدى آلاف السنين». وفي رده في اقتراح بأنه يمكن النظر إلى اليهود باعتبارهم أجانب قاموا بغزو فلسطين في القرن العشرين، رد تشرشل بأن العرب هم الذين جاؤوا في الأصل إلى فلسطين بعد اليهود، وأن جيوش الإسلام الكبيرة هي التي سحقت فلسطين. وعندما تم تذكيره بالحضارة العربية العظمى التي امتدت حتى إسبانيا، رد تشرشل بأنه مسرور لأن العرب تم طردهم خارج إسبانيا، لأن ذلك كان في صالح العالم على حد قوله. (Cohen 1985:79).

وفي وقت سابق، كان تشرشل قد صار مثقلًا بمسؤولياته الاستعمارية في العالم العربي لدرجة أنه اقترح أن يتخلص منها كلها. فقد واجه متاعب جمة في محاولة السيطرة على ملك العراق المعين حديثًا، الملك فيصل، والذي كان قد بدأ يطلب استقلالًا حقيقيًّا. ولم يكن لويد چورج، رئيس الوزراء ليسمع عن هذا. وذكر تشرشل بالاعتقاد الذائع باحتمال اكتشاف احتياطات كبيرة من البترول في المنطقة، «إذا ما رحلنا فقد نجد في غضون سنة أو سنتين.. أننا سلمنا إلى الفرنسيين والأمريكيين بعض أغنى حقول البترول في العالم». (Fromkin 1989:509).

بريطانيا والصهيونية

وثورة 1936-1939 الفلسطينية العربية ضد الاستعمار

وثمة اسم بريطاني آخر شهير للغاية، سوف يصير أيضًا من أبطال الحرب العالمية الثانية، خلف تشرشل في فلسطين، وهو الفيلد مارشال مونتجومري. ففي سنة 1938م، وصل إلى فلسطين لسحق الثورة العربية ضد الحكم البريطاني والدفاع عن المساندة البريطانية للمستعمرة الصهيونية التي كانت تتوسع بسرعة. كان موقف مونتجومري من العرب يتفوق على موقف تشرشل بكثير. فقد أعطى لرجاله أوامر بسيطة عن كيفية التعامل مع الثوار: اقتلوهم خصوصًا «لأنهم عصابات من اللصوص المحترفين» كما نصت كلماته (Seveg 2000:432). لقد كان مونتجومري مشغولًا بالكيفية التي كان البريطانيون قد خسروا بها معظم أراضي أيرلندا. وكان يظن أن هناك تنازلات أكثر من اللازم قد قدمت لمنظمة شين فيم الأيرلندية. لقد كانت الأوامر اليومية هي طمس الهوية القومية بلا رحمة.

وهكذا، أمر بأن أي فلاح يتم القبض عليه مرتديًا الكوفية الفلسطينية، التي يعود أصلها كرمز للمقاومة في هذه الثورة، يجب أن «يوضع في قفص» (Swedenburg 1995:34). وقد اضطرت السلطات السياسية البريطانية إلى كبح جماحه.

كان وضع العرب في أقفاص فكرة واحدة، وكان تقييد أرجلهم بالسلاسل فكرة أخرى. وقد ترك لنا السير رونالد ستورس، الحاكم البريطاني السابق في القدس، تأملاته الداخلية في العقلية الاستعمارية البريطانية في سيرته الذاتية. كان ستورس يلعب التنس عندما قام الصبي العربي الذي يجمع الكرات «بإصدار خشخشة غريبة، وعندما نظر مدققًا اكتشف أنه هو وزميله في الناحية الأخرى من الملعب كانوا من المحكوم عليهم بمدد طويلة، وكانا مقيدين في أعقابهما بالسلاسل، وكان ضابط البوليس المحلي قد أرسلهما من السجن لكي يقوما بجمع كرات التنس» (Stors 1939: 446).

وثمة ضابط كبير في الجيش البريطاني في فلسطين، هو أوردي وينجيت، الذي عرف أحيانًا باسم «لورانس اليهود». كان ينظم اليهود للخدمة العسكرية، وقد تخطى أكثر من أي ضابط آخر الخط المزعوم بين المصالح البريطانية والمصالح الصهيونية. وقد أعلنت وزارة الدفاع الإسرائيلية بعد موته بسنوات عديدة، أنه قدوة في دوره، وأبرزت تأثيره على «عقيدة القتال» في الجيش الإسرائيلي (Seveg 2000: 430).

لقد كون ما كان في حقيقته جيشًا خاصًا، معظمه من اليهود، كان يطارد «الإرهابيين» ليلًا، هذه «الكتائب الليلية الخاصة» كان لها واجب حيوي ورمزي مطلق، حماية السكك الحديدية وأنابيب البترول، التي كانت تمتد من كركوك في العراق إلى ميناء حيفا الفلسطيني. ولم يكن وينجيت غامضًا فيما يتعلق بالأهداف السياسية الأوسع. لقد كان كما قال «يرسي أسس جيش صهيون» (Marshell 1989:42).

وهناك الكثير من القصص المفزعة عن «الكتائب الليلية الخاصة» والتي تشبه حقًا أنشطة الجيش الإسرائيلي اليوم في الضفة الغربية وغزة. فقد كان الضرب والقتل العشوائي في القرى العربية يتم فجأة ودونما تحذير. وكانت المحاكمات الهزلية والمحاكم الهزلية تعقد في القرى بدافع من النزق الخيالي المفاجئ، ثم تتلوها الإعدامات. وكان كثير من أفراد قوات وينجيت يظنون أنه مجنون. وليس من الصعب أن ندرك سبب ذلك.. فقد كان لديه هوى إلى دسائس الاستفزاز. ففي إحدى المناسبات أراد من جنوده اليهود أن يرتدوا زي العرب ويذهبوا إلى السوق

العربية في حيفا ثم يبدؤوا في إطلاق النار (Seveg 2000:431).

وعلى أي حال، من الصعب أن نفصل تجاوزات وينجيت عن الجهاز القهري البريطاني الأوسع في التعامل مع الثورة. فقد كان تعذيب المشتبه فيهم أمرًا عاديًّا. وتم اعتقال الآلاف إداريًّا دون محاكمة في معسكرات خانقة الزحام دون الحد الأدنى من الرعاية الصحية. وفيما بين سنة 1938 وسنة 1949م كان يتم إعدام عربي واحد أسبوعيًّا على الأقل (Seveg 2000:417).

والأكثر من هذا، أن رواد مبدأ العقاب الجماعي على قرى بأسرها، والذي يعشقه الجيش الإسرائيلي، كانوا هم البريطانيون. وهناك طبيب بريطاني، اسمه إليوت فورستر، وثَّق في يومياته عملية تمت في حلحول، وهي قرية قرب الخليل، في مايو سنة 1939م، فقد جمع الفلاحين في حظائر مفتوحة واحدة للرجال وأخرى للنساء، أثناء موجة حارة، وحرموا من الطعام والشراب. وسمحوا للنساء بترك الحظيرة بعد يومين، ولكن كثيرًا من الرجال تم احتجازهم لفترة أطول كثيرًا، ومات عشرة على الأقل. ويختم فورستر بأنه ربما كان بوسع البريطانيين أن يعلموا هتلر شيئًا أو شيئين عن إدارة معسكرات الاعتقال (Seveg 2000:421-2).

ولا ينبغي لنا أن ننظر إلى وينجيت على أنه استثناء في الطريقة التي أدمج بها الجنود البريطانيين والصهاينة المسلحين في نفس الوحدات العسكرية. لقد كانت السلطات البريطانية مضطرة أمام الثورة العربية إلى زيادة قوة الشرطة الاستعمارية. وتم تجنيد آلاف من المستوطنين اليهود، ولم يتأخر الزعيم الصهيوني، موشى شيرتوك، في الخروج باستنتاج أن الجيش اليهودي في المستقبل سوف يعتمد على ما يحرزونه من نجاح (Seveg 2000:427). بل إن البريطانيين، في الحقيقة طلبوا من زعماء الصهاينة أن يشاركوا في حمل عبء مرتبات رجال الشرطة وأن يدفعوا تكاليف الزي الرسمي! وتم تكليف شركة سوليل بونيه للبناء، والتي أسسها الهستدروت خصيصًا لتسهيل الاستعمار الصهيوني، بإقامة سور من الأسلاك الشائكة على طول الحدود الشمالية وكذلك بناء أقسام شرطة جديدة (Seveg 2000:428-9).

الثورة

تغض كتب التاريخ الصهيونية النظر عن الثورة العربية الفلسطينية. وهم يرجعون صدى رفض مونتجومري الذي يشوبه الازدراء للوطنيين الثوار باعتبارهم رجال عصابات قتلة. ولكنهم فيما بينهم عرفوا الحقيقة وكانوا على استعداد للاعتراف بها أحيانًا. والواقع كان زعيم الجناح اليميني الصهيوني، جابوتنسكي، معجبًا بالزعيم الفاشستي موسوليني الذي صك العبارة المشؤومة «الحائط الحديدي» في عشرينيات القرن العشرين، لكي يتعامل مع الانتفاضة الحتمية للقومية الفلسطينية. كان الحائط الحديدي تعبيرًا مجازيًّا عن القوة العسكرية المهيمنة التي سوف يحتاجها الصهاينة لكسر إرادة القومية الفلسطينية. كذلك أعاد جابوتنسكي مبدأ هرتزل القائل بأن المستوطنين اليهود الأوروبيين يجب أن يفهموا أنهم أرقى ثقافيًّا من السكان الوطنيين الأصليين، وأنهم طليعة الحضارة الأوروبية. وقد قال آڤي شلايم، المؤرخ الإسرائيلي المعارض، في كتابه الفذ The Iron Wall، كيف أن كل الزعماء الإسرائيليين تقريبًا، لا سيما ما يسمى الجناح اليساري من أمثال بن جوريون، ثم رابين فيما بعد، قد وافقوا على فلسفة «الحائط الحديدي» التي قال بها چابوتنسكي. فقد شهد بن جوريون ثورة 1936-1939م. ولم يكن يساوره شك في أنها حركة وطنية مشروعة. ولكن هذا الاستنتاج لم يؤد سوى إلى زيادة عزمه. فقد جهزته لإجراءات فرض الإبعاد الإجباري للعرب من الدولة اليهودية فيما بعد (Swedenburg

(1995:14).

ومع هذا، كان موقف الصهيونية الرسمي مستنكرًا للثورة. وهي لا تظهر في كتب التاريخ التي تدرس في المدارس الإسرائيلية. وينطبق هذا على أي مكان سيطرت فيه إسرائيل على تدريس التاريخ لتلاميذ المدارس الفلسطينية. فمنذ سنة 1967م منعت إسرائيل حرفيًا آلافًا من الكتب في الضفة الغربية وغزة. بيد أن إسرائيل لم تستطع أن تستأصل الذاكرة الفلسطينية. وفي السنوات القريبة وصلت العلاقة بين التاريخ والذاكرة إلى حد تشكيل بُعد جديد حقًا في البحث العلمي. وعلى الرغم من أن إسرائيل بذلت أقصى ما في وسعها، فإن الذاكرة الفلسطينية أفادت أيضًا من هذا الشكل الإبداعي في البحث.

إذ إن كتاب سويدنبرج الذي يحوي مقابلات بارزة مع الباقين ممن شاركوا في الثورة والذي نشر في ثمانينيات القرن العشرين، يُعد مثالًا يحتذى في الموضوع. وبينما لا نستطيع نحن أن نقيم العدالة هنا، فإننا نستطيع على الأقل أن نؤكد أن «الثورة الكبرى» كانت أهم انتفاضة ضد الاستعمار في الشرق العربي في فترة ما بين الحربين (Swedenburg 1995:21).

لقد كانت الثورة حتمية ويكمن سببها النهائي في الحماية البريطانية لتوسع الهجرة اليهودية التي تضاعفت ما يقارب ست مرات في ثلاثينيات القرن العشرين. فقد كان اليهود يشكلون تقريبًا ثلث السكان الفلسطينيين عند اندلاع الثورة (كان عدد اليهود 65 ألفًا سنة 1917م، ووصل إلى 384.078 نسمة سنة 1936م) (Gilbert 1998: 47-80).

ولم يستطع الفلاحون الفلسطينيون أن يفهموا لماذا كان ينبغي أن تستخدم أرضهم ملاذًا لليهود الأوروبيين الفارين من اللاسامية في أوروبا. إنهم لم يكونوا هم يهود الأراضي العربية الذين كانوا جيرانهم على مدى القرون. لقد رأى الفلاحون ما رآه چابوتنسكي بالضبط. مستعمرًا أوروبيًا، فضلًا عن أنه محمي بالقوة المسلحة للإمبراطورية البريطانية. وكانت لدى الفلاحين الشجاعة لإعلان الحرب على الإمبراطورية البريطانية لكي يحموا أرضهم، اتساقًا مع ذلك التراث العظيم الذي تعرفنا عليه من قبل في جبل النار.

النظر بعيون فلسطينية

لقد استغرق الأمر زمنًا طويلًا حتى يُقنع سويدنبرج علي حسين بالحديث معه (Swedenburg 1995:107-9). وقد وضع المحارب القديم شرطًا للمقابلة، وهو يجب على سويدنبرج أن ينشر أسماء رفاقه الذين قتلهم البريطانيون بعد أن أطاح لغم أرضي زرعه الفلاحون بتسعة جنود. ثم وصف علي المذبحة عندما انتقم الجيش البريطاني من قرية بأسرها. وقد احتفظ علي بقائمة الأسماء لمدة أربعين سنة. وكان قد انتظر كل هذا الوقت لكي ينال الاعتراف لهؤلاء الشهداء المجهولين. لقد كان مبدأ وحالة واجهها سويدنبرج مرات ومرات بين المحاربين الفلاحين القدامى. لقد عرفوا أن شيئًا مهمًا حقًا قد حدث. ولكنه على نحو ما ضل مكانه الرسمي في تلك الوسيلة التذكارية التي تسمى التاريخ المكتوب.

لقد وصف علي نفسه بأنه مسلم وشيوعي في الوقت نفسه وأصرَّ على أنه لم يكن ثمة تعارض. وعلاوة على ذلك، بينما كان علي واحدًا من أكثر زعماء الفلاحين المحليين السابقين الذين قابلهم سويدنبرج حنكة، فإن إصراره على أن القرى كانت تشكل العمود الفقري للمقاومة، مع قيادة عسكرية جسورة ولكنها مرتجلة مع مبادرات شجاعة، هو الذي ساد جميع الروايات.

والقصة التي لم تُرو هي أن البريطانيين -دعك من الصهاينة- كانوا يواجهون خطر فقدان السيطرة على الريف. وقد تلت ذلك حالة من الجمود العسكري العنيف، ولم يكن من الممكن كسرها إلا بتنازلات سياسية خطيرة من السلطة الحاكمة. وعلى حد تعبير سجل بريطاني رسمي: «لم يكن الجنود البريطانيون ذوو الأحذية الثقيلة أندادًا للمواطنين ذوي الثياب الخفيفة الذين كان يمكنهم، في أي لحظة أن يسقطوا أسلحتهم ويصيروا فلاحين ورعاة ماعز مسالمين» (Swednburg 1995:126).

وقد كانت لدى علي حسين بيتام قائمة أخرى من الأسماء في رأسه، من أبناء الأعمام والأعمام والأخوال وغيرهم من الأقارب الذين قتلوا بعد ما يزيد على أربعين سنة من هذا التاريخ، خلال المذبحة التي قامت بها إسرائيل في معسكرات اللاجئين في صابرا وشاتيلا ببيروت سنة 1982م. ويروي سويدنبرج وزميل فلسطيني له: «شعرنا بالتوقير والإجلال لهذه الروح الجامحة التي تحترق بهذا التألق داخل هذا الرأس صغير الحجم الذي كرر أسماء الموتى، كما لو كان ذلك الفعل يمكنه أن يقبض على عاصفة التقدم».

وطرأ على بال سويدنبرج فجأة اقتباس قال فيه: «مصيبة واحدة لا تزال تكوِّم الحطام فوق الحطام وتدفعه أمام قدميه» (Swedenburg 1995: 1995:137). لقد كان مواتيًا تمامًا بالنسبة لعلي، ومع ذلك فإن الاقتباس مأخوذ عن الفيلسوف اليهودي، فالتر بنيامين، عندما كان يتوقع الهولوكوست.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثامن:
الهولوكوست النازي
برهان الضرورة الملحة لدولة يهودية

استغلال الهولوكوست لتبرير وجود إسرائيل كدولة يهودية، قد تبدى واضحًا في «إعلان استقلال إسرائيل» سنة 1948م.

«إن الهولوكوست النازي، الذي طال ملايين اليهود في أوروبا قد برهن مجددًا على الحاجة الملحة لإعادة بناء الدولة اليهودية التي سوف تحل مشكلة عدم وجود وطن لليهود بفتح البوابات أمام جميع اليهود، ورفع الشعب اليهودي إلى المساواة في أسرة الأمم» (Mendes -Flohr and Reinharz 1995:62).

سوف يبدو للوهلة الأولى أنه يكاد يكون مستحيلًا أن تجادل بشأن هذه العبارة. ففي كل الأحوال كان القصد من الهولوكوست النازي تدمير الشعب اليهودي فيما أسماه هتلر «الحل النهائي» (أو بالأحرى كان هذا هو المقصود من المذابح التي ارتكبت ضد اليهود والتي كانت في قلب الهولوكوست، لا يجب أن ننسى أبدًا أن هناك ملايين آخرين كانوا ضحايا للهولوكوست: الرومانيين والمثليين والمعاقين والملايين من السلاڤيين والجنسيات الأخرى، هذا بالإضافة إلى أسرى الحرب السوڤييت والمعارضين السياسيين بما فيهم الاشتراكيون والشيوعيون)، ومع ذلك فإن تأسيس الدولة الإسرائيلية كان يعني استئصال شعب آخر وإبعاده، وهو الشعب الفلسطيني، والاستيلاء على أرضه وتحويله إلى شعب فقير معوز. لقد كان هذا بالنسبة للفلسطينيين «نكبة».

ثم قامت الدولة اليهودية الجديدة بإعادة تسمية الأرض الفلسطينية بالأرض اليهودية... وفي هذا الفصل نستطلع الحالة بالنسبة للدولة اليهودية في الظلال المتطابقة لكل من الهولوكوست والنكبة. وهو يحاول الإجابة عن بعض الأسئلة الصعبة جدًّا. هل من المشروع استغلال الهولوكوست للوصول إلى نتائج سياسية؟ كيف نخرج بالنتائج السياسية الصحيحة؟ هل توصلت إسرائيل إلى النتائج السياسية الصحيحة؟ ويتم تناول هذه الأسئلة بثلاثة طرق، أولًا: من خلال كتاب لورانس لانجر، وهو باحث بارز في الشهادة على الهولوكوست وفنها. وثانيًا: من خلال اختبار فائدة مفهوم الإمبريالية كجزء من الجدل في اليسار الماركسي حول كيفية شرح الهولوكوست. وثالثًا: من خلال المناقشة والجدل حول بعض المواقف الصهيونية المتعلقة بالإنقاذ من الهولوكوست، ومقاومته. وهناك من يرى أن كل تناول من هذه يحمل رؤى مهمة حول الهولوكست مع تحذيرات ضمنية عن الأحكام السياسية التي تحتاج إلى الرد عليها.

والجزء الأخير من الفصل يحاول أن يجمع هذه الآراء الثاقبة معًا مع التحذيرات باعتبار ذلك وسيلة للتفكير في الرابطة التي تجمع بين الهولوكوست والنكبة. ونقدم تعليقًا نقديًّا أخيرًا على استغلال إسرائيل للهولوكوست.

وعندما نناقش الهولوكوست بهذه الطرق يكون هناك دائمًا خطر إضفاء الطابع الفكري عليها

والتعامل معها بشكل مجرد. وإلى حد ما فإن هذا أمر حتمي، ومع هذا فإنه يجعل أي شخص يتناول هذا الموضوع يشعر بعدم الارتياح. وحتى لو كان الأمر كذلك فإنني أحب أن أفكر أن هذا الفصل ربما يكون مساهمة متواضعة في:

«الحوار القلق الذي لا يتوقف بشأن كيفية استيعاب حضارتنا للتفجر المنافي للعقل الذي نسميه الهولوكوست، داخل الآمال المعقولة حول المستقبل، على حين يستمر هذا الجنون في الهجوم على الذاكرة والخيال بشكل بالغ الأسى والقوة» (Langer 1998: 21).

ماذا كان الهولوكوست؟

قد يبدو هذا عبثًا، بل قد يبدو سؤالًا مهينًا، إلا أنه من المشكوك فيه ما إذا كان أي من آلاف الباحثين، والفنانين، والصحفيين، وغيرهم من الكتاب -بما فيهم الناجون من الهولوكوست الذين كانوا يناضلون للوصول إلى إجابة على مدى السنين- راضين تمامًا عن النتائج التي توصلوا إليها. وغالبًا ما اندلعت الخصومات المريرة الشرسة حول مزاعم ادعت إضفاء معنى على الهولوكوست. والواقع أن هناك مدرسة فكرية مقنعة تضع الهولوكوست في مكان «يتعدى» قدرتنا على الفهم. فعندما سئل، مثلًا المؤرخ الذي يحظى باحترام كبير في مجال دراسة الهولوكوست، راؤول هيلبورج، عما إذا كان للهولوكوست أي معنى، أجاب: «آمل ألا يكون لها معنى». كما أن حنَّا أردنت، اشتهر بترجمة الأدلة في المحاكمة التي جرت بالقدس سنة 1961م، لأدولف إيخمان، الذي كان من البيروقراطيين النازيين البارزين الذين تحملوا مسؤولية تطبيق وتنفيذ الهولوكوست، على أنها «كلمات بذيئة للشر». وهنا يستشعر المرء حقائق بسيطة ولكنها عميقة تشي بمحدودية فهمنا. ومع هذا فإن الحقيقة، أن تجد كل الكتاب تقريبًا -وربما رغمًا عن أنفسهم في بعض الحالات- يناضلون للخروج بتفسيرات متحذلقة ودروس سياسية أيضًا.

رؤية لورانس لانجر التحذيرية

لانجر واحد من أكثر المفسرين إنجازًا للشهادات الباقية على الهولوكوست والفن والأدب المتعلق به، وكان مرشده بريموليفي، الذي يحظى بالاعتراف بكونه واحدًا من أشهر الكتاب عن الهولوكوست والذي كان هو نفسه من الناجين من الهولوكوست، وتحول إلى الكتابة لكي يُضفي على تجاربه معنًى.

وقد هالت ليفي محاولات تفسير الهولوكست بالحجة «التي تضفي صفة الكونية» والقائلة بأن ما فعله الألمان «قد عكس فقط قدرة على العنف والشر مدفونة في الطبيعة البشرية في كل مكان» (Langer 1998: 33) وكان هذا بالنسبة لليفي مراوغة. وفي كتابه The Drowned and the Saved أوضح ليفي أنه على الألمان أن يتحملوا مسؤوليتهم المحددة عن جرائم النازي.

بيد أنه على الرغم من أنه كرس مقدمة كتابه Pre-empting the Holocaust للمصادقة على ملاحظات ليفي بشأن مخاطر إضفاء الطابع العالمي على الهولوكوست، فإن مقالة لانچر الأكثر توفيقًا، والتي تحمل عنوان The Alarmed Vision مقالة بارزة في الكتابة عن الهولوكوست، من حيث توضيح رسالة «عولمة» الهولوكوست. وفي هذه المقالة يقوم لانجر بتحليل تفصيلي لشهادات الناجين من الهولوكوست: وهم يسكنون عالمين في الوقت نفسه، أحدهما مثبت في

الزمن التتابعي، أي زماننا، والآخر مثبت فيما يسميه هو الزمن الاستمراري، والزمن الاستمراري يثبت وجود الناجي في معسكر الموت إلى الأبد. والماضي ليس مجمدًا وتتجدد الحياة فيه مرات ومرات، فهناك شعور طاغ بأن المرء أخطأ مصيره المقصود بنجاته من موته المقدر (Langer 1998:72-3) فالناجون من الهولوكوست يحملون عبئًا طاغيًا من تجربة الموت يصعب تمامًا علينا أن نفهمه حق الفهم.

وعند هذه النقطة في مقالته، فإن قوة ما يفهمه تبدو ذات تأثير يشبه الصدمة الكهربائية، ويسقط لانجر مقاومة مشكلات «عولمة» الهولوكوست. وهو يغير مزاجه تمامًا، على الرغم من عدم وجود ما يدل على هذا، والقارئ غير مستعد:

«إن حكايات مثل حكاياتها تهدد اعتمادنا على التماسك والعقل، والتوازن الأخلاقي والنفسي، الذي يشكل لنا الكائن المتحضر... إن شهادة مثل هذه ينبغي أن تجمعنا لا إلى الضحايا المتماثلين للشفاء، وإنما لإعادة مراجعة أسطورة الكائن المتحضر. إذ لا يمكن بعد الآن للطبيعة الإنسانية أن توضع في مواجهة الطبيعة غير الإنسانية، كما لو كانت إحداهما هي الأمر الطبيعي والأخرى انحرافًا يمكن تقويمه. إن الوحشية التي تتخذ شكل العنف الذي يصيب الآخرين بالعجز ويقتلهم، قد صارت تعبيرًا «عاديًّا» عن الذات بدلًا من كونه تعبيرًا نفسيًّا» (Langer 1998: 74).

ويخلص لانجر إلى نتيجة مؤداها أننا نعيش بالفعل في عصر الوحشية. وهذا هو لب مقالته «Alarmed Vision». وفي مكان أسبق في المقالة يعمد إلى تعميم الهولوكوست، حيث مات اليهود لكي يعيش الألمان، لكي يقترح ما يبدو أنه «مبدأ» في عصر الوحشية؛ فكتب أننا نعيش في عالم:

«حيث يبدو الهدف من الحياة في أغلب الأحيان هو موت الآخرين، نكون مجبرين على اعتبار انقلاب التوقعات بدلًا من تحقق الأحلام نموذجًا للكينونة والسلوك في بعض الجماعات» (Langer 1998:68).

والآن تبدى خواء رؤيا لانجر بالفعل فهو لا يقدم إطارًا تفسيريًّا وحلًّا، وهو في الواقع يقول ضمنًا إن الإطار أو الحل قد لا يكونان متاحين إطلاقًا (Langer 1998:202n.7) .

ومع هذا، فإن استنتاجه «أنه في عصر الوحشية تعتمد الحياة أحيانًا على موت الآخرين»، يلقي وهجًا فظيعًا على المشهد السياسي العالمي المعاصر. فنحن هنا بإزاء روية ثاقبة تحذيرية حقًّا، وإنذارًا مؤكدًا عن الحاجة لاتخاذ فعل للرد في التوِّ.

هذه الفكرة القائلة بمبدأ الحياة القائمة على أساس الموت، هي بالضبط النص الباطن لمناقشة رئيسة تضمنها كتاب «هوبسباوم» ذائع الصيت عن تاريخ القرن العشرين القصير بعنوان (The Age of Extremes).

إن الحرب العالمية الثانية، التي كانت أوشفيتز في قلبها، كانت هيروشيما خاتمتها: «لقد كان إسقاط القنبلة الذرية غير مبرر باعتبار ذلك أمرًا لا غنى عنه لتحقيق النصر، ولكنه كان مبررًا لإنقاذ حياة الأمريكيين» (Hobsawn 1994:27) وبعبارة أخرى اعتمد الأحياء الأمريكيون على اليابانيين الأموات، ولا يبدو غريبًا أن ليڤي واحد من أوائل شهود هوبسباوم في كتاب (The Age of Extremes Hobsbaw 1994:1)(67).

وإذا صدق مبدأ «الحياة في مقابل الموت»؛ من ملامح عصرنا حقًّا، عصر الوحشية، فإن الصهيونية والصهاينة إذًا ينبغي أن يفكروا بعناية شديدة في الدروس التي يستخلصونها من الهولوكوست. ألم يقم المشروع الصهيوني، جزئيًّا على الأقل على أساس إنقاذ حياة اليهود على حساب موت الفلسطينيين إذا ما دعت الضرورة إلى ذلك؟ سأعود إلى هذا الموضوع فيما بعد في هذا الفصل.

الإمبريالية والتطهير العرقي الذي نسميه الهولوكوست

كتب أدولف هتلر في كتابه Mein Kampf سنة 1925: «إن الإمبراطورية العملاقة في الشرق على وشك الانهيار» ونهاية الحكم اليهودي في روسيا سيكون أيضًا نهاية روسيا كدولة.

وقد وصف يان كيرشاو، الذي يقال إنه أحسن من كتب سيرة هتلر -كيف أن رؤية هتلر الشخصية للعالم قد جمعت بين مكونين رئيسين: هما تدمير اليهود وحيازة الفضاء الحيوي- حيث قال:

«إن الحرب ضد روسيا سوف تؤدي، من خلال القضاء على البلشفية اليهودية، إلى أن تنال ألمانيا خلاصها في الوقت نفسه بتوفير مجال «حيوي جديد». كان هذا الذي يعود إلى إمبريالية أواخر القرن التاسع عشر، ومع كونه قاسيًا تبسيطيًّا، وبربريًّا، انتقل إلى أوروبا الشرقية في القرن العشرين حيث اختمر، كان مفعوله سريعًا على أولئك الذين كانوا على استعداد للعمل به» (Kershaw 1998: 250).

وإذا ما نحينا جانبًا الظروف التي أتاحت لهتلر والحزب النازي أن يمسك بزمام السلطة في ألمانيا، فإن لدينا هذا المنطلق لفهم بعض العمليات التي أدت إلى الهولوكوست.

ولا شك في أن العمليات كانت إبادة جماعية. إذ إن Mein Kampf حافلة بالتهديدات لليهود. هؤلاء «العالميون الذين يسممون الجماهير» كان ينبغي «استئصالهم» (Kershaw 1998:244). وبطبيعة الحال، فإن الشكل الدقيق للإبادة الجماعية ليس واضحًا. وعلى أي حال فإن الحرب ضد روسيا وسكانها السلاف، كانت تمثل تهديدًا بالإبادة الجماعية الأكثر عمومية لكل شعوبها.

وكون أن السلاف كانوا بشرًا أدنى Untermenschen، كان يؤخذ على أنه افتراض مسلَّم به، كما كان ذا جذور عميقة في الثقافة القومية الألمانية (Kershaw 1998: 79).

وقبل الغزو النازي لروسيا في بواكير سنة 1941م مباشرة، أخبر هتلر قادة الصاعقة أنه ينبغي القضاء على نحو ثلاثين مليون من السلاف، وقد أسماها هتلر «حرب إبادة» (Kershaw 2000: 353, 339).

وكانت كذلك. إذ تم ذبح الملايين. وليس هناك اتفاق حتى على رقم تقريبي، إلا أنه لا يقل عن 3.3 مليون أسير حرب روسي (Hobsbawm 1994: 43).

ومن المؤكد أنه يحتمل أن نفهم حرب الإبادة النازية في القرن العشرين باعتبارها تعديلًا للإمبريالية الأوروبية ذات الطرز القديمة ونظرياتها المستمدة من القرن التاسع عشر من علم الأجناس البيولوجي، على الرغم من أن الإبادة النازية كانت لها خصائصها المرعبة. وهذا هو السبب في أن الفلاسفة والكتاب اليهود، على تنوعهم مثل: حنا أردنت، وجورج شتاينر وشاول

فريد لاندر ليسوا على صواب تمامًا عندما يجادلون بأن الهولوكوست حالة فريدة؛ لأن النازيين كانوا يستطيعون أن يختاروا من يجب أن يعيش ومن يجب أن يموت على أساس الاختيار العرقي (Traverse 1999:67).

مارست الإمبريالية ما أسماه شتاينر «مذابح وجودية» أي القضاء على الضحايا لا بسبب أفعالهم، وإنما لأنهم موجودون.

فعلًا فقد تم اكتساح سكان أمريكا الأصليين؛ لأنهم وجدوا في طريق المجال الحيوي الأوروبي في أمريكا الشمالية. وكان هتلر في بعض الأحيان يقارن الحرب ضد روسيا بالنضال الأوروبي في أمريكا الشمالية «ضد الهنود الحمر» (Hilters table Talk 2000:621).

وفي وقت مبكر مثل سنة 1830م، لاحظ السير چورچ موراي، الذي كان وزير دولة للمستعمرات يتسم بالاستنارة النسبية أن حكومته ربما كانت قد بدأت سياسة استئصال «جنس» بأسره، هم شعب أستراليا الأصلي. وقد حذر من أن «القضاء على الجنس المحلي يمكن أن يترك وصمة لا تُمحى على شخصية الحكومة البريطانية» (Reynolds 2001:4).

وفي الهند أيضًا، كان معدل عمليات الإبادة البريطانية يأخذ العقل. ففي آبنغال وحدها، تم ذبح ما يصل إلى عشرين مليونًا من الناس بنهاية القرن الثامن عشر (Davidson 1999:25).

وكان هتلر مبهورًا، ويشعر بغيرة عميقة، من تجربة البريطانيين في الهند، وقد أشار إليها عدة مرات، شارحًا لماذا برهنت على أن ألمانيا تستطيع بسهولة أن تسود روسيا. (Hilters Table Tak 2000:15).

وأهمية الإبادة في عصرنا الذي تحكمه الإمبريالية قد هزت العديد من الكُتَّاب من اليسار واليمين، قبل استيلاء النازي على السلطة بزمن طويل. وهذا ما كتبته روزا لوكسمبرج:

«قال إنجلز ذات مرة: يواجه المجتمع الرأسمالي معضلة، فإما أن يتقدم إلى الاشتراكية أو يتقهقر إلى البربرية، وهكذا نقف اليوم أمام الاحتمال المخيف: إما أن تنتصر الإمبريالية، ويتم تدمير الثقافة برمتها... والقضاء على الجماهير، والخراب، والتدهور ويكون العالم مقبرة شاسعة، وإما أن تنتصر الاشتراكية» (Cited Rees 1998: 160).

كتبت تلك السطور قبل أن يكون القرن العشرون قد أماط اللثام عن أسماء: «السوم» أو «أوشُيتز»، و«جولاج»، أو «هيروشيما». وفي حالة مماثلة، تنبأ عالم الاجتماع المحافظ ماكس ڤيبر ب. «ليلة قطبية ذات ظلام وقسوة ثلجية» (Traverso 1999:75). وفي وقت سابق كان ماركس قد استحضر تصويره المذهل للحكم البريطاني في الهند، حيث قال «الصنم الوثني البشع الذي لن يرضيه شرب مشروبه إلا في جماجم المذبوحين» (traverso 1999:25).

وكتاب تراڤيوسو المثير جدًّا الذي يحمل عنوان Understanding the Nazi Genocide Marxism after Auschwitz يهتم بتطبيق الحجة على كراهية اليهود في جوهر الهولوكوست وهو يحذر من أن الحجة والجدل يفشلان تمامًا في الإلمام بمدى ضخامة الجريمة أولًا، لأن حربًا استعمارية تم شنها في أوروبا، في أواسط القرن العشرين، مستخدمة أدوات الدمار التي يمتلكها مجتمع صناعي متقدم، فقد ركزت الإبادة في مدى سنوات قليلة فقط بدلًا من القرون أو حتى العقود. وثانيًا: يجادل بأن اليهود «ليسوا مثل الأفارقة أو سكان أمريكا

الأصليين، شعب مستعمر ولكنهم شعب له جذوره في الحضارة الغربية». والآن، إنصافًا لتراڤيوسو، كان واعيًا لمخاطر هذا النوع من الجدل، ويمضي قدمًا ليصر على أنه لا يقدم «سلمًا تصاعديًا لتاريخ الإبادة» وبدلًا من ذلك، فإن الهولوكوست قد أوضح مرحلة جديدة يسودها عنف الإمبريالية؛ إذ لم يعد الدمار الذي تفرضه الإمبريالية الغازية التي تفرض حكم الحضارة الغربية على العالم خارج أوروبا، وإنما بداية انهيار هذه الحضارة ما أسماه أدورنو وهورخيمر «تدمير العقل لذاته» (Traverso 1999: 126).

ويقدر ما إن هذه الرؤية مثيرة ومحيرة -وهي تستحق من الاعتبار أكثر مما هو متاح هنا- فإنها ليست مرضية. ذلك أن تهكم غاندي يرد على البال مباشرة، فعندما سُئل عما يفكر به بشأن الحضارة الغربية، أجاب غاندي أنه كان يتطلع إليها. وعلى أي حال، فإن الحضارة في شكلها الغربي، أو بشكل أكثر عمومية، لم تسقط، ولكن النظام النازي سقط. وسيكون من الأفضل أن نقول إن الهولوكوست كان بالنسبة لبقيتنا تحذيرًا مرعبًا عن نوع السياسات التي تهدد الحضارة بالفعل.

وقد لاحظ الكاتب الماركسي البريطاني أليكس كاللينيكوس مزيدًا من الضعف في تزكية تراڤيرسو لأدورنو وهورخيمر. فبالتعامل مع الهولوكوست فقط على أنه من أعراض فوضى حضارية أكثر عمومية تدمر «عصر العقل»، يتم تجاهل الأسباب المحددة للإبادة النازية (Callinicos 2001:387). وهنا تكون السخرية لأن تراڤيرسو اتساقًا مع كاتب ماركسي آخر هو نورمان جيراس، قد قالا إن الماركسية ذاتها تنزع أكثر مما يجب لهذه النوعية من التعميمات وليست قادرة على تحليل الأسباب المحددة لبربرية النازي. وهذا الجدل يحمل أصداء مقالة ليڤي التي ناقشناها من قبل. وفي مقالة «عملية سبر الأغوار: الماركسية والهولوكوست» يسعى كاللينيكوس لتوضيح أن الماركسية يمكنها فعلًا أن تتصدى للتحدي.

وثمة جانبان مختلفان في مقالة كاللينيكوس يستحقان أن نوليهما اهتمامنا هنا وأن نحاول جاهدين في تناول المكونات «الخصوصية» و«الفريدة» حقًا في الهولوكوست. والجانب الأول هو مركزية علم الأجناس البيولوجي، والهوس النازي تجاه اليهود. ويرى كاللينيكوس أن ملاحظة هتلر التي أبداها لهيملر سنة 1942م مثيرة للحزن والأسى:

«إن اكتشاف الفيروس اليهودي يعد إحدى أعظم الثورات التي حدثت في العالم. والمعركة التي نخوضها من نفس نوع المعركة التي خاضها كل ما پاستير وكوخ، إبَّان القرن الماضي. كم من الأمراض كانت أصولها كامنة في الفيروس اليهودي.. إننا سوف نستعيد صحتنا فقط إذا استأصلنا اليهود» (Collinicos 2001:402).

لم يكن اليهود هم «الجنس غير المناسب» الوحيد، أو المجموعة الاجتماعية التي كان يجب استئصال شأفتها. بيد أن اليهود كانوا على رأس القائمة في السلم التدريجي، لأن هذا الجنس الأحط بين الأجناس كانت له قوة هائلة في العالم، ولا يجب أبدًا التقليل من شأن معدل الخيال الأيديولوجي النازي المعادي للسامية هنا. ذلك أن «الفيروس» اليهودي كان يمسك «الحضارة الغربية» برمتها في قبضته المميتة. وعلى حد تعبير هتلر، فإن اليهود هم الذين اخترعوا المسيحية مثلما اخترعوا الرأسمالية والشيوعية. ولكن ماذا كانت الحوادث التي عجلت بأن يقوم النازيون بالتعبير العملي النهائي عن كراهيتهم لليهود؟

يتفق الباحثون على أن غزو هتلر لروسيا قد أوجد السياق الذي يناسب الهولوكوست. وعلى أي

حال، تبقى هناك مجادلة لم يتم حلها عن الحافز المباشر؛ إذ إن (مؤتمر وانسي غير الشهير في يناير 1942م لم يترك أي سجل مكتوب عن النية في استخدام معسكرات الموت لتحقيق الحل النهائي).

وعلى سبيل المثال، يرى كريستوفر براونج أن هتلر اتخذ القرار في «غمرة النشوة بالنصر» في روسيا فيما بين منتصف سبتمبر ومنتصف أكتوبر 1941م. أما مارتن بروسزات، من ناحية أخرى، فيرى أن هزيمة هتلر التي أطلت بوجهها بعد هذا مباشرة، كانت هي المفتاح الذي فتح معسكرات الموت (Cesarani 1994: 14.7).

ويقدم دفاع كاللينيوس الحميم عن موقف برويزات رؤية محتملة أكثر للعمليات التي أدت إلى الشكل المحدد للإبادة التي نسميها الهولوكوست؛ إذ يجادل برويزات بأنه كلما صار عدم القدرة على تحويل العقيدة الأيديولوجية النازية «صوب مهام إعادة التنظيم البناءة» في روسيا أكثر وضوحًا «زاد تركيز هذه السياسة الأيديولوجية بشكل حصري على السياسات والأهداف السلبية» (Callimicos 2001:404).

كانت عملية «إعادة التنظيم البناءة» تلك قائمة على أساس «الرؤية» النازية «لجماعة» ألمانية متجانسة اجتماعيًّا، نقية عرقيًّا: (Volksgemeinschaft Callinicos2001:394,398)، كان لها أن تمتد من ألمانيا إلى داخل روسيا حيث سيعيش المستعمر (الألماني الجديد «في مزارع أنيقة، فسيحة» (Hitlrs Table Talk 2000:24). وقد حاق الدمار بهذه الرؤية عندما توقف الهجوم النازي في نهاية 1941 أمام المقاومة العنيدة من جانب الجيش الروسي. وبالإضافة إلى ذلك، فإن مشروعات نقل اليهود إلى الأقاليم الأقل ملاءمة في الاتحاد السوڤييتي حيث كان من المؤكد هلاك غالبيتهم (كان هذا أيضًا سيكون إبادة نازية لليهود ولكن بشكل مختلف) لم تعد ممكنة (Callincios 2001:401) ويجادل كيرشاو بأن وانسي عكست المعضلة التي كان النازيون يواجهونها وزادت كراهية اليهود. ذلك أن الحل النازي الاستئصالي ربما يكون قد ازداد صلابة بدخول جيش الولايات المتحدة في الحرب أواخر سنة 1941م، وهو ما لام هتلر اليهود بسببه: «لم تعد المبادرة في يد ألمانيا...» وعلى الرغم من أن الأمر لم يتضح تمامًا لعدة أشهر، فإن مقامرة هتلر، التي راهن عليها بمستقبل الأمة، خسرت بشكل كارثي (Kershaw 2000:457) وبحلول نهاية العام كان قد تم ذبح أربعة ملايين يهودي (Kershaw 2000:493).

وإذا كانت الصورة التي رسمناها في السطور السابقة دقيقة بأي معيار، فما العبر التي نخرج بها؟

إن الجوانب الفريدة للإمبريالية النازية الألمانية لا يجب أن تعمينا عن رؤية بعض المسلمات عن الغزو الإمبريالي. فهو يميل «دائمًا» إلى سلوك الإبادة وتضرب محاولات إضفاء الشرعية عليها بجذورها دائمًا في الاختلافات العرقية والكراهية الجنسية. وتتزايد مشروعات الإبادة إذا ما كانت القوة العسكرية تنوي تطهير الأرض لتكون «مجالًا حيويًّا» من جنس مزعوم أنه أدنى لصالح مجموعة عرقية يزعمون أنها أرقى. وربما تصبح الأيديولوجيات اليوتوبية، التي تبرر تطهير الأرض بالقوة باسم التفوق العرقي، أشد تعصبًا عن ذي قبل، وأكثر ميلًا للإبادة، عندما تواجه الفشل.

والصهيونية ليست مثل النازية. فليست في جوهرها استئصالية، على الرغم من أن الصهيونية - كما سنرى- قد صارت قادرة على ممارسة الإبادة وتمارسها فعلًا. ولكن الصهيونية تمتد بجذورها في الإمبريالية الأوروبية. وتكفي هذه الحقيقة وحدها لطرح تحذيرات عاجلة عن تطبيقات

الطموحات الاستعمارية القاسية في فلسطين.

قبل الطوفان: المواقف الصهيونية للإنقاذ والمقاومة

أريد الآن أن أتحول إلى مناقشة مختلفة للغاية تتعلق بالمواقف الصهيونية قبل الهولوكوست. وكان لا بد للمرء أن يفكر في أنه بعد تولي النازيين السلطة في ألمانيا سنة 1933م، كان لا بد للصهيانة أن يكونوا في الجبهة الأمامية لتنظيم المقاومة ضد النازي وإنقاذ اليهود منهم. بيد أنه كان هناك غالبًا غموض متعب بشأن هذا، لا سيّما فيما بين زعماء الصهيونية، وهو ما يلقي «شكوكًا بالفعل حول مصداقية الصهاينة الأخلاقية في نفس الساحة التي ينبغي ألا يكون فيها أي شك». وهذا يثير أيضًا السؤال «العام» و«الخاص» بطريقة درامية تمامًا. لأن السؤال المطروح هو ما إذا كانت الحاجات الخاصة للدولة اليهودية المنتظرة، كما يفهمها زعماء المستعمرة اليهودية في فلسطين تحت السيطرة البريطانية في ذلك الوقت، ينبغي أن تكون لها الأولوية على الحاجة إلى رد عالمي للأزمة اليهودية الماثلة. والتي تسبب فيها التهديد النازي القائم.

وقد أوضح مؤتمر إيفيان سنة 1939م الطريقة التي حكم بها بعض قادة الصهاينة على أولويات الإنقاذ. وكان ذلك المؤتمر بمبادرة من الرئيس روزفلت للتنسيق بشأن حل عالمي للعدد المتزايد باطراد من اللاجئين اليهود الساعين إلى الهرب من براثن السيطرة النازية. وبينما كانت نوايا مؤتمر إيفيان شريفة دونما شك، فإن النتيجة كانت مخيبة (Wasserstein 1998:8-9). وعلى أي حال، لم يكن هذا واضحًا بالمرة للكثير من المشاركين، الذين أخذوا مقاصد المؤتمر بجدية شديدة فعلًا. وكان هذا يصدق بشكل خاص على المندوبين الصهاينة، الذين كان بعضهم قلقين من أن حصاد المؤتمر ربما يكون ناجحًا للغاية.

كان هذا الموقف الغريب والمربك هو الذي أوضحه بن جوريون بحماسة عارمة دون سواه. ففي اجتماع ضم زعماء اليهود، من الصهيانية وغير الصهاينة، جاؤوا من جماعات يهودية في أجزاء مختلفة من العالم، حذر بن جوريون من «الدمار؛ والخطر، والمصيبة التي يمكن توقيعها من مؤتمر إيفيان. إذ إنه يمكن أن يزيح فلسطين من الأجندة الدولية باعتبار ذلك عاملًا في حل المسألة اليهودية». واستمر ليقول إن السبب هو أنه «في عيون العالم، تشبه فلسطين إسبانيا الآن (حيث كانت تدور رحى حرب أهلية).. هناك أحداث شغب.. وفي كل يوم يتم إلقاء القنابل». وهنا كان محقًّا تمامًا. فقد كان الفلسطينيون قد أعلنوا «حرب» تحرير وطنية على المحتلين البريطانيين وحلفائهم الصهاينة. ولم يكن هناك سبيل آنذاك لأن تفتح بريطانيا فلسطين أمام المهاجرين اليهود. وكان المطلوب بإلحاح توفير حل بديل. ولاحظ بن جوريون أن روزفلت توصل إلى نفس الاستنتاج. وحكى بن جوريون أن روزفلت قال: «لم تستطع فلسطين حل المشكلة اليهودية، وينبغي البحث عن طريق مختلف». وبعبارة أخرى، يجب استيعاب المهاجرين اليهود في مكان آخر. ولكن بالنسبة لبن جوريون كانت هذه كارثة، وكان يريد لمؤتمر إيفيان أن يفشل. وكما عبر هو عنها: «ينبغي علينا أن نحرص على ألا يجد هذا الاتجاه الخطير تعبيرًا عنه في المؤتمر».(68)(Beit Zvi 1991: 228).

لم يكن بن جوريون غريبًا أو شاذ الأطوار. بل على العكس، كان هو أبرز زعماء الصهيونية في القرن العشرين، كما لاحظنا في عدة مرات. ونحن مخولون الحق في إصدار أحكام عن الصهيونية من مواقف هذا الرجل وسلوكه. بيد أن هذه المواقف قد كشفت عن نزعة قومية ضيقة، ومن المؤكد أنها قليلة القيمة، في جوهر المشروع الصهيوني، الذي كان على استعداد للمخاطرة

بأرواح اليهود «عشية» الهولوكوست، وهذه ليست مبالغة، كما أنها لم تكن انحرافًا لصالح بن جوريون. لقد كرر هذه العبارات حتى في شكل أكثير تنفيرًا. ففي خطاب إلى المكتب التنفيذي الصهيوني، في السنة نفسها التي شهدت مؤتمر إيفيان، كتب:

«إذا ما تعين على اليهود أن يختاروا ما بين اللاجئين، وإنقاذ اليهود من معسكرات التجميع، أو المساعدة في إقامة متحف وطني في فلسطين، الرحمة ستكون لها اليد العليا وسيتم توجيه طاقة الشعب كلها في سبيل إنقاذ اليهود من بلدان مختلفة».

«سوف يتم استبعاد الصهيونية من الأجندة.. وإذا سمحنا بحدوث انفصال بين مشكلة المهاجرين والمشكلة الفلسطينية، فإننا نكون قد غامرنا بوجود الصهيونية». (Bober, 1972:171)(69).

كان لموقف بن جوريون آثار حقيقية على الحياة والموت؛ فقد «عارض» مرة أخرى في السنة نفسها خطة بريطانية للسماح بهجرة عدة آلاف من الأطفال اليهود الألمان إلى المملكة المتحدة:

«إذا عرفت أنه سيكون ممكنًا إنقاذ جميع الأطفال في ألمانيا بجلبهم إلى إنجلترا، ونصفهم فقط إلى أرض إسرائيل (فلسطين) فإنني سوف أميل إلى الخيار الثاني. لأننا يجب أن نزن ليس فقط حياة هؤلاء الأطفال ولكن أيضًا تاريخ شعب إسرائيل» (Brenner 1983:149).

كان التأكيد على الحاجات المزعومة للدولة اليهودية المنتظرة على حساب أولوية الإنقاذ متسقًا مع الطريق التي كان يمكن بها لهذا الموقف أن يساوم بشأن المقاومة ضد النازي، بل حتى يقترح التعاون معهم. فعندما استولى هتلر على السلطة في سنة 1939م، أرسل له الاتحاد الصهيوني في ألمانيا مذكرة، لم تفقد قوتها الصادمة بعد «هل يُسمح لنا إذًا بأن نقدم آراءنا، التي هي في نظرنا، تتيح حلًّا في الاحتفاظ بمبادئ الدولة الألمانية الجديدة في الصحوة الوطنية، والتي قد تعني في الوقت نفسه بالنسبة لليهود تنظيمًا جديدًا لظروف وجودهم.. والتي تتكون في النهاية من نموذج غير عادي في الاحتلال، في وضع فكري وأخلاقي ليس له جذور في تراثنا الخاص» (Brenner 2002:42-3).

وتمضي المذكرة لكي تؤكد لهتلر أن الصهيونية سوف «تعارض» الحملة المعادية للنازية على اتساع العالم، والتي تنادي بمقاطعة البضائع الألمانية. وثمة تبرير لاحق لهذا السلوك غير المعتاد تمثل في اتفاقية «الترحيل» التي سبقت الحرب بسوء سمعتها، ففي هذه الاتفاقية تم السماح لليهود الألمان بمغادرة ألمانيا مع بعض متعلقاتهم إلى فلسطين. على أن يتم في الوقت نفسه بيع البضائع الألمانية لليهود في فلسطين، وقد استولى الفزع على بعض اليهود غير الصهاينة وكذلك بعض الصهاينة من جراء مثل هذا التعاون(70).

وثمة فزع من الصهيونية يبدو لكثير من المراقبين مستلهمًا حتى من النازية. ذلك أن حزب الليكود الموجود حاليًا، والذي هو حزب الأغلبية الحاكم حتى لحظة كتابة هذه السطور، نادرًا ما يعترف بهذا الشبح الذي يطل من غياهب الماضي. ومع ذلك، فإنه عندما قام أحد زعمائه الأكثر شهرة، والذي سيصبح رئيس الوزراء فيما بعد، وهو مناحم بيجين، بزيارة نيويورك في نهاية سنة 1948م، واجه هو ومنظمته السياسية هجومًا من أشهر عالم يهودي في العالم وهو ألبرت أينشتين. وقد أدان أينشتين -شأن الكثير من اليهود الأمريكيين البارزين- بيجين في جريدة

نيويورك تايمز لأنه يقود حزبًا «يشبه في تنظيمه، ومناهجه، وفلسفته السياسية ودعوته الاجتماعية الأحزاب النازية والفاشستيه» (Bernner 2002:184).

والآراء الثاقبة والتحذيرات واضحة بذواتها هنا. ففي الفترة التي يسميها برينر الصهيونية في عصر الديكتاتوريين(71)، كشفت الصهيونية عن سمة مزعجة ومخجلة، وهي استعدادها لإعطاء الأولوية لحاجاتها الخاصة على القضية العالمية الواضحة بحد ذاتها والخاصة بإنقاذ اليهود، مما يعني قدرتها على محاكاة السلوك الشمولي لمن يعذبها.

الهولوكوست، الناجون منه، والنكبة

بينما بدأت حقيقة الهولوكوست تنجلي بعد الحرب، صارت أكثر قضية مقنعة رفعتها الصهيونية حتى ذلك الحين، بحيث قزَّمت -بصراحة- السلوك فيما قبل الحرب وأثناءها، وقزمت الأحكام التعسة لبعض زعمائها.

وبدأت إحدى العواقب الخاصة جدًّا والعملية جدًّا للهولوكوست تفرض نفسها بإلحاح متزايد على الحلفاء المنتصرين، ولا سيما بريطانيا. فأين يعيش الناجون من الهولوكوست الآن؟

كانت الحرب قد أنهكت بريطانيا. وكانت مطالب الاستقلال الوطني عالية الصوت وواضحة في جميع أرجاء الإمبراطورية، ربما كانت الثورة الوطنية العربية الفلسطينية قبل الحرب قد تقلصت بشكل مؤقت، ولكن صناع السياسة البريطانية كانوا يعرفون تمامًا أن الأمر لم ينته، وأنه من المحتمل أن تندلع مرة أخرى في أي وقت. وكانوا يواجهون آنذاك تهديدًا جديدًا، إذ كانت الميليشيات الصهيونية المستقلة مستعدة لمواجهة جيش الاحتلال البريطاني حول مسألة الهجرة إلى فلسطين من جانب الناجين من الهولوكوست (Pappe 2001:21). وفي الحقيقة انهارت السياسة البريطانية بشكل مشين، وتم تمرير مستقبل فلسطين إلى الأمم المتحدة.

وليس هذا مكان مناقشة جدارة أو فعالية ما كان آنذاك مؤسسة دولية جديدة تمامًا تم تأسيسها، في أعقاب أكثر الصراعات العالمية دموية ورعبًا، في تحقيق العدالة -على المستوى البلاغي والخطابي على الأقل- العالمية وتأسيس آليات الحفاظ على السلم العالمي. ولكن پاپي، أحد الباحثين الإسرائيليين القلائل جدًّا المعادين للصهيونية، لاحظ أمرًا كاشفًا للغاية عن الاستجابة الأولية للأمم المتحدة تجاه الأزمة الفلسطينية. أما عن الأسباب التي تتعلق بالتفاعل بين سياسات القوة العظمى في الأمم المتحدة، لا سيما بين الولايات المتحدة والاتحاد السوڤييتي (Pappe 2001: 17-18)، فإن تدخل الأمم المتحدة في فلسطين قد تركتنا بإطلالة فريدة على الأحداث.

فقد تم تأسيس لجنة خاصة من الأمم المتحدة لفلسطين (UNSCOP) للتحقيق في الوضع بها وتقديم تقريرها عنها. وقد سمحت الولايات المتحدة، في محاولة لتقليل نفوذ الاتحاد السوڤييتي على اللجنة، إلى حد ما، أن يكون تكوين اللجنة خارجًا عن أيدي القوى الرئيسة. وقد أعطى هذا للممثلين من بلدان أصغر، بما فيه بلدان العالم النامي، رأيًا أكبر مما كان يمكن أن يحصلوا عليه. ولم يكن لدى الكثير من أعضاء اللجنة سابق معرفة بالصراع. فقد أضفى هذا على اللجنة حيرة، بل سذاجة، في طريقة فهمها للموقف في فلسطين، بيد أن ذلك كان يعني أيضًا أنها كانت عرضة للضغوط المباشرة دونما فهم للسياق.

هذه النقطة الأخيرة تم توضيحها بشكل درامي بوصول السفينة Exoudus وهي السفينة الشهيرة

التي كانت تحمل المهاجرين اليهود إلى سواحل فلسطين خلال الفترة التي كان أعضاء فريق لجنة الأمم المتحدة (UNSCOP) يقومون بعملهم. وقد راقبوا بدهشة كيف اعترضت السلطة البريطانية، التي كانت لا تزال السلطة الحاكمة في السفينة، ورفضت نزول ركابها، وفضلًا عن ذلك رفضت تحمل مسؤوليتهم، وتضمن هذا رفض اعتبار خيار البقاء المؤقت في بريطانيا نفسها. وبدلًا من ذلك تمت إعادة السفينة إلى ألمانيا. وليس هناك حادث، قبله أو بعده، سوف يلعب به الصهاينة بهذا القدر من الحسن. وسرعان ما صار مصير سفينة Exodus مادة لأسطورة(72). وبدا الحادث مؤكدًا القضية الصهيونية بشكل لا لبس فيه.

وهيمنت مسألة سفينة الإكسودوس على فريق لجنة الأمم المتحدة. ذلك أن زعماء الصهيوينية كانوا بالفعل قد أقاموا علاقة معهم، صوابًا أم خطًا، أما زعماء العرب الفلسطينيون فقد قاطعوا اللجنة (Pappe 2001:3). وحينئذ صارت أولوية لجنة الأمم المتحدة:

«مصير الناجين اليهود بدلًا من المطلب العربي بحسم مستقبل فلسطين وفق الحقيقة السكانية سنة 1947م. وكان النتاج أن قررت اللجنة أن تقبل الرابطة بين مصير اليهود الأوروبيين ومصير فلسطين» (Pappe 2001:25).

هنا كانت نقطة تحول حرجة في النضال من أجل تأسيس الدولة اليهودية. فقد كان الصهاينة قد كسبوا حرب الدعاية بزمن طويل قبل إطلاق أول رصاصة في الحرب الحقيقية من أجل السيطرة على فلسطين، بعد ذلك بسنة 1948م(73)، وكان دور لجنة الأمم المتحدة باعتبارها «سمسارًا أمينًا» للرأي العام على اتساع العالم، كان في الواقع موجهًا آنذاك لصالح الصهاينة، وقد تم إقرار ذلك بقضية السفينة Exodus.

كان الحليفان المنتصران في الحرب، بريطانيا والولايات المتحدة، مسؤولين عن هذا الموقف. وبينما استوعبتا بالفعل الكثير من الناجين، فإنهما لم تكونا مستعدتين بالتأكيد لأن تقدما للباقين إذنًا بالاستقرار في بلديهما (Pappe 2001: 576n:32)، بل إنهما لم تكونا جاهزتين حتى للبناء على مقاصد مؤتمر إيڤيان الدولي قبل الحرب واستخدام الأمم المتحدة باعتبارها الوسيلة الواضحة بعد الحرب للاستجابة الدولية المشرفة لأزمة اللاجئين اليهود. وفجأة بدت الحالة الصهيونية وكأنها وسيلة تدعو للإعجاب في حل «المشكلة». وكانت هذه إعادة تدوير للمستويات الأخلاقية المتدنية تمامًا للسلوك الدولي كما جسده السياسي البريطاني بلفور، والذي نعرضه في الفصل الأخير: اقلب اليهود غير المرغوب فيهم إلى فلسطين.

ومن المحتمل أن بعض السياسيين الأمريكيين «بعيدي النظر» كانوا قد عرفوا فعلًا مدى ما يمكن أن تسديه دولة يهودية جديدة من خدمات لمصالح الولايات المتحدة ومن المؤكد أننا نعرف أن قادة جيش الولايات المتحدة العسكريين قد انبهروا بانتصار إسرائيل فيما يسمى «حرب الاستقلال» ضد العرب. وكان لهم أن يصفوا الدولة الجديدة بأنها القوة الإقليمية الكبرى بعد تركيا، وتقدم للولايات المتحدة الوسيلة التي تحقق لها «الميزة الاستراتيجية في الشرق الأولى التي سوف تمحو آثار تدهور القوة البريطانية في المنطقة» (Chomsky 1996: 204). بيد أن هذا ما سنناقشه في الفصل التالي.

أين كان الناجون من الهولوكوست أنفسهم يريدون الاستقرار؟ لقد أخبر الجنرال كلاي، الحاكم العسكري الأمريكي لألمانيا، فريق لجنة الأمم المتحدة أنه بتجربته يرى أن الناجين من المعسكرات يختارون الذهاب إلى فلسطين، ولكنه أضاف قائلًا: «أنا لا أعرف طبعًا كيف يمكن

أن يصمد هذا في مواجهة فتح البلاد الأخرى للهجرة» (Pappe 2001:27). وتلك هي المشكلة. نحن لا نعرف لأن ذلك لم يكن أبدًا محل اختيار. وعلى أي حال، فإننا نعرف كيف نجح الصهاينة في العمل داخل معسكرات الترحيل، أي المعسكرات التي أقيمت للناجين. فقد كان باستطاعتهم تنسيق شهادات الناجين أمام لجنة الأمم المتحدة UNSCOP.. وقد تم تلقين المهاجرين الذين تم اختيارهم لمقابلة اللجنة الدعاية الصهيونية والمصطلحات الصهيونية تمامًا.

وبنهاية سنة 1949م، أي بعد سنة واحدة فقط من تأسيس الدولة اليهودية، كان هناك ما يقرب من 350 ألفًا من الناجين من الهولوكوست يعيشون في إسرائيل يمثلون ثلث جمهرة السكان تقريبًا (Seveg 1993: 154). وفي حرب 1948م، كان نحو ثلث الجنود من الناجين من الهولوكوست (Seveg 1993: 176).

وظهر أن التبرير الأخلاقي لتأسيس إسرائيل قد تعزز بفضل هذه البقية الحية من الهولوكوست. ومع ذلك فإنه بمقاييس الأخلاق، ينبغي أن نناقض فورًا هذه الحقيقة بالغة الأهمية بحقيقة أخرى. ففي بواكير سنة 1947م، كان اليهود يملكون 7 بالمئة من الأراضي بفلسطين، وبعد ذلك بسنوات ثلاث كانوا قد استولوا على 92 بالمئة من الأراضي داخل الدولة الجديدة، بما في ذلك مساكن العرب ومبانيهم من كل نوع (Kimmerling 1983:143). وكما لاحظ أندرسون، كان هذا يشكل احتلالًا استيطانيًا بمعدل واسع وسريع، لم يسبق له مثيل في تاريخ الاستيطان (Anderson 2001:12) وبمعنًى يصعب جدًّا تحديده، هناك رابطة بين جسامة جريمة الهولوكوست التي ارتكبت في حق ضحاياها الرئيسين، وكثافة الاحتلال الاستيطاني الذي جرى باسم هؤلاء الضحايا. كذلك كانت هناك وحشية ذات مضامين تتصل بالإبادة العرقية، في قلب موجة الاستيطان تسبب إزعاجًا مشابهًا لما سببه الهولوكوست.

دير ياسين والنكبة

في 9 أبريل 1948م، وأثناء الحرب التي قد بدأت آنذاك بين الصهاينة والعرب، قامت إحدى الميليشيات الصهيونية الموصومة بالتعصب بصفة خاصة، والتي كان يقودها مناحم بيجين، بدخول قرية دير ياسين العربية، وذبحوا معظم سكانها البالغ عددهم أربعمئة نسمة. وقد سجَّل جاك دي رينيه من هيئة الصليب الأحمر الدولي التفاصيل الشنيعة (Hirst 1977:128). وسرعان ما صارت دير ياسن رمزًا لمدى كثافة الإرهاب الذي كان الصهاينة على استعداد لممارسته لإجبار الفلسطينيين على الفرار من دورهم. ودير ياسين والنكبة، تعبران عن كيفية تذكر الفلسطينيين لطردهم الإجباري من وطنهم والذي شمل نحو 750 ألف قروي فلسطيني، وهو ما يرتبط أيضًا بطريقة غير مؤكدة بجسامة جريمة الهولوكوست. وموضوع خاتمة هذا الفصل هو (مناقشة هذه المسألة). ففي السنوات الأخيرة، قام بعض اليهود من ذوي العقليات التقدمية في بريطانيا وأصدقاؤهم من الفلسطينيين والعرب الآخرين بالبدء في تخليد ذكرى دير ياسين. وقد أثار هذا نقاشًا رئيسًا داخل الجماعة اليهودية. وقد وجد عفيف صافية، المندوب العام الفلسطيني في المملكة المتحدة، والسفير الفلسطيني في الوقت نفسه، مشتبكًا في الجدل الدائر على صفحات الأدب في جويش كرونيكل، مع رجل دين يهودي بريطاني معروف قليلًا لم يكن لديه استعداد لقبول تفسير دير ياسين طبقًا للخطوط العريضة الواردة في السطور السابقة. ورد عفيف جاء في صميم الموضوع، كما يلي:

«لندن 10 أبريل 2001

الراباي (الربي) الدكتور سيدني بريشتو (Letters, March 30) يبدو متضايقًا من الاقتباس من كلام حييم وايزمان في الكتيب الذي يحمل عنوان (Remembered Deir Yassin) لأنه يقول: «لقد كان ذلك تطهيرًا إعجازيًّا للأرض». بيد أنه لا ينازع بشأن صحة الاقتباس ودقته.

وعن الهروب الجماعي للفلسطينيين في سنة 1948م قال بن جوريون أيضًا: «لقد كان ذلك تبسيطًا إعجازيًّا للمشكلة». وأود أن أعرف يومًا ما رد فعل الدكتور بريشتو، دائمًا اعتبر أن الله بريء من هذا. لقد وثق المؤرخون الفلسطينيون حتى الآن 537 قرية سويت بالأرض في سنة 19م على أيدي السلطات الإسرائيلية، وذلك لكي تحول دون إمكانية عودة اللاجئين الفلسطينيين. أما بالنسبة لدير ياسين فإن الراحل مناحم بيجين قد تفاخر في مذكراته التي نشرها 1952م بعنوان «La Révolte»، قائلًا إنه من دون دير ياسين لما كانت هناك إسرائيل، وأنه بعد دير ياسين، تمكنت القوات الصهيونية من التقدم مثل «سكين ساخن في الزبد». وقد نُصح فيما بعد بأن يحذف هذا من الطبعات التالية لمذكراته.

لقد أوقعت المؤسسة السياسية الإسرائيلية بالفلسطينيين أربعة صنوف من الإنكار أولًا جاء إنكار وجودنا ذاته. ثم تلاه إنكار حقنا. وكان هذا كله مصحوبًا بإنكار معاناتنا وإنكار مسؤوليتهم الأخلاقية والتاريخية عن هذه المعاناة. إن إنكار الدكتور بريشتو للنكبة مزعج بنفس الدرجة.

إنني لم أربط بين النكبة والهولوكوست. وكانت قناعتي دائمًا أنه لا حاجة بنا للمقارنات والمشابهات التاريخية.

«ليس هناك شعب واحد يحتكر معاناة البشر وكل مأساة عرقية لنفسه. ولو كنت يهوديًّا أو غجريًّا، فإن بربرية النازية ستكون أشد أحداث التاريخ شناعة. وإذا ما كنت إفريقيًّا أسود لكانت العبودية والفصل العنصري هي أشنع الأحداث التاريخية. وإذا كنت من سكان أمريكا الأصليين لكان اكتشاف العالم الجديد على أيدي المستكشفين الأوروبيين والمستوطنين الذي نتجت عنه الإبادة الكلية تقريبًا هي الأشنع. وإذا ما كنت أرمنيًّا، لكانت الحوادث الأشنع في التاريخ هي المذابح التي ارتكبها العثمانيون. ولكن ما حدث هو أنني فلسطيني، وبالنسبة لي تمثل النكبة أسوأ أحداث التاريخ. ينبغي على الإنسانية أن تعتبر ما سبق ذكره أمرًا كريهًا، ولست أعتبر أنه من حسن المشورة أن نجادل في تراتيب المعاناة. ولست أعرف كيف نقيس كمية الألم أو نقيس المعاناة. وما أعرفه حقًّا هو أننا لسنا مخلوقات لإله أقل».

عفيف صافية

وإذ بدأ يسرد ذكرياته الشخصية عن النكبة في اجتماع حاشد في المركز الثقافي المصري بلندن أوائل سنة 2003م، وصف الكاتب الراديكالي والمذيع طارق علي ضحايا النكبة بأنهم ضحايا إضافيون للهولوكوست. إن «النظريات والتحذيرات» التي نناقشها في هذا الفصل تؤكد حقيقة هذا الافتراض.

عِبر وتحذيرات من الهولوكوست والنكبة

في عصر الفظاعة والوحشية، تم التضحية بحياة الفلسطينيين لخلق فضاء لحياة اليهود على الأرض الفلسطينية التي أعيدت تسميتها الأرض اليهودية. وعلى مدى جيل كانت محاولة بناء

يهودية صهيونية تنكر بوضوح الهوية الفلسطينية. وقد أدت المواجهة الطويلة مع الفلسطينيين إلى هذه الانفجارات الصهيونية الكثيرة التي لها تشابهات مع العنصرية التي تؤمن بالإبادة والاستخدام المطلق للعنف في العصر النازي.

ويتم تكريس الدكتور باروخ جولد شتاين، الصهيوني الأمريكي المولد والمستوطن الذي فتح النار في هجوم بسلاح الجيش الإسرائيلي (Shlaim 2000:524)، وقتل 29 من المصلين المسلمين في ضريح الخليل باعتباره رجلًا يحمل حلمًا في بعض دوائر المستوطنين الصهاينة.

وقد كتب الروائي الإسرائيلي دافيد جروسمان، في أعقاب اغتيال رئيس الوزراء الإسرائيلي إسحاق رابين، على يد صهيوني يميني متطرف آخر، محذرًا الإسرائيليين من أنهم إذا ما استمروا في تجاهل «عمق السم الداخلي الذي يسببه لنا استخدامنا الهائل للعنف»، فإنهم سوف يهلكون (Jewish Chronicle, 10 November 1995).

وفى بعض الأحيان يكون الناجون من الهولوكوست أنفسهم مجبرين على رصد التشابهات. فقد أضرب الدكتور شلومو شميلزمان عن الطعام أثناء الغزو الإسرائيلي لبيروت الغربية في لبنان سنة 1982م. وفي خطاب التفسير الذي أرسله، كتب:

«في طفولتي عانيت الخوف، والجوع والإهانة عندما عبرت من الجيتو في وارسو.. إلى بوشنوالد.. إنني أسمع اليوم الكثير من الأصوات المألوفة.. إنني أسمع عبارة «العرب القذرون» وأتذكر عبارة «اليهود القذرون». وأسمع عن المناطق المغلقة، وأتذكر مناطق الجيتو والمعسكرات. إنني أسمع عبارة «الوحوش ذات الساقين» وأتذكر العبارات الألمانية المشابهة «Untermenschen» أدنى من البشر.. إن هناك أشياء أكثر مما ينبغي في إسرائيل تذكرني بطفولتي» (Chomsky 1999:257).

وحدث أثناء الحصار الإسرائيلي لبيروت أن قامت ميليشيا مسيحية متعصبة تساندها قوات الدفاع الإسرائيلية التي أغلقت مخيمي اللاجئين الفلسطينيين في صابرا وشاتيلا، «بالدخول إلى المعسكرين وذبحت السكان بطريقة همجية.. تحت مراقبة قوات الجيش الإسرائيلي التي كانت على مبعدة ياردات قليلة» (Chomsky 1999: 364-5).

وقد صدمت مذابح صابرا وشاتيلا العالم. ووصفت بأنها جريمة حرب. ومفهوم «جريمة حرب» نفسه حصاد محاولات تحديد النظام القانوني الجديد في العدالة العالمية بعد ظلال الفترة النازية.

ونحن نتعامل ههنا مع العبر والتحذيرات من الهولوكوست. ونحن لا نناقش المساواة بين الصهيونية والنازية. بيد أن الرفض الأيديولوجي لإدراك أن الصهيونية والتطلعات المشروعة للشعب الفلسطيني نقيضان لا يلتقيان يمكن أن يستمر ليؤدي إلى تحذير الصهيونية في تطرفها، ويطلق عنان تجليات أكبر مما سبق في عنف الإبادة العرقية. وثمة دوامة يمكن أن تنفتح حيث يمكن أن تنهار المعايير المتحضرة التي لا تزال تمارس بعض الكبح نهائيًا. ونحن لا نفهم بشكل كامل ما هو بالضبط الذي يؤدي إلى هذا الانحدار صوب البربرية(74).

ومن حسن الطالع، أنه لا يزال هناك وقت لتجنب هذا. فقد تراجع نظام الفصل العنصري، وحل نفسه، وسوف نتأمل ما إذا كان التطور «فيما بعد الصهيونية» في إسرائيل يشي بإمكانية تراجع مشرف مماثل بشكل موجز في الخاتمة.

***

حاول هذا الفصل أن يتحدى الطريقة التي استغلت بها الدولة الإسرائيلية الهولوكوست لإضفاء المشروعية السياسية عليها. وقد تم اقتراح أن العبر والتحذيرات التي تصدر عن استكشاف التوترات بين الجوانب العالمية والجوانب الخاصة في الهولوكوست تشير في اتجاه مختلف تمامًا. وبمعنى ما، فإن هذه العبر والتحذيرات مفهومة تامًا. إذ إنها تتوافق مع الخطاب الراسخ الآن عالميًّا بشأن العدالة، كما أنها أسهمت فيه، وهو خطاب حقوق الإنسان وحقوق المواطنين، باعتراضه غير المشروط على الاحتلال الاستيطاني والعنصرية بجميع أشكالها، ودفاعه عن الحقوق العالمية للاجئين(75) وبمعنى حقيقي تمامًا تتم صياغة قوانين أخلاق دولية جديدة. وهذا يعزز الاستجابة العدائية من الرأى العام العالمي للطريقة التي تتصور بها الحكومات الإسرائيلية المعاصرة حاجاتها الخاصة المحددة بشكل ضيق في مواجهة حاجات الشعب الفلسطيني. وفي الفصل الأخير سوف ندرس المضامين النهائية.

لا تجعل الندبة تقوم بعمل الجرح

لقد ترك لنا بيتر نوفيك عبرة وتحذيرًا نهائيًّا على استغلال الذاكرة عن المآسي العميقة. وهو يقتبس فقرة من كاتب، هو ابن أحد الناجين من الهولوكوست، اسمه ليون ڤيلسيلتير، محذرًا من أن الذاكرة الجماعية للاضطهاد يمكن غرسها:

«إن إحساسًا معزولًا... بالانفصال... إنه يحول التجارب إلى تراث لأنه يلغي الزمان والمكان، فالذاكرة الجماعية... تجعل الفرد والجماعة في حالة شك طاغية حول التغيير، ولا تعدهم للانقطاع.. وتعاليمها تقول لا تنخدعوا، لا يوجد غير التكرار...

في ذاكرة الاضطهاد، يعيش الاضطهاد أكثر من عمره، وتقوم الندبة بعمل الجرح.. وتكون للظلم قوة التشويش الذي يستمر طويلًا بعد توقفه حقًّا. إنه انتصار للطغاة بعد موتهم عندما يصير الألم تراثًا».(76) (Novic 1999:281)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل التاسع:
هل هي إسرائيل الصغيرة الجسورة؟
أم محمية القوة العظمى؟ (2)
الرصيد الاستراتيجي للولايات المتحدة

يدين هذا الفصل بأصوله إلى أهم كتاب ظهر عن إسرائيل في النصف الأخير من القرن العشرين وهو كتاب نعوم تشومسكي.

The Fateful Triangle , The United States, Israel and the Palestinians

يقول إدوارد سعيد في تقديم أحدث طبعة:

ربما يكون كتاب Fateful Triangle أكثر الكتب طموحًا في محاولة دراسة الصراع بين الصهيونية والفلسطينيين من حيث رؤيته لتورط الولايات المتحدة في الصراع بصورة مركزية. إنه فضح عنيد للفساد البشري والجشع البشري وعدم الأمانة الإنسانية.. ويمكن قراءته باعتباره حربًا ممتدة بين الحقيقة وسلسلة من الأكاذيب -مثل الديمقراطية الإسرائيلية- وخلو إسرائيل من الأسلحة، والاحتلال الرحيم، واللاعنصرية ضد العرب في إسرائيل، والإرهاب الفلسطيني... وبعد ترديد الحكاية الرسمية، فسرعان ما ألقى بها بعيدًا بقدر كبير من الأدلة المضادة (Chomsky 1999: 7)(77).

كان هناك سبب بسيط للغاية في أن الولايات المتحدة ربما كانت بحاجة إلى رصيد استراتيجي (Chomsky 1999:20) في الشرق الأوسط في السنوات التي أعقبت الحرب العالمية الثانية. فقد كان هذا هو الإقليم، كما ذُكر في تحليل وزارة الخارجية 1945م، الذي يحتوي على «أحد أكبر الجوائز المادية في تاريخ العالم» (Chomsky 1999;17) أي البترول. وكان بوسع إسرائيل أن تلعب دورها للمساعدة في إحاطة الإقليم ببناء عسكري، تكون مهمته حماية إمدادات البترول الغربية.

وبمرور الوقت كان لا بد لإسرائيل أن تكون مستفيدة من المعونة العسكرية والمدنية(78)أكثر من أي دولة أخرى تابعة للولايات المتحدة، وقد وصل إجمالي هذه المعونة في نهاية القرن العشرين إلى نحو مئة مليار دولار.

ونادرًا ما يعترف الرؤساء الأمريكيون بالأسباب الحقيقية لمثل هذه المعونة الكبيرة، ولكن الرئيس ريجان كسر الغطاء الدبلوماسي، عندما أفلت منه التصريح التالي:

«مع توفر قوة عسكرية ذات خبرة، تكون إسرائيل في الشرق الأوسط قوة ذات فائدة حقيقية بالنسبة لنا. وإذا لم تكن هناك إسرائيل بتلك القوة، لتعين علينا أن نوفر ذلك من جانبنا، ولذلك فإن هذا ليس مجرد إنكار للذات من جانبنا». (Aruri 2003:39).

ولكن من المهم أن ندرك أنه كان على إسرائيل أن تكسب هذا وأن تتعلمه. وقد وصفت الفصول السابقة كيف أن الصهيونية كانت تعتمد تمامًا على رعاية القوة العظمى. وفي غضون ثلاث سنوات فقط من تأسيس إسرائيل، كان منظروها جاهزين للربط بين بقاء إسرائيل والمقاصد العدوانية «للقوى الغربية».

وقد كتب چيرشوم شوكن، ناشر هاآرتس ورئيس تحريرها، التي يقال إنها أكثر صحف إسرائيل جدية، سنة 1951م ما صار بعد ذلك فعليًّا بيان مهمة إسرائيل:

«إن تقوية إسرائيل تساعد القوى الغربية على الحفاظ على التوازن والاستقرار في الشرق الأوسط. يجب أن تصبح إسرائيل كلب حراسة. ولا خوف من أن تتخذ إسرائيل أي سياسة عدائية عدوانية تجاه الدول العربية إذا تعارض ذلك بشكل واضح مع رغبات الولايات المتحدة وبريطانيا. إذا حدث عداء لأي سبب كان على القوى الغربية أن تغمض أعينها، فإنه يمكن الاعتماد على إسرائيل لإنزال العقاب بدولة أو بعدة دول من دول الجوار التي يتخطى جفاؤها تجاه الغرب حدود المسموح». Ha’aretz 30 September 195: cited Bober 1972:16-17).

وقد تصادف أن سنة 1951م كانت السنة التي قام فيها الدكتور مصدق، الزعيم الوطني الراديكالي في إيران، بتأميم البترول. وقد سارت الوطنية الراديكالية لكي تكتسح جميع أرجاء الشرق الأوسط. وبيان النوايا التي أعلنتها إسرائيل لم يكن ممكنًا أن يكون أكثر قدرة على معرفة المستقبل من ذلك. ستصبح إسرائيل فعليًّا كلب الحراسة.

دور إسرائيل في مغامرة السويس وتهديدها لتحرير الجزائر

في غضون ثماني سنوات من تأسيس إسرائيل، كانت الدولة اليهودية تضطلع بدور في مغامرة عسكرية وإمبريالية، مع بريطانيا وفرنسا، في محاولة للإطاحة بالرئيس جمال عبد الناصر، زعيم مصر الوطني الثوري. ففي سنة 1956م أمم جمال عبد الناصر قناة السويس الشريان الرمزي والعالمي الكبير لناقلات البترول المتجهة إلى الغرب، وهو عمل لاقى شعبية كبيرة في جميع أنحاء الشرق الأوسط وما وراءه. وعندما أعلنت بريطانيا وفرنسا وإسرائيل الحرب على مصر، استنفروا غضب العالم الذي أجبر حتى الولايات المتحدة على الدعوة إلى كبت ذلك.

هذه الحقائق الأساسية معروفة جيدًا، ولكن ما هو معروف بدرجة أقل هو كيف أن فرنسا هي التي صارت راعية إسرائيل العسكرية في تلك الأيام الباكرة(79).

ففي الوقت الذي كانت فرنسا مشتبكة في واحدة من أكثر الحروب ضد الاستعمار مرارة في القرن العشرين. كانت قد عقدت العزم على التمسك بمستعمراتها في شمال إفريقيا، خاصة الجزائر مهما كان الثمن. وصار الثوار الذين تمثلهم جبهة التحرير الوطنية رمزًا لمطالب العالم النامي، أو «العالم الثالث»، بوجوب الإطاحة بالقهر الاستعماري إلى الأبد. وقد ألهم هذا الصراع فرانز فانون لتأليف كتابه the wretched of the earth وهو كتاب يُضفي الشرعية على العنف الثوري، وقُيض له أن يصير مانفستو حقيقيًّا لكل أشكال النضال ضد الاستعمار.

وعندما تولى ناصر السلطة في مصر، أصاب فرنسا الهلع. إذ إن ناصر وعد بتقديم المساعدة لجبهة التحرير الجزائرية. وعندئذ صارت فرنسا مصابة بالهوس من عبد الناصر وبدأت تتآمر مع إسرائيل للسعي إلى التخلص منه. ومن ثم عُقدت صفقة سرية بين البلدين سنة 1955م.

حيث قدمت فرنسا الطائرات والدبابات والذخيرة إلى إسرائيل بمعدل بدأ في تحويل طموحاتها الإقليمية العدوانية إلى حقيقة. ودعت الاتفاقية أيضًا إلى التعاون المشترك مثل وضع محطات إسرائيلية للتشويش على الدعاية المصرية في كل أنحاء العالم العربي، وكذلك ضرب قواعد جبهة التحرير الجزائرية في ليبيا (Shlaim 2000:164-5). وكانت فرنسا أيضًا هي التي زودت إسرائيل بالتكنولوجيا النوية (Shlaim 2000:175-6) .

لقد وضعت إسرائيل نفسها بشكل واضح في جانب القوى الاستعمارية الغربية وفي الوقت نفسه مع المستعمرين الفرنسيين شديدي العنصرية الذين استوطنوا الجزائر، وهم الذين سيقدمون فيما بعد الإلهام والكوادر للجبهة الوطنية النازية الجديدة في فرنسا.

وكان لهذه الحوادث أن تترك انطباعات عميقة على الولايات المتحدة. إذ إن أزمة السويس كانت قد أوضحت أن بريطانيا وفرنسا انتهى زمانهما كدولتين استعماريتين وفي الوقت نفسه، كانت إسرائيل تبرهن على أنها حليف عسكري خطير في الميدان. وثمة مذكرة صادرة عن مجلس الأمن القومي في الولايات المتحدة عام 1958م لاحظت أن «لازمة منطقية» في معارضة القومية العربية الراديكالية «ينبغي أن يكون دعم إسرائيل بصفتها القوة الوحيدة الموالية الباقية للغرب في الشرق الأوسط». وقد شجعت الولايات المتحدة التحالف السري بين تركيا وإيران والحبشة في ذلك الوقت «التحالف الدائري» (Chomsky 1999:21).

1967-1973م: إخراج ناصر وظهور الرئيس نيسكون

أعظم أصدقاء إسرائيل، ولكنه صديق غير متوقع

كانت حرب 1967م الإسرائيلية - العربية قد حسمت دور إسرائيل باعتبارها الرصيد الاستراتيجي للولايات المتحدة في الشرق الأوسط. وقد أهانت إسرائيل عبد الناصر وحلفاءه العرب. ولم يبرأ عبد الناصر أبدًا من هذه الهزيمة حقًّا. كما أن القومية العربية الراديكالية نفسها تم تقويضها، وبدأت الممارسات السياسية للإسلاميين المتشددين تحل محل القومية العربية باعتبارها القوة الرئيسة المعادية للإمبريالية في المنطقة. واستولت إسرائيل على مساحات ضخمة من الأراضي الجديدة، بما في ذلك القدس كلها، والضفة الغربية وغزة ومرتفعات الجولان في سورية. وكما بينت بوضوح إحدى وثائق الخارجية الأمريكية، اعتراف الولايات المتحدة بقدرة إسرائيل على تمثيل مصالحها:

«ربما تكون إسرائيل قد أسدت إلى الولايات المتحدة في الشرق الأوسط بالنسبة للمال والمجهود المستثمر أكثر من أي حليف من حلفائنا وأصدقائنا في أي مكان آخر بالعالم منذ الحرب العالمية الثانية. ففي الشرق الأقصى لا نكاد نجد أحدًا يساعدنا في ڤيتنام، أما هنا فقد كسب الإسرائيليون الحرب، وحدهم، وخلصونا من المشكلة وخدموا مصالحنا بقدر ما خدموا مصالحهم». (Bonds et al. 1977:116).

وفي ذلك الحين بدأت الولايات المتحدة ترسل إلى إسرائيل الأسلحة عالية التعقيد، بما في ذلك طائرات الفانتوم الخارقة لسرعة الصوت التي أطلقت ضد مصر بعد ذلك بأربع سنوات بموافقة من الولايات المتحدة (Shlaim 2000:293). وفي هذه السنوات الأربع تلقت إسرائيل معونة عسكرية قدرها 1.5 مليار دولار من الولايات المتحدة، وهي تزيد عشر مرات على الكمية التي تم إرسالها في السنوات العشرين السابقة.

بيد أن هذه الفترة شهدت أيضًا اختبار قوة إسرائيل العسكرية اختبارًا عصيبًا. ففي سنة 1973م، شن أنور السادات خليفة جمال عبد الناصر، بالاشتراك مع سورية، هجومًا مفاجئًا على إسرائيل، فيما يسمى بحرب يوم كيبور (Shlaim 200:318) وقد كشفت هذه الحرب عن مدى قوة العلاقات بين إسرائيل والولايات المتحدة. إذ تعين على الولايات المتحدة آنذاك أن تعمل بدلًا من أن تنظر بعين الرضا لاستخدام إسرائيل الأسلحة التي أعطتها لها الولايات المتحدة في إخضاع أعدائها العرب. ذلك أن حسابات الولايات المتحدة أوصلتها إلى أنه كان هناك احتمال جدي بأن تخسر إسرائيل هذه الحرب، وهو احتمال لم تكن قادرة على تقبله تحت أي ظروف.

كان هذا في الفترة التي أعقبت الهزيمة العسكرية التي تكبدتها الولايات المتحدة في ڤيتنام. وكانت نذر المقاطعة البترولية تتجمع. التوحد مؤقتًا بين العقيد القذافي بليبيا الذي يمثل أكثر البلاد المنتجة للبترول راديكالية، وبين أكثر بلدين رجعيين ينتجان البترول وهما إيران والسعودية. وكان الهدف الرئيس من المقاطعة البترولية هو توجيه سوق البترول على نحو أكثر ملاءمة لمنتجي البترول، والمساعدة في جعل منظمة الأوبك (منظمة الدول المنتجة والمصدرة للبترول)، وهي مؤتمر عالمي على المستوى السياسي والاقتصادي ينبغي أن يُحسب له حسابه. بيد أن زعماء المقاطعة البترولية كانوا يطلبون أيضًا بصراحة من الولايات المتحدة أن تكبح جماح إسرائيل. وفي ذلك الحين خرجت إلى العلن الرابطة التي كانت محل شك زمنًا طويلًا بين رغبة الولايات المتحدة في السيطرة على بترول الشرق الأوسط ودعم الولايات المتحدة لإسرائيل. وقد اكتست الأزمة مرارة إضافية بسبب فضيحة فساد وترجيت التي كانت تشمل نيكسون.

فلم يكون هنري كيسنجر، وزير خارجية الولايات المتحدة ومستشار نيكسون في شؤون الشرق الأوسط، يحمل أي شكوك بشأن استراتيجية الولايات المتحدة، فقد كانت مسألة تحقيق نصر إسرائيل مسألة جوهرية. ولم يكن هناك محل لكبح جماح إسرائيل. وكان هذا جزءًا مما صار معروفًا باسم مذهب نيكسون، وكما شرح كيسنجر:

«لقد أنقذت الولايات المتحدة إسرائيل من الانهيار في نهاية أول أسبوع بفضل إمدادات الأسلحة التي قدمناها لها.. وزعم البعض أن الاستراتيجية الأمريكية كانت ترمي إلى إنتاج وضع يمتنع فيه التحرك في حرب 1973م. وهذا خطأ تمامًا. إذ كان المطلوب إلحاق أكبر هزيمة ممكنة بالعرب.. لقد سعينا إلى كسر الجبهة العربية المتحدة» (80)(MERIP Report 1981).

كانت مصر، تاريخيًّا، زعيمة هذه الجبهة الموحدة ضد إسرائيل. وكما لاحظ آروري أن الهزيمة العسكرية أتاحت فرصة لكيسنجر لكي ينتزع مصر تمامًا من معارضة إسرائيل في مقابل مبالغ ضخمة من الدولارات الأمريكية. وصارت مصر محصورة في فخاخ الدبلوماسية الأمريكية «بحيث صار أمام إسرائيل الوقت لتدعيم احتلالها للأراضي الفلسطينية التي تم الاستيلاء عليها بعد حرب سنة 1967م، كما بنت قدرتها الهجومية في مواجهة بقية الدول العربية على الجبهة الشرقية» (Aruri 2003:22).

مذهب نيكسون: لا حاجة إلى «اللوبي اليهودي»

تمت صياغة مذهب نيكسون ردًّا على اندحار الولايات المتحدة الأمريكية في ڤيتنام. وبطبيعة الحال كانت مصالح الولايات المتحدة في العالم النامي لا تزال بحاجة إلى الحماية. ولكن منذ ذلك الحين سوف تستخدم التفويضات (Shlaim 2000:309) أي استخدام القوى الإقليمية

ذات القواعد المحلية والمكرسة لحماية رؤية الولايات المتحدة للحالة الراهنة. وكانت إسرائيل مناسبة لهذا الدور على نحو يثير الإعجاب.

ومنذ ذلك الحين صار نيكسون أول رئيس للولايات المتحدة يقر بشكل شامل سبب وجود إسرائيل Maison detre، وفهمها لذاتها على أنها «كلب حراسة» للقوى الغربية. وللوهلة الأولى، يبدو نيكسون، وهو جمهوري يميني، أكثر مرشحي البيت الأبيض رفضًا لمزاعم الدولة اليهودية. وعلى أي حال، نجد أمامنا رئيسًا أمريكيًّا اعتاد على التباهي بتجاهل ما يسمى اللوبي اليهودي في أمريكا. ولم يكن يعتمد على الأصوات اليهودية بأي حال. والحقيقة، ووفقًا لرواية كيسنجر، كان نيكسون يسلم بأن اليهود يعادونه سياسيًّا:

«كان الرئيس مقتنعًا بأن معظم قادة الجماعة اليهودية عارضوه طوال مسيرته السياسية، وكانت النسبة الصغيرة من اليهود الذين صوتوا له، موضع تندره، لدرجة أنه كان يقول إنهم مجانين ويحتمل أن يلتصقوا به حتى لو انقلب على إسرائيل. وكان يبتهج وهو يخبر مساعديه وزواره أن «اللوبي اليهودي» ليس له تأثير عليه». (Organski 1990:25).

ويقتبس أورجانسكي، وهو عالم في العلوم السياسية، هذه الفقرة، وفقرات أخرى مشابهة، من مذكرات كيسنجر، يستبعد فيها تمامًا تأثير «اللوبي اليهودي» على العلاقات الإسرائيلية الأمريكية. وتظهر دراساته الإمبريقية العملية (المبنية على الملاحظة) الواعية كيف أن الأصوات اليهودية والإسهامات المالية اليهودية في الحملات الانتخابية لم تحدث سوى فرق ضئيل في السلوك السياسي لأعضاء مجلس الشيوخ وأعضاء الكونجرس على مرِّ السنين. وهو يركز الانتباه على أغلبية السياسيين الأمريكيين الذين لا يدينون للدعم اليهودي بأي دين. وهو يكتشف أنهم يدعمون إسرائيل بطريقة لا تختلف عن طريقة أولئك السياسيين الذين يمكن اعتبارهم متأثرين بالأصوات اليهودية أو بالمساهمات اليهودية في حملاته الانتخابية. وما يهمهم هو مفهومهم لسلوك إسرائيل في المنطقة. وهم يرون صفقة. فبخلاف المعونة لبلاد أخرى كثيرة «المساعدة الاقتصادية تُسدي بعض الخير على الأقل لشعب إسرائيل، على حين أن المعونة العسكرية تُسدي الكثير من الخير لصورة تكنولوجيا أمريكا وقوتها» (Organski 199:82). عنوان دراسة أورجانسكي The 36 Billion Dollar Bargain. ويرى السياسيون الأمريكيون حزمة المعونة الأمريكية لإسرائيل، في المصطلح التقليدي لليبرالية الجديدة، بأنها تساوي ما تحصل عليه أمريكا من خدمات وأنها تحقق لها مكاسب أيضًا.

سحق منظمة التحرير الفلسطينية:

كيف ساندت الولايات المتحدة غزو إسرائيل لبنان في 1982م

في بداية أوائل الثمانينيات، كانت هيئة أركان منظمة التحرير الفلسطينية في بيروت الغربية. وكان المقاتلون الفلسطينيون المسلحون يجوبون شوارع المدينة. وكانت خدمات الرعاية الفلسطينية تحاول جلب المساعدة إلى آلاف اللاجئين الفلسطينيين الذين يعيشون في لبنان. وكان الأمر يبدو وكأن دولة فلسطينية جنينية قد ظهرت في منطقة حدود لبنان الجنوبية مع إسرائيل، على الرغم من أنها لم تكن في مكانها الملائم وكانت إسرائيل تنتظر الفرصة لسحقها.

وقد اتفقت كل من إسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية على أن تدمير منظمة التحرير الفلسطينية أو على الأقل ضربها بشدة، هو شرط مسبق لتحقيق (السلام) وفقًا للصيغة

الأمريكية - الإسرائيلية في الشرق الأوسط. وهنا كان التطبيق المباشر لمفهوم (الحائط الحديدي) الذي كان رائده اليميني الصهيوني جابوتنسكي في عشرينيات القرن العشرين وطبقته الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة .(Shalim 2000)

وقد كانت الولايات المتحدة آنذاك شريك إسرائيل المرحب بضرورة كسر إرادة الوطنية الفلسطينية.

وقبل الغزو الإسرائيلي مباشرة، زار شارون واشنطن حيث زعم أنه حذر الإدارة الأمريكية، على ما يزعم، من أنه سيكون على إسرائيل أن «تتصرف في لبنان». ويكشف أعضاء في البنتاجون عن كمية ضخمة من الإمدادات العسكرية من الولايات المتحدة إلى إسرائيل في الأشهر الثلاثة الأولى من سنة 1982م، عندما كانت إسرائيل تخطط للغزو. واستمرت عمليات تسليم السلاح هذه طوال يونيه، وشملت ما يسمى «القنابل الذكية» التي تسببت إحداها في التدمير الشامل لأحد المباني لتقتل مئة شخص في جهد واضح لقتل رئيس منظمة التحرير الفلسطينية ياسر عرفات، الذي كان هناك ظن بأنه في المبنى (Chomsk 1999:214).

وأرقام المعونة الأمريكية العسكرية والمدنية لإسرائيل في ذلك الوقت فلكية. ففي السنوات المالية من 1978 إلى 1982م، تلقت إسرائيل 48 بالمئة من مجموع المعونة العسكرية الأمريكية و35 بالمئة من المعونة الاقتصادية الأمريكية على اتساع العالم. فبالنسبة لعام 1م طلبت إدارة ريجان ما يقرب من 2.5 بليون دولار لإسرائيل من إجمالي ميزانية المعونة البالغة 8.1 بليون دولار أمريكي (Chomsky 1999:10).

وقتلت إسرائيل عشرات الآلاف من اللبنانيين والفلسطينيين خلال غزوها، ولم تكن إسرائيل مسلحة فقط بما قدمته الولايات المتحدة. بل إن مناحم بيجين رئيس الوزراء تباهى بأن إسرائيل كانت تجرب أسلحة سرية مصنوعة في إسرائيل لحساب الولايات المتحدة. ومثل هذا السلاح، وفقًا لما أخبر مستمعيه في أمريكا، قد ساعد الطائرات النفاثة الإسرائيلية على ضرب صواريخ سام 6 وسام 8 في سورية دون خسارة طائرة واحدة (Washington post, 6 August 1982).

وأخيرًا استفز غزو إسرائيل الأراضي اللبنانية دول العالم وأدانته على اتساعها في أعقاب المذابح التي قضت على مئات من الرجال العزل، والنساء، والأطفال، على أيدي الميليشيات المسيحية اللبنانية في معسكرات اللاجئين الفلسطينيين في صابرا وشاتيلا غرب بيروت. وقد كشف الجيش الإسرائيلي، وخاصة وزير الحرب شارون، أنهم متواطئون في المذبحة. ولكن الولايات المتحدة نفسها لا يمكن أن تزعم أنها كانت برئية من دم أولئك الضحايا.

وقبل مذابح صابرا وشاتيلا، كان الضغط المشترك من الولايات المتحدة وإسرائيل قد أجبر منظمة التحرير الفلسطينية على الموافقة على إخلاء غرب بيروت. وتم إرسال قوة أمريكية لحفظ السلام إلى بيروت وعهد إليها بمسؤولية مزدوجة لمراقبة انسحاب منظمة التحرير الفلسطينية وتأمين السكان المدنيين الباقين. ويقتبس تشومسكي البيان الصادر بهذه المناسبة:

«إن حكومتي لبنان والولايات المتحدة سوف تقدمان ضمانات مناسبة بالسلامة...وتطبيق القانون للفلسطينيين غير المقاتلين الذين بقوا في بيروت، بما في ذلك عائلات أولئك الذين رحلوا... وسوف تقدم الولايات المتحدة ضماناتها على أساس التأكيدات التي تلقتها من حكومة

إسرائيل وقادة بعض الجماعات اللبنانية المعنية التي كانت على اتصال بها» (1999:389).

بيد أن حماة السلام الأمريكيين انسحبوا بعد أن ترك مقاتلو منظمة التحرير بيروت، قبل أسبوعين من انقضاء مدة التكليف الأصلي، مما أنهى فعليًّا التزام الولايات المتحدة بحماية المدنيين الفلسطينيين. وبعد فترة قصيرة تمكنت قوات الدفاع الإسرائيلية من الإحاطة بمعسكري صابرا وشاتيلا، مما وفر الغطاء للميليشيات المسيحية. وعلى حد تعبير الكاتب الإسرائيلي عاموس إلون «إن رجلًا يضع حية في سرير طفل ويصيح: أنا آسف، لقد نبهت على الحية ألا تلدغ... إن هذا الرجل مجرم حرب». (Chomsky 1999:392).

اتفاقيات أوسلو

الخداع الأمريكي الإسرائيلي العظيم

الصورة الباقية لاتفاقيات أوسلو للسلام (سميت هكذا لأن أوسلو كانت موقع مباحثات «السلام» السرية بين الفلسطينيين والإسرائيليين)، هي بالتأكيد صورة المصافحة الشهيرة بين رئيس الوزراء الإسرائيلي إسحاق رابين، وزعيم منظمة التحرير الفلسطينية ياسر عرفات، في البيت الأبيض حيث استضافهما الرئيس كلينتون رئيس الولايات المتحدة. والقراء الذين يتذكرون لقطة التلفزيون ربما يتذكرون أيضًا تردد رابين في مصافحة عرفات. وكونه فعل ذلك في نهاية الأمر ساعد على تثبيت الأثر العاطفي لكل ذلك. وسوف يطلق عرفات على هذا «سلام الشجعان». وبدا أن الانتفاضة الفلسطينية، التي كانت قد اندلعت في أواخر الثمانينيات، قد انتزعت أخيرًا بعض التنازلات من إسرائيل. وتم اغتيال إسحاق رابين بعد ذلك بوقت قصير على يد متعصب يميني، اتهمه ببيع «أرض إسرائيل». وفي تبادل غاضب اتهمت «لياه» أرملة رابين، حزب الليكود اليميني، البديل الرئيس بين الأحزاب السياسية الإسرائيلية لحزب العمل، بتقديم العون الأيديولوجي لقاتل زوجها.

ومن المتناقضات أن حادثة الاغتيال أسبغت مزيدًا من المصداقية على اتفاقية أوسلو وهو ما أدى إلى انقسام الصهيونية بشكل قاتل، فقد ظهر وكأن هناك جناحًا أكثر عقلانية وبراجماتية على استعداد لأن يعترف بالتطلعات المشروعة للشعب الفلسطيني.

وللأسف لم يكن الأمر كذلك. وشلايم -مؤلف كتاب The Iron Wall الذي أوصينا به كثيرًا على هذه الصفحات- شاهد مهم في هذه المسألة بشكل خاص. وشلايم مؤرخ إسرائيلي يساري، كان في وقت من الأوقات متحمسًا ومؤمنًا بحل إقامة دولتين على أرض فلسطين. وكان يأمل في أن تكون أوسلو خطوة حقيقية إلى الأمام؛ أن تبرز دولة فلسطينية حقيقية لتقوم في الضفة الغربية وغزة. وعلى حد تعبيره، كان قصد إسرائيل «أن تعيد ترسيخ الاحتلال العسكري الإسرائيلي لا أن تنهيه» (2000:524) واستمر لكي يلخص بشكل موجز وبارع عملية الخداع في جوهر اتفاقية أوسلو:

«إن أسوأ ما في الأمر، هو استمرار بناء المستوطنات الإسرائيلية على الأرض الفلسطينية، في انتهاك صارخ لروح اتفاقية أوسلو، بل ونصوصها. ففي قطاع غزة، التي لا يسكنها سوى خمسة آلاف يهودي، سيطرت إسرائيل على ثلث مساحة الأرض، ومعظم المصادر النادرة للمياه التي يحتاج إليها السكان البالغ عددهم مليون فلسطيني. أما في الضفة الغربية، فقد احتفظت

إسرائيل بالسيطرة على موارد المياه وثلاثة أرباع الأرض. واستمر بناء المستوطنات في أنحاء الضفة الغربية كافة، ولا سيما في القدس الشرقية دونما عائق، وبدا أن هناك شبكة من الطرق الفرعية قد تم تصحيحها لإجهاض إمكانية قيام دولة فلسطينية» (2000: 530).

تكمن في هذا، وعلى امتداد مئات حواجز الطرق التي تعوق حركة الفلسطينيين بين الضفة الغربية وغزة وإسرائيل، جذور الانتفاضة الثانية التي اندلعت في سبتمبر سنة 2000م. وفي الفترة ما بين أوسلو والانتفاضة، كان عدد المستوطنين اليهود في الضفة الغربية وغزة قد تضاعف ليصل إلى ما يزيد على 400.000، وعلى أي حال، فما يحذفه شلايم في تقريره هو التواطؤ الأمريكي العميق في هذه الخيانة. فقد كان من مصلحة الولايات المتحدة دائمًا أن تكون إسرائيل قوية. ولم تكن الولايات المتحدة جاهزة لفرض حلول وسط على حليفتها.

وربما يخطر على البال أنه بانهيار الاتحاد السوفييتي والنصر الواضح للولايات المتحدة باعتبارها القوة العظمى الوحيدة في العالم، ربما يكون اعتماد الولايات المتحدة على إسرائيل في رعاية مصالحها بالشرق الأوسط قد ضعف. ولكن الأمر ليس كذلك طبقًا للجنرال شلومو جازيت، الرئيس السابق للمخابرات العسكرية الإسرائيلية، وهو موظف كبير في الإدارة العسكرية للأراضي المحتلة، والذي كان أيضًا مشاركًا رئيسًا في الاجتماعات السرية التي طورت الترتيبات الأمنية لتطبيق اتفاقية أوسلو. ووفقًا لقول جازيت:

«إن مهمة إسرائيل الرئيسة لم تتغير على الإطلاق، وبقيت ذات أهمية حاسمة. إذ إن موقعها في مركز الشرق العربي المسلم قد قرر دور إسرائيل حارسًا مخلصًا للاستقرار في جميع البلاد المحيطة بها... لكي تحمي أنظمة الحكم القائمة... وتوقف عمليات التحول الراديكالي، تسد الطريق في وجه التعصب الديني الأصولي». (Chomsky 1996:235).

وكون أوسلو قد مثلت الإهانة لعرفات ومنظمة التحرير الفلسطينية أمر لقي حفاوة كبرى في الصحف الأمريكية. وقد وصف توماس فريد مان المراسل المحنك لجريدة نيويورك تاميز في الشرق الأوسط، خطاب عرفات إلى رابين الذي يحمل الاعتراف بإسرائيل بأنه «ليس مجرد إقرار بالاعتراف، إنه خطاب استسلام، راية بيضاء مكتوبة على الآلة الكاتبة تخلى فيها رئيس منظمة التحرير الفلسطينية عن كل موقف سياسي اتخذه ضد إسرائيل منذ تأسيس منظمة التحرير الفلسطينية سنة 1964م» (Chomsky 1996:265) وكان احتقار الولايات المتحدة لعرفات واضحًا وملموسًا. وقد تم توضيحه بشكل كبير في أوائل إدارة ريجان التي مهدت السبيل لـ«عملية السلام». وكان جورج شولتز وزير خارجية ريجان يسخر من ياسر عرفات في مذكراته التي تحمل عنوان Turmoil and Trimph. ويصف شولتز عرفات وهو يقفز بين الأطواق لكي يعرف فقط من هو الرئيس، بجعله ينطق ما أسماه شولتز «الكلمات السحرية» ويحكي أنه أخبر ريجان في ديسمبر سنة 1988م أن عرفات كان يقول في أحد الأماكن نصف كلمة «عمي uncle» ويقول نصفها الثاني في مكان آخر، ولكنه لم يقل بإرادته حتى الآن كلمة «عمي» كاملة في أي مكان.(81) (Chomsky 1996:28).

وكان الصحفي الإسرائيلي داني روبنشتين قد تنبأ بدقة تامة بما كان يعنيه «الحكم الذاتي» الذي كانت الولايات المتحدة وإسرائيل على استعداد لتقديمة للفلسطينيين حقًّا. لقد كان «حكمًا ذاتيًّا في معسكر اعتقال للفلسطينيين، حيث يكون السجناء مستقلين في طبخ وجباتهم دونما تدخل، وفي تنظيم الأحداث الثقافية». (Chomsky 1996: 223).

وفي غضون أشهر قليلة فقط بعد معاهدة أوسلو، كتبت الصحافة الإسرائيلية:

«خطط حكومية سرية لدمج القدس الكبرى فعليًّا في أريحا، مع مشروعات بناء ضخمة، وخطط لمواقع سياحية على امتداد الساحل الشمالي للبحر الميت، ونحو 700 مليون دولار من الاستثمارات في الطرق الجديدة لربط المستوطنات بإسرائيل، مارة بجوار القرى والمدن الفلسطينية...». (Chomsky 199: 264).

وأغمضت الولايات المتحدة عينها. وتوطدت الروابط بينها وبين إسرائيل، وبقيت المياه عاملًا حاكمًا في القبضة الإسرائيلية على الأرض الفلسطينية. وكان أن أحد المتخصصين البارزين في الموضوع بإسرائيل، وهو البروفيسور حاييم جفيتزمان، والذي كان أيضًا مستشارًا لوزارة الدفاع بالولايات المتحدة، قد وصف كيف أن نموذج الاستيطان في الضفة الغربية قد حسم بالقدرة على الوصول إلى الماء. وقد حذر -في سياق تعليقه على مصادر المياه قبل أوسلو- من أي اتفاق سلام يجب أن يضمن 500 مليون من إجمالي 600 مليون متر مكعب من المياه التي تؤخذ سنويًّا من (يهودا والسامرة)، وهي الكلمات التي استخدمها لوصف الضفة الغربية، دون أي شعور بالحرج. هذه سرقة على نطاق واسع؛ ضخ المياه الفلسطينية إلى إسرائيل من المياه الجوفية المخزونة تحت الأرض المحتلة. ومياه الضفة الغربية تكفي نحو «ثلث الاحتياجات المائية لمواطني إسرائيل (للتجمعات الحضرية، والري، إلخ)» وكانت رؤية جفيتزمان أن «سلطات الحكم الذاتي لا يجب أن تمنح السلطة على مصادر المياه في مناطقها» (Chomsky 1996: 210). وحتى جريدة Financial Times أكدت الظلم البشع في هذا كله عندما عززت أوسلو هذه النماذج من الاستحواذ على المياه: لا شيء يرمز إلى عدم المساواة في استهلاك المياه أكثر من المروج الخضراء اليانعة وأحواض الزهور المروية، والحدائق المزدهرة وأحواض لسباحة في المستوطنات اليهودية بالضفة الغربية (8August 1995) في الوقت الذي كانت فيه القرى الفلسطينية المجاورة محرومة من حق حفر الآبار.

كذلك كشفت مسألة اللاجئين كيف كانت اتفاقية أوسلو قد جعلت الولايات المتحدة تقبل الحل الوسط. إذ إن مسألة اللاجئين قد وضعتها أوسلو على الرف حتى ما يسمى بمحادثات الوضع النهائي. والآن صار معلومًا لدى الجميع أنه لا نية إطلاقًا لدى إسرائيل للتسليم بحق اللاجئين الفلسطينيين في العودة. وقد دعم الرئيس كلينتون هذا الموقف الإسرائيلي بتلاعبه باتفاق أوسلو على نحو معيب. ولأن المسألة سوف تكون «محل محادثات»، فقد كانت تلك الخدعة لمحاولة تقويض خمسين عامًا من سياسة الأمم المتحدة في الموضوع.

عكس كلينتون التأييد الذي أبدته الولايات المتحدة فترة طويلة على قرار الأمم المتحدة رقم 194 الصادر في ديسمبر 1948م، والذي يؤكد حق اللاجئين الفلسطينيين الذين كانوا قد هربوا أو طردوا خلال القتال في العودة إلى ديارهم. وللمرة الأولى انضمت الولايات المتحدة إلى إسرائيل في معارضة القرار الذي تم التأكيد عليه ب127 صوتًا مقابل اثنين.

كان القرار 192 تطبيقًا مباشرًا للمادة 13 من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، الذي تبنته الأمم المتحدة في اليوم السابق (10 ديسمبر1948م). وتقرر المادة 13 أن «لكل شخص الحق في مغادرة أي بلد -بما في ذلك بلاده- والعودة إلى بلاده» والإعلان العالمي لحقوق الإنسان تم الاعتراف به في محاكم الولايات المتحدة وغيرها باعتباره «قانون العرف العالمي» و«التعريف المعترف به لحقوق الإنسان».

وحجة إدارة كلينتون في الأمم المتحدة سنة 1993م، كانت في أعقاب أوسلو، فإن القرارات الماضية «كانت لاغية ومبنية على ظروف تاريخية معينة». بل إن واشنطن دعت إلى إلغاء لجنة الأمم المتحدة الخاصة بالحقوق الفلسطينية، التي وصمتها بأنها «منحازة وزائدة عن الحاجة وغير ضرورية» (Chomsky 1996:219).

هل هي مؤامرة صهيونية؟

الانتفاضة الثانية، و11/ 9، وحرب بوش على الإرهاب

ثمة رأي شائع على نطاق واسع بأن الإدارة الجمهورية اليمينية للرئيس چورچ بوش قد طورت علاقات أوثق مع إسرائيل، مع بداية القرن الحادي والعشرين عن أي حكومة سابقة في الولايات المتحدة. والحقيقة، أن هناك رأيًا بأنه، بعيدًا عن أن الولايات المتحدة توجه السياسة الإسرائيلية، فإن العلاقة قد انعكست رأسًا على عقب وبدأت إسرائيل توجه سياسات الولايات المتحدة في الشرق الأوسط.

ومن المؤكد أنه هناك إدراكًا لتأثير صهيوني قاهر في واشنطن. وفي الكثير من أنحاء العالم الإسلامي، كانت النظرة إلى ذلك، تراها مؤامرة صهيونية.

والآن باتت عبارة «مؤامرة صهيونية» عبارة عاطفية ومحملة بالتاريخ، لا سيما في أوروبا وأمريكا، فهي رجع لصدى ذكريات اللاسامية في كتابها الكلاسيكي المزيف الشهير «بروتوكولات حكماء صهيون - The protocols of theElder Zion» (انظر الفصل 6)، الذي اتهم اليهود بالتآمر سرًّا للسيطرة على العالم. فقط لم يكن هذا هو المقصود. وهناك كان الاتهام هو أن حكومة إسرائيلية تتآمر مع الولايات المتحدة للاستيلاء على المزيد من الأرض الفلسطينية، وفي الوقت نفسه للإطاحة بمعظم أنظمة الحكم العربية والإسلامية في المنطقة. وبطبيعة الحال، إن لم تكن حريصًا، فهي تنزلق من موقف لآخر. ولأن الحكومات الإسرائيلية تزعم أنها تتحدث لصالح جميع اليهود، ولأن الولايات المتحدة هي القوة العظمى الوحيدة في العالم، فإنه يمكن المجادلة من هذا المنظور، بأن اليهود كانوا يستغلون الولايات المتحدة لإضعاف أعداء إسرائيل وزيادة قوتهم في العالم. أضف إلى هذا الزعم الصهيوني بأن الأراضي الفلسطينية كافة ملك لليهود، ويصبح لديك خليط قابل للاشتعال.

كان هذا هو السبب في أن الترجمة العربية لبروتوكولات حكماء صهيون وجدت جمهورًا(4). وبطبيعة الحال، فإن الحجة فاسدة في جوهرها مثلما كانت على الدوام فلا توجد، ولم توجد أبدًا، كتلة يهودية عالمية موحدة. وقوة إسرائيل متوقفة على قوة أمريكا، ومن المؤكد أنها لا تعتمد على قوة يهودية عالمية متخيلة. وبالإضافة إلى هذا فثمة أقلية كبيرة ومتنامية من اليهود عبر العالم قد اشمأزت من سلوك إسرائيل. ولكي نقدم مثالًا واحدًا فحسب: ربع مؤيدي حركة التضامن العالمية مع الشعب الفلسطيني هم من اليهود وهي مجموعة إسرائيلية – أوروبية – أمريكية - راديكالية تدعو إلى السلام، وقُتل أعضاء منها بأيدي الجيش الإسرائيلي لأنهم تظاهروا تأييدًا للفلسطينيين في الأراضي المحتلة.

والسؤال عما إذا كان زعماء الجماعة اليهودية حول العالم قد قاموا بما يكفي للبوح بعدم رضاهم، فهو أمر آخر، وسنناقشه في الفصل الأخير، أما السؤال عما إذا كانت هناك «مؤامرة صهيونية» بالمعنى الأكثر تحديدًا، أي خطة أمريكية - إسرائيلية مشتركة، يقودها الصهاينة

الملتزمون، لزيادة القوة المشتركة لإسرائيل والولايات المتحدة في الشرق الأوسط، فهو سؤال مشروع.

ومن الواضح، إذًا أنه في بادية القرن الحادي والعشرين، كان الصراع الإسرائيلي الفلسطيني قد أخذ يصير محصورًا في مناخ سياسي مختلف تمامًا، وأشد إزعاجًا، ولكي نحصل على صورة دقيقة لما كان يحدث حقًّا، كنا بحاجة -ونحتاج الآن- إلى إعادة رواية الحقائق الثابتة بطريقة هادئة واضحة.

عندما صار بوش الابن رئيسًا في يناير سنة 2001م، كانت عملية أوسلو للسلام قد انهارت للأسباب التي شرحناها فيما سبق، وكانت الانتفاضة الثانية تشتعل. وفي غضون أسابيع قليلة فقط، كان آريل شارون قد انتخب رئيسًا لوزارة إسرائيل على قاعدة الليكود في استخدام القوة القصوى لسحق الانتفاضة. وفي وقت لاحق من السنة نفسها شن حربه على الإرهاب في أعقاب الحريق الهائل الذي صار معروفًا باسم 11 سبتمبر، عندما قتل آلاف من الأمريكيين بعدما صدمت طائرات مخطوفة مركز التجارة العالمي في نيويورك ومبنى البنتاجون.

وعندما تحركت حكومة شارون لتشن هجوم إسرائيل العسكري على الانتفاضة الفلسطينية كجزء من حرب الولايات المتحدة الأوسع ضد الإرهاب، وجدت قبولًا لدى واشنطن.

والحقيقة أن أساس محاولة التنسيق في الهجوم، الأيديولوجي، والأنشطة السياسية والعسكرية لحكومة الليكود اليمينية في إسرائيل، والإدارة الجمهورية اليمينية في الولايات المتحدة كان قد تم إرساؤه منذ سنوات طويلة قبل ذلك.

ووفقًا للصحفي بريان هويتاكر من صحيفة الجارديان، في تحقيق لم يحظ سوى بقدر قليل من الاهتمام، وإن اتسم بقدر عال من الابتكار: «لعب البولنج مع صدام» 2 سبتمبر 2002، Guardian online:

«يمكن تتبع جذورها -جزئيًّا على الأقل- في ورقة عنوانها «التحلل النظيف»(82)، نشرت سنة 1م، من قبل مؤسسة فكرية إسرائيلية «هي معهد الدراسات السياسية والاستراتيجية المتقدمة». وكان المقصود أن تكون خطة على الورق لحكومة الليكود القادمة برئاسة بنيامين نتنياهو».

كانت تأمل -من بين أشياء أخرى- في انهيار أوسلو والعودة إلى طريق الصهيونية الفجة في اغتصاب الأرض دونما حياء أو خجل. وعلى حد تعبير الورقة «إن دعوانا في الأرض التي تطلعنا إليها بأمل على مدى ألفي سنة، دعاوى مشروعة ونبيلة»، وتستمر الورقة لتقول: «فقط القبول غير المشروط لحقوقنا من جانب العرب، لا سيما في بعدهم الإقليمي... هو أساس صلب للمستقبل».

وتضع الورقة خطة سوف تستطيع إسرائيل بها «أن تشكل بيئتها الاستراتيجية» بدءًا بإزاحة صدام حسين.

وتؤكد الورقة أنه سيكون على إسرائيل -لكي تنجح- أن تكسب تأييدًا أمريكيًّا واسعًا لهذه السياسات الجديدة، ونصحت نتنياهو بأن يصيغها في «لغة مألوفة للأمريكيين بالتأكيد على قضايا الإدارات الأمريكية أثناء الحرب الباردة والتي تنطبق على إسرائيل بشكل جيد».

وحسبما أوضح هويتاكر «للوهلة الأولى، يبدو أنه ليس هناك الكثير مما يميز ورقة «التحلل

النظيف» سنة 1996م عما تنتجه مؤسسات الفكر اليمينية وغلاة الصهيونية الآخرون... سوى ما يتعلق بأسماء كتابها». فقد كان هؤلاء موظفين جمهوريين كبارًا، معظمهم من اليهود، وليسوا إسرائيليين، وهم الذين باتوا يعرفون باسم المحافظين الجدد. وكان كاتب الورقة هو ريتشارد بيرل، رئيس مجلس سياسات الدفاع في البنتاجون سنة 2002م، كذلك كان من بين الفريق المكون من ثمانية أعضاء، دوجلاس فيث، وهو محام من المحافظين الجدد، سوف يتولى أحد المناصب الأربعة الرئيسة في البنتاجون تحت رئاسة بوش كمساعد وزير للشؤون السياسية. وحسبما لاحظ هويتاكر «اعترض السيد فيث على معظم اتفاقات السلام التي عقدتها إسرائيل على مر السنين... وكان يعتبر عملية أوسلو للسلام لا شيء أكثر من مجرد انسحاب أحادي يثير مسائل حياة أو موت بالنسبة للدولة اليهودية».

وهناك اثنان آخران من صناع الرأي في الفريق هما ديفيد وورمسر وزوجته، ميراف، مؤسسة منظمة Memri الخيرية، ومركزها واشنطن وتوزع مقالات مترجمة عن الصحف العربية -ترسم كما يقول هويتاكر- صورة «العرب في شكل سيئ». وبعد أن عمل وورمسر مع بيرل في معهد المشروع الأمريكي، كان في وزارة الخارجية، مساعدًا خاصًّا لجون بولتون، مساعد الوزير للحد من التسليح والأمن الدولي، واستمر هويتاكر:

«كان هناك عضو خامس في الفريق هو جيمس كولبرت، من المعهد اليهودي لشؤون الأمن القومي، الذي يتخذ من واشنطن قاعدة له، وهو معقل من معاقل صقور المحافظين الجدد، وكانت هيئته الاستشارية قد كلفت من قبل ديك تشيني نائب رئيس الولايات المتحدة سنة 20 (ومهندس رئيس للحرب على العراق) في وقت سابق، وجون بولتون ودوجلاس فيث... وعدد من كاتبي ورقة «التحلل النظيف» ممن يشغلون مواقع قيادية في واشنطن في إدارة بوش، بخطة لإسرائيل لإعادة تشكيل الشرق الأوسط، تبدو صفقة جيدة قابلة للتحقيق اليوم أكثر مما كانت الحال سنة 1996م».

والحقيقة أنه منذ ذلك الوقت، فإن ما يسميه هويتاكر مباراة «لعب البولنج» كانت تضرب بشكل منتظم العناوين الرئيسة، على حين لم يبذل المحافظون الجدد أي محاولة لإخفاء رغبتهم في «تغيير النظام» في جميع أنحاء الشرق الأوسط. ومن المؤكد أن إيران، وربما المملكة العربية السعودية، على قائمة ضربات البولينج التي ستوجهها الولايات المتحدة.

وقبل أسبوعين من نشر هويتاكر لمقالته، وقبل عدة شهور من حرب أمريكا وبريطانيا على العراق، صرح توم نيومان، المدير التنفيذي للمعهد اليهودي لشؤون الأمن القومي بالخطة، في صحيفة واشنطن تايمز في مصطلحات واضحة باردة.

«من المحتمل أن تنجو الأردن من الحرب القادمة بمساعدة الولايات المتحدة، وكذلك تنجو بعض مشيخات الخليج (Sheikhdoms) ومن المحتمل ألا يبقى نظام الحكم السعودي الحالي. وسوف تتم مساعدة الحركة الانشقاقية في إيران بشكل ضخم بسقوط صدام، وسيكون على الفلسطينيين أن يعرفوا أن المستقبل سيكون مع الغرب. ومن المحتمل أن ديكتاتورية البعث بسوريا ستسقط غير مأسوف عليها، وكذلك تتحرر لبنان أما إسرائيل وتركيا الديمقراطيتان الوحيدتان حاليًا في المنطقة، فستجدان نفسيهما مع جيران أفضل بكثير» (مقتبس من هويتاكر).

وهكذا، بدا أن أصحاب نظرية المؤامرة الصهيونية لهم حق. والواقع أنه في بعض الأوقات كان

يظهر وكأن آرييل شارون شخصيًا يوجه سياسة البيت الأبيض. ولم يكتف بوش فقط بأنه بدأ في تسمية شارون «رجل السلام»، ولكن كثيرًا من المعلقين -ومنهم صحفيون إسرائيليون، بل وأحد زملاء شارون في الوزارة- كانوا مقتنعين بأن خطبة بوش التي استحوذ عليها «الإرهاب الفلسطيني» كتبها شارون فعلًا(5).

وعلى الرغم من أنني سأجادل بأن المحافظين الجدد ليسوا ناجحين كما يظن كثير من الناس فإننا مع هذا، نحتاج بالفعل إلى أن نتوقف ونعلق على استخدامهم المتغطرس الصادم للقوة. لقد حاولوا بالفعل أن يفرضوا صيغة أشد تعصبًا من الصهيونية على سياسة الولايات المتحدة - إسرائيل، لكي يحققوا الدمار الكامل والإذلال للشعب الفلسطيني. ولهم نفوذ حقيقي في أروقة القوة العظمى الوحيدة في العالم وكذلك لهم نفوذ في أقوى دولة بالشرق الأوسط. وهم يمثلون حقًا تهديدًا خطيرًا للعالم العربي. ولكنهم أيضًا يمثلون تهديدًا لليهود؛ لأنهم يتحدثون أعلى من اللازم بصوت الصهيونية.

وتأمل مسالك حركة معاداة السامية الخيالية، تدين هذه الزمرة الشريرة من اليهود الأمريكيين مزدوجي الولاء الأثرياء الأقوياء، والتي تتآمر للسرقة الكاملة لكل فدان أرض في فلسطين وكل نقطة مياه فلسطينية، ثم اسأل نفسك ما الذي لا توافق عليه في هذا الزعم. الإجابة هي أنه لا يوجد شيء لا توافق عليه! طبعًا من المؤكد تمامًا أن سلوكهم المشين ليس في صالح غالبية اليهود، وهذا ما يسقط الاتهام بمعاداة السامية.

بيد أن هذا العامل الحاسم يمكن أن يبدو فطنة غابت أو أُسيء فهمها على الأقل، وما يعنيه هذا كله هو أن المحافظين الجدد يشكلون عاملًا يسهم في معاداة السامية في الشرق الأوسط وفي أجزاء أخرى من العالم، وكلما أسرعنا في عزل زمرتهم وكسرها كان ذلك أفضل.

وكما حدث، لم يجدوا أنه من السهل تطبيق مفهوم الليكود على نحو كامل، ويجب أن تتذكر أن منصب الليكود هو التخلي عن أنشطة صنع السلام الفلسطينية. الإسرائيلية يمكن أن تؤدي إلى أي حديث عن الدولة الفلسطينية.

ومع ذلك فإن چورچ بوش الابن بدأ يتحدث عن «دولة فلسطينية قادرة على العيش». والواقع أن هذا الجزء من استراتيجية «الأمن القومي» لدى إدارة بوش والذي يتناول إسرائيل/ فلسطين، قد صدر في ظل ما حدث يوم 11 سبتمبر ويبتعد بوضوح تام عن صهيونية الليكود، وبدلًا من ذلك يفرط في صياغة بلاغية كان يمكن أن تكون من نتاج قلم يكتب ورقة سياسية لكلينتون أو حتى الأمم المتحدة. ويجب أن نتذكر أن هذا كان أهم تصريح بالمقاصد من جانب الإدارة، المانيفستو الذي أصدرته ضد الإرهاب، مع تلميحات قوية لحربها الوشيكة على العراق. إلا أن اللهجة مختلفة حول إسرائيل/ فلسطين:

«لا يمكن أن يكون هناك سلام لأي من الجانبين دون حرية لكل من الجانبين وتبقى أمريكا على التزامها بفلسطين مستقلة وديمقراطية، تحيا بجانب إسرائيل في سلام وأمان. ومثل جميع الشعوب الأخرى، يستحق الفلسطينيون حكومة تخدم مصالحهم وتستمع إلى أصواتهم... فإذا ما اعتنق الفلسطينيون الديمقراطية، وحكم القانون، وواجهوا الفساد، ورفضوا الإرهاب بقوة، فإنه يمكنهم أن يعولوا على المساندة الأمريكية في خلق دولة فلسطينية».

ولإسرائيل أيضًا حصة كبيرة في نجاح فلسطين الديمقراطية، ذلك أن الاحتلال الدائم يهدد هوية

إسرائيل وديمقراطيتها، ولذا فإن الولايات المتحدة مستمرة في تحدي الزعماء الإسرائيليين لكي يتخذوا خطوات راسخة لمساندة ظهور دولة فلسطينية قابلة للحياة وحقيقية. وبما أن هناك تقدمًا نحو الأمن، فإن على القوات الإسرائيلية أن تنسحب تمامًا إلى الموقع الذي كانت فيه قبل 28 سبتمبر سنة 2000م... ويجب أن يتوقف النشاط الاستيطاني الإسرائيلي في الأرض المحتلة. وبما أن العنف ينحسر، فإنه يجب إعادة حرية الانتقال، بما يسمح للفلسطينيين الأبرياء باستئناف العمل والحياة العادية...». (www.white house.gov/nscall.html).

وبطبيعة الحال لم يكن هناك التزام هنا لإجبار إسرائيل على التخلي عن المستوطنات في الضفة الغربية وغزة، دعك من أي ذكرى للقدس واللاجئين. ومع هذا فمن المؤكد أن هذا لم يكن «التحلل النظيف» الذي طلبه المحافظون الجدد الليكوديون في قلب إدارة بوش، فالحقيقة أن هذا يعود بنا القهقرى إلى النقطة التي انهارت عندها اتفاقية أوسلو بالضبط.

وعلى أي حال، فليس مذكورًا أنه كان هناك اتفاق حول بعض الأهداف في السياق الأوسع للشرق الأوسط. بيد أن نقطة البداية كانت هي مصالح الولايات المتحدة العالمية، بدلًا من مصالح إسرائيل الإقليمية. وهناك واحد من المحافظين الجدد اليهود، بول ولفوفيتز، أحد واضعي استراتيجية الأمن القومي ونائب وزير دفاع الولايات المتحدة دونالد رامسفيلد في إدارة بوش، قد رسم الخطوط العريضة لنظرة عالمية للإدارة الجمهورية، في مقالة كتبها قبل أن يتسلم بوش مقاليد السلطة.

وبمقارنة بداية القرن الحادي والعشرين ببداية القرن العشرين، جادل ولفوفيتز بأن الصين لديها إمكانية خلق ذلك النوع من التهديد الذي مثلته ألمانيا منذ مئة عام مضت على بريطانيا. والاستنتاج الختامي: تعزيز وضع الولايات المتحدة كقوة عظمى. وأين هو المكان الذي فوق الشرق الأوسط كبداية؟ على الأقل بسبب مصالح أمريكا في بترول الشرق الأوسط(6)(www.nationalinterest.org)..

كان هذا هو العامل الثاني الذي يشكل السياسة العالمية للولايات المتحدة: عزمها على السيطرة على إمداداتها البترولية، وزيادتها. وفي مايو 2001م نشرت إدارة بوش خطتها الوطنية للطاقة، والتي أعدها فريق يرأسه تشيني. وهو يدعو الحكومات في الدول المنتجة للبترول حول العالم - وليس في الخليج فقط- لمزيد من انفتاح صناعاتهم البترولية أمام شركات البترول الأمريكية(7).

كان البترول عاملًا رئيسًا أدى إلى كل من الحربين اللتين قادتهما الولايات المتحدة ضد العراق، في سنة 1991 وسنة 2003م. وفي كل من المناسبتين تم إجبار إسرائيل في أدب ولكن بحزم بأن تبقى ساكنة وأن تصمت. وهذا كشف حدود دور إسرائيل باعتبارها وكيل الولايات المتحدة. وعندما صارت الولايات المتحدة متورطة عسكريًّا بصورة مباشرة، صارت طموحات إسرائيل الأكثر توحشًا نوعًا من الإحراج.

نعم، كان هناك دونما شك فرخ ليكودي في عش بوش. ولكن هل كان يسيطر على العش؟

في أوائل سنة 2003م، نشرت إدارة بوش خطة «خارطة الطريق» التي وضعتها لتحقيق السلام الإسرائيلي - الفلسطيني. وكان هذا التعبير العملياتي لاستراتيجية الأمن القومي. وكشف استقبالها في أمريكا عن أوجه القوة وأوجه القصور في الخطة الرئيسة لليكود.

وأحد جوانب القوة المباشرة في خطة الليكود، هو تكاثر مراكز الفكر الصهيوني المتشدد التي

تحظى بتمويل جيد. وقد استكشف هويتاكر هذا في مقالة منفصلة بصحيفة الجارديان عنوانها 19Us think Tanks Give Lessons in Foreign Policy 19August 2002, Guardian) 8)(on line) وقد نجحت تمامًا أيديولوجيوها في الحصول على عمود في الصفحة المواجهة لصفحة الرأي في الصحف الرئيسة بالولايات المتحدة، ومن المؤكد أنه في صيف سنة 2003م بدا أنهم كانوا قد حققوا نصرًا مهيبًا، وهو السيطرة على أعمدة الرأي في Wall Street Journal.

وفي يونيو سنة 2003، كان كتاب الأعمدة هؤلاء قد أصيبوا بداء السكوت عندما انتقد بوش شارون لمحاولته اغتيال عبد العزيز الرنتيسي، أحد القادة السياسيين لحركة حماس الإسلامية. فقد كانت محاولة وقحة لإغراق «خارطة الطريق»، وكان ذلك واضحًا لأن حماس كانت تشير على مدى عدة شهور إلى استعدادها للتفكير في وقف إطلاق النار. وكان السؤال الوحيد هو ما إذا كان يجب إغراق «خارطة الطريق».

وقد أعطى الوول ستريت جورنال مساحة لروث ويسي، الأستاذة بجامعة هارڤارد لتشرح بعض الحقائق الموجودة في الداخل للرئيس بوش:

«لا يزال البيت الأبيض يميل إلى التعامل مع الأزمة الإقليمية باعتبارها (صراعًا بين شعبين على أرض واحدة) ويمكن حلها بخلق دولة فلسطينية. ومن سوء الحظ، فإن الحرب العربية ضد إسرائيل ليست صراعًا إقليميًّا بدرجة أكبر مما هي الحال في ضربات القاعدة ضد أمريكا، ولا يمكن حلها بخارطة الطريق مثلما لا يمكن وقف نزعة معاداة أمريكا بالتنازل عن جزء من الولايات المتحدة لتتحول إلى مقاطعة إسلامية». (Jews and Anti, Jews, 16June 2003).

لقد كنا آنذاك خاضعين لما كان يمكن وصفه بأنه صخب أو تيار من الوعي -سوف نعفي القارئ منه- يختص برؤيتها عن اللاسامية العميقة على الطريقة النازية التي تسبب الآن الحزن للعالم العربي والإسلامي بأسره. ومع ذلك فإن ويسي كانت نموذجًا لضبط النفس مقارنة بكاتبة العمود التي جاءت بعدها بأيام قلائل. وهي سينثيا أوزيك وهي روائية، ومن الواضح أنها عرفت جريمة فلسطين الحقيقية؛ لقد اعتبروا أنفسهم أمة:

«لكي يحرموا اليهود من ميراثهم، اصطنع الفلسطينيون رواية متعصبة غريبة عما هو معروف وشائع.. فيزعمون أنهم أحفاد حضارات عاشت على هذه الأرض منذ العصر الحجري.. وبإحلال الخيال محل التاريخ، اخترع الفلسطينيون مجتمعًا لا يشبه أي مجتمع آخر، حيث الكراهية تبز الخبز وتتفوق عليه. وقد ربوا الأطفال -خلافًا لأي أطفال آخرين- وأبعدوهم عن السلوك والقواعد المعتادة.. (وجندوهم) لتفجير أنفسهم بهدف القضاء على أكبر عدد ممكن من اليهود... ونحن الآن نعيش مع اللاتاريخ، حيث ينعكس السبب والتأثير، فالحماية ضد الهجمات تتساوى مع وحشية الهجمات، ومسائل الوجود قد حُطَّ من شأنها أو تم تجاهلها؛ والتعتيم على دائرة العنف تتبناه وزارة الخارجية بحماسة، هي والاتحاد الأوروبي (When Hate Trumpe Bread. 30June 2003).

فقط في حال أن فصاحة أوزيك عبرت فوق رأس القارئ، يجب أن نشرح أن ملاحظاتها الخاصة بدائرة العنف والحماية ضد الهجمات إلخ، كانت عن انضمامها إلى الغضب العام؛ لأن شارون مُنع الإذن باغتيال الرنتيسي.

وعلى أي حال، فإن مجانين الليكود يتلهون باللعب على صفحات بعض صحف الولايات المتحدة وأعمدتها فقط، لقد كانوا قد وطدوا أنفسهم -دونما كفاءة كما سنرى- في ساحة أكثر خطورة وتهديدًا من ساحات السياسة الأمريكية.

***

في وقت الكتابة -صيف 2003م- كان مصير خارطة الطريق أبعد ما يكون عن الوضوح(9)، ولكن رئاسة بوش نفسها كانت في ورطة بقدر ما كان الأمريكيون يتساءلون لماذا جرَّ البلاد إلى الحرب مع العراق. وعلى الرغم من الانتصار في إسقاط حكم صدام، كان المزيد والمزيد من جنود الولايات المتحدة يقتلون عندما تحولت الحرب التي تقودها واشنطن إلى احتلال غير مرغوب فيه تقوده الولايات المتحدة للبلاد. وكان مطلب «أعيدوا الأولاد إلى الوطن» قد بدأ ينمو. وكما في بريطانيا، كان عامة الأمريكيين أيضًا يعبرون عن عدم ثقة متزايدة حول السبب الرئيس الذي قدمته كل من الحكومتين لشن الحرب: أن العراق كان يمتلك أسلحة الدمار الشامل. ولكن لم يمكن العثور على أسلحة دمار شامل. والأخطر من وجهة نظر كل من الحكومتين، كانت الشكوك المتزايدة حول «المخابرات» المريبة التي صنعت المزاعم حول أسلحة الدمار الشامل أولًا. وفي الولايات المتحدة كانت هناك إمكانية لتوبيخ قابل للانفجار يختمر حول مزاعم المخابرات، قد انبثق من وحدة المخابرات «البديلة» (مكتب الخطط الخاصة) الذي أنشأه رامسفيلد في البنتاجون. ومن اللافت للنظر، أن مكتب الخطط الخاصة كان مرتبطًا مع وحدة مخابرات «بديلة» تدار مباشرة من مكتب شارون في إسرائيل! وكانت هذه وحدات «بديلة» بمعنى أن منظمات المخابرات القائمة، مثل وكالة المخابرات المركزية CIA في الولايات المتحدة، والموساد في إسرائيل كانتا تعتبران غير قادرتين على تقديم «المعلومات المخابراتية» عن العراق، والتي كانت الحكومتان تحتاج إليها، وكان المنسق هو الجمهوري الليكودي دوجلاس فيث الموظف الأمريكي الذي أشرنا إليه سابقًا (انظر التحقيق الخاص الذي قام به جوليان بورجر في صحيفة الجارديان 17 يوليو 2003).

وما إذا كان بوش سينجو من الأزمة التي تزداد عمقًا ليس هو الموضوع. فقد كانت الحجة هي أنه على الرغم من الروابط الوثقى التي تربط بين الإدارة وشارون في إسرائيل، وعلى الرغم من الكثير من البلاغة الأكثر وحشية، وكذلك مضحكات ألاعيب المؤامرات الليكودية، فإن سياسة الولايات المتحدة الخاصة والمحددة بشأن إسرائيل/ فلسطين بقيت متسقة مع حكومات الولايات المتحدة السابقة بشكل لافت للنظر.

وليس معنى هذا أن الفلسطينيين يمكن أن يحصلوا على الراحة من ذلك. وإذا لم تكن خارطة الطريق أكثر من خارطة لطريق يؤدي إلى العودة للنقطة التي انهارت عندها أوسلو، كما اقترحنا من قبل، إذًا فإن أيًّا من المشكلات الحقيقية -المستوطنات اليهودية في الضفة الغربية وغزة، ووضع القدس وحق العودة للاجئين- لن يتم تناولها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل العاشر:
«نحن» اليهود «هم» العرب (1):
التعايش اليهودي العربي المفقود
والبحث عن شعلة الأمل من الماضي

في غضون سنوات قليلة فقط من ظهور دولة إسرائيل سنة 1948م، وصل التاريخ الطويل غير المتقطع على ألفي وخمسمئة سنة لليهود في الأراضي التي كانت قد صارت تعرف بأنها عربية وإسلامية إلى نهايته. ففي سنة 1948م كان هناك نحو ثمنمئة ألف يهودي يعيشون في البلاد العربية (نحو 6 بالمئة من إجمالي عدد اليهود بالعالم). وبعد ذلك بخمس وعشرين سنة كان معظم هؤلاء اليهود قد غادروها.

وسوف يجادل هذا الفصل بأنه بينما كانت الصهيونية نفسها العامل الرئيس الذي يفسر هذا الاستقطاب العرقي غير الضروري والمأساوي حقًّا بين العرب واليهود، كان يقع اللوم أيضًا على تدخل الإمبريالية الأوروبية في الشرق الأوسط على نطاق واسع. وهذا يعني النظر -بإيجاز- إلى كيفية تصعيد أوروبا القرن التاسع عشر التوترات الدينية في الشرق الأوسط. ويعني أيضًا النظر - وبإيجاز شديد مرة أخرى- إلى الكيفية التي زادت بها أوروبا القرن العشرين من حدة الاستقطاب بين العرب واليهود في غمرة أزمتها الإمبريالية، والتي أدت إلى نازية هتلر وشيوعية ستالين. والتواريخ المختصرة للصراعات التي خاضها العرب من أجل الاستقلال الوطني في العراق ومصر، تقدم دراسات حالة لاستكشاف كيف برزت هذه الضغوط المختلفة بنفسها.

وستكون المجادلة بأن سياسات القرن العشرين قد خذلت كلًّا من العرب واليهود. ويختتم الفصل بتأمل بعض الأصوات غير العادية الساعية إلى مصالحة بين العرب واليهود في القرن الحادي والعشرين.

وهناك باحثان صهيونيان، برنارد لويس ونورمان ستليمان، برهنا على أنهما من المصادر المفيدة نوعًا ما. والجدل معهما هنا لن يكون على أساس أن الأدلة التي يقدمانها منحازة؛ وإنما على أساس أنها أحادية أكثر من اللازم. ومع هذا، وعلى الرغم منهما، فإنهما يساعدان في توفير حجج قوية في قضية لم يكن قصدهما أن يوفراها.

الإمبريالية الأوروبية أدانت الجماعات اليهودية في البلاد العربية

كانت الدعاية الصهيونية ستجعلنا نصدق أن اليهود في البلاد العربية عانوا تحت الحكم العربي الإسلامي نفس القدر من السوء الذي عانوه تحت الحكم المسيحي الأوروبي، ولكننا نرى من تحليل جويتين الممتاز لأوراق الجنيزا القاهرية في العصور الوسطى، والتي ناقشناها في الفصل الرابع، أن هذه لم تكن هي الحال. وحتى برنارد لويس الذي كان حكمه على التاريخ العربي الحديث قد تم تسفيهه بوصفه صهيونيًّا ومستشرقًا على يد إدوارد سعيد (الفصل الخامس)

يسلم راضخًا في كتابه Jews of Islam بأن أحكام أهل الذمة، التي كانت تطبق على الرعايا غير المسلمين تحت الحكم الإسلامي لم تكن تطبق في أغلب الأحيان، ويكتب لويس أن «الصداقات الشخصية، وشركات الأعمال، والتلمذة الفكرية، وغيرها من أشكال النشاط المشترك، كانت عادية، بل كانت شائعة وعامة في الحقيقة». (56: 1984)، والحقيقة أنه يمضي أكثر من ذلك:

«إن التعايش بين العرب واليهود في العصور الوسطى أقرب ما يكون إلى نموذج أوروبا الغربية وأمريكا في العصر الحديث، وكان مختلفًا تمام الاختلاف عن الموقف في الإمبراطورية الرومانية، والإمبراطورية العثمانية، والإمبراطورية الروسية. وحسبما أوضح البروفيسور جويتين، أنتج هذا التعايش شيئًا لم يكن مجرد ثقافة يهودية - عربية، أو ربما يقول المرء بأنها ثقافة يهودية إسلامية». (77:1984).

في فترات الضغط السياسي، وعندما كان العالم الإسلامي عرضة للتهديد كان يتم التشديد في أحكام أهل الذمة، ومن المؤكد أنه يمكن أن تتطور العداوة تجاه الذميين فهناك يهودي بريطاني «منفي» من الأراضي العربية، اسمه لوسيان جوباي، يرصد ازدواجية هذه التجربة اليهودية في العالم الإسلامي بعنوان كتابه الموحى Sunglight and Shadow Gubbay 1999)، (ونحن نتساءل ما إذا كان مسلمو بريطانيا وبعض الأقليات العرقية الأخرى سيكونون بمثل هذا الكرم إزاء تجربتهم في تقلبات أحوال العنصرية، لأعلى ولأسفل، في بريطانيا المستنيرة الحديثة).

ومن سوء الحظ أن لويس لا يخبرنا سوى عن «الظل» الذي يخيم على العلاقات الإسلامية - اليهودية في الفترة الحديثة.

والصهيونية أيضًا لا ترى سوى «الظلال»، وزعمت لنفسها دور المنقذ لهؤلاء اليهود من البلاد العربية والإسلامية، التي أجبروا على الفرار منها حسب زعم الصهاينة، وهذا قلب للأسباب والنتائج يثير السخرية. إذ كانت الصهيونية نفسها عاملًا رئيسًا في تقويض وضع اليهود في البلاد العربية والإسلامية. وعلى حد تعبير نورمان ستليمان في كتابه The Jews of Arab Lands in modern Times وهو أكثر المصادر مرجعية بالنسبة للدراسات اليهودية عن هذه المسائل:

«بحلول أواخر ثلاثينيات القرن العشرين، كانت التوترات بين اليهود والسكان المحيطين تتصاعد في كل مكان بالعالم العربي. وفي أثناء العامين الأخيرين قبل الحرب العالمية الثانية، كان ثمة تدفق في الحوادث التخريبية يستهدف الممتلكات اليهودية الخاصة والعامة في العراق، وسوريا، ولبنان، وللمرة الأولى في مصر. وكان العامل الأول هو الصراع في فلسطين، الذي تحول فيما بعد بين سنة 1936 وسنة 1939 إلى تمرد صريح ضد الانتداب البريطاني والمشروع الصهيوني». (12-111-1991).

وتكمن أهمية هذا المنظور في أنه يجعلنا نتساءل عن الشائعة الصهيونية الكاذبة «اللاسامية العربية». فلم تكن للتوترات بين العرب واليهود أي علاقة باللاسامية في الاستخدام الأوروبي للمصطلح.

وقد زادت هذه التوترات في تناسب مباشر مع نمو المستعمرة الصهيونية، التي كان ينظر إليها على أنها رأس جسر لنفس الإمبراطورية البريطانية يسبب استفزازًا مطردًا، وهي الإمبراطورية التي كانت تسيطر هي والإمبراطورية الفرنسية على الأراضي العربية في كل مكان وعلى الشعب العربي. وقد فاقمت الحركة الصهيونية الشكوك والريبة، التي كانت تتزايد بالفعل في ولاء اليهود بالبلاد

العربية لقضايا التحرر العربى. فاليهود والأقليات غير المسلمة، مثل المسيحيين كان يمكن أن يظهروا بمظهر المستفيدين من الحكم الأجنبي:

«في الوقت نفسه الذي كان اليهود والمسيحيون في معظم أرجاء العالم العربي يمرون بتجربة شعور متصاعد بالتحرر من القيود والعجز الذي ميز الماضي، متجاوزًا مع الآفاق المتسعة للفرص، كانت الأغلبية المسلمة -باستثناء النخبة المتمدينة- تشعر باطراد أنها في موقف الدفاع، وأن تقاليدها، ونظامها الاجتماعي، واستقلالها نفسه في خطر. ونفس القوى التي كانت تمثل الجانب الطيب والخير بالنسبة لمعظم اليهود والمسيحيين كان ينظر إليها من جانب المسلمين نظرة عكسية. كما أن التفاؤل الناشئ لدى الأقليات كان يتناقض بشكل ملحوظ مع التشاؤم والريبة التي حكمت الأغلبية». (Stillman 1991:45).

وحتى لويس جاء أكثر وضوحًا بقوله: إن الحكم الإمبريالي بدأ عصرًا جديدًا من التقدم التعليمي والازدهار المادي لدى اليهود. بل إنه أكد المصير النهائي لهذه الجماعات (Lwis 1984:172-3).

ومن سوء الحظ أن البحث العلمي لكل من ستيلمان ولويس محدود بدعمهما للمشروع الصهيوني. وكتاب ستيلمان يدور أساسًا حول التحرش المتزايد بالأقليات اليهودية في سياق الاضطهاد الذي وصفه بدقة. ونادرًا ما يتناول الجهود التي بذلها الراديكاليون العرب واليهود في البلاد العربية، والذين وجدوا جمهورًا مهمًّا داخل الجماعات اليهودية. وشجاعة القيادات التقليدية للجماعات اليهودية، التي ناضلت لكي تتمسك بالصمود في مواجهة انتهاكات الصهيونية، لا تحظى سوى بقدر قليل للغاية من الاهتمام. ومع هذا فإنه أثار نقطة حاسمة تمامًا حول القوى الأوروبية الاستعمارية التي كافحت لكي تفصل الأقليات غير المسلمة في بلاد الشرق الأوسط عن المسلمين، ويتطلب هذا المزيد من التوسع في التوضيح.

وها هو السير نيفيل هندرسون المندوب السامي البريطاني في مصر سنة 1926م يقول:

«إن قدرًا قليلًا من كراهية الأجانب ليس شيئًا سيئًا بحد ذاته، لأنه يدفع بالأجنبي إلى أن يتهيأ بقدر أكبر لاعتبار السيطرة البريطانية والنفوذ البريطاني ضمانه الوحيد...» هذا هو بالتأكيد الوضع المثالي:

«إنه ينبغي على المصري أن يعتبرنا أصدقاء له وحماية ضد الأجنبي الغاصب، وأن يعتبرنا الأجنبي ضمانه الوحيد ضد الظلم والتفرقة من جانب المتعصب المصري». (kramer 1989:232).

لاحظ كيف تم تعريف اليهودي في مصر على أنه «أجنبي» وحقًّا كان معظم يهود مصر مهاجرين وفدوا حديثًا، بيد أنه لم يكن لبريطانيا أي مصلحة مطلقًا في رؤية هؤلاء، أو الأقلية اليهودية المستوطنة التي تفخر بجذورها العميقة في مصر(1)، تندمج في الأمة المصرية العربية، البازغة حديثًا، والتي يحتمل أن تشكل تهديدًا.

وفي كل مكان حكم البريطانيون والفرنسيون فيه بالشرق الأوسط، عمدوا إلى توسيع الفجوة بين الأقليات الدينية من اليهود والمسيحيين والأغلبية المسلمة. وكان هذا قد بدأ كوسيلة سياسية لتقويض الإمبراطورية العثمانية بتقديم أشكال مختلفة من «الحماية». ثم حول منح المواطنة بعض اليهود والمسيحيين إلى وكلاء مباشرين للسلطات الاستعمارية البريطانية والفرنسية بعد أن حلوا محل العثمانيين(83). ففي الجزائر، على الرغم من كونها مثالًا استثنائيًّا، وحيث سيطرت

فرنسا منذ سنة 1830م، كان كل يهود الجزائر قد صاروا مواطنين فرنسيين بحلول سنة 1870م (Stillman 1991:17). وفي مصر، حاولت فرنسا تقويض سلطة بريطانيا بتقديم منح المواطنة الفرنسية. أما البلاد الأوروبية الأخرى، مثل إيطاليا؛ فكانت تلعب نفس اللعبة هي الأخرى. وفيما بين الحربين، كان ما يزيد على ربع يهود مصر إما يحملون جنسية أجنبية أو تحت «الحماية» الأجنبية. (Kramer 1989: 31-2).

وقد تركت المؤسسات التعليمية المسيحية واليهودية الأوروبية أثرًا مشابهًا بتوفير التعليم الحديث (باللغات الأوروبية)، مما جهز الأقليات غير المسلمة بنصيب لا يتناسب مع عددها من المهارات المهنية الحديثة. وفيما بين اليهود، كانت مدرسة Alliance Israelite Universelle التي تتخذ من باريس قاعدة لها ناجحة بدرجة هائلة. وحتمًا كانت أنشطتها «قد أعيد تنظيمها بسرعة في الدوائر الرسمية باعتبارها امتدادًا مهمًّا لما رأوا فيه مهمة فرنسا الثقافية» (Lewis 1984:162). وفي الدولة الجديدة التي أنشأها الاستعمار في العراق، رحب الموظفون البريطانيون بتوسع الأنشطة التجارية للطبقة التجارية اليهودية العربية القديمة. وكتبوا تقارير عن تواؤمهم السريع والمميز مع الفرص التجارية المتزايدة بالبلاد، ولاحظ المندوب البريطاني المدني في سنة 1918م «إن العناصر التي نحتاج إلى تشجيعها أكثر من غيرها هي الجماعة اليهودية في بغداد» ويقتبس حنا بطاطو من هذا المندوب الذي كان يخدم الإمبراطورية البريطانية في كتابه: The Old Social Classes and the Revolutionary Movements in Iraq والذي يعد واحدًا من أهم الكتب في تاريخ الصراع من أجل استقلال العراق (1978: 244-6,311).

وفي الوقت نفسه، عندما تعمقت أزمة أوروبا الأيديولوجية والسياسية بالقرن العشرين، صارت بالحتم متداخلة مع المقاومة العربية القومية والإسلامية النامية ضد السيطرة الاستعمارية البريطانية والفرنسية على أراضيهم. وكما ذكرنا، كان هناك استيراد لنزعة معاداة السامية الأوروبية. وعلى الرغم من هذا لا يجب النظر بالضرورة إلى تأييد ألمانيا في الحرب العالمية الثانية في هذا الضوء. فقد كانت المسألة مسألة مساندة عدو عدوي باعتباره صديقي، وارتبطت أحيانًا باعتقاد ساذج، وفي بعض الأحيان بلاهة واضحة، في صدق عروض هتلر -التي تدعو للسخرية- للأمة العربية المقهورة. وكانت البرقية التي أرسلها فاروق ملك مصر إلى هتلر سنة ،19م، حالة دالة في الموضوع، إذ كان يتطلع إلى وصول الجيش الألماني «الذي سيحررنا من النير الإنجليزي القاسي الذي لا يحتمل» (Kramer 1989:125) أما القوميون العرب الأكثر إدراكًا، فلا بد أنهم عرفوا أن الفوهرر الألماني خاطب جيشه سنة 1939 بقوله «سوف نستمر في إثارة الاضطراب في جزيرة العرب.. ولنفكر باعتبارنا السادة ولنر في هؤلاء الناس أنصاف قرود خدم يريدون أن يشعروا بلسعة السوط» (Kramer 1989:262n.122).

وفي الوقت نفسه كان الجناح اليساري من حركات المقاومة العربية قد اكتشف أن الترحيب الحماسي بالماركسية أيضًا كان يعني في العادة تأييد ستالين والاتحاد السوفييتي، وسوف يبرهن هذا على كونه انقسامًا كارثيًّا. ذلك أن تأييد ستالين والأحزاب الشيوعية العربية لخلق دولة إسرائيل، قد قوى من حجة القوميين العرب والإسلاميين اليمينيين الذين جادلوا بأن اليهودية والصهيونية والشيوعية، كلها في الأساس شيء واحد.

وأي دراسة لتاريخ العراق خلال هذه السنوات، توضح كيف ستلعب هذه الضغوط المركبة دورها وتسيء إلى العلاقات بين اليهود والمجتمع الأوسع، وهو ما كانت الصهيونية في ذلك

الحين قادرة على استغلاله. وقد استفادت الصهيونية بشكل خاص من الاستياء الشعبي المتصاعد، ورفض سيطرة بريطانيا على العراق.

اليهود والنضال من أجل تحرير العراق

في سنة 1920م، كان تقدير الإدارة البريطانية لإجمالي سكان العراق نحو مليون وثلاثة أرباع المليون، ومنهم نحو مئة ألف يهودي. وكانت غالبية اليهود تعيش في بغداد والبصرة (Shiblak 1986:18)(2 وكانت الجماعة اليهودية في العراق هي الأقدم في العالم العربي والإسلامي وتفخر بشدة بجذورها الممتدة إلى بابل في بلاد ما بين النهرين قديمًا، ولم تكن تتقبل دعوات الصهيونية.

وفي سنة 1922م، كان مناحم صالح دانيال، وهو من أعيان بغداد البارزين من عائلة يهودية قديمة وصار فيما بعد نائبًا بالبرلمان العراقي، قد كتب في أدب ولكن في حزم، يطلب من الصهاينة أن يبقوا خارج العراق:

«في كل البلاد العربية تعتبر الحركة الصهيونية تهديدًا للحياة الوطنية العربية... وأي تعاطف مع الحركة الصهيونية ينظر له على أنه خيانة للقضية العربية».

... ولا شك في أن اليهود يتمتعون حقًّا بمكانة محترمة. فهم يشكلون ثلث سكان العاصمة، ويعملون في النصيب الأكبر من تجارة البلاد، ويقدمون مستوى من التعليم أعلى من المسلمين. ويعتبر اليهودي في نظر المسلم الناهض شخصًا ذا حظ جيد، ينتظر منه أن يرد الجميل للبلد الذي يعيش فيه (Rejwan 1989:207).

وبعض اليهود العراقيين سوف يقدمون إسهامهم في نهضة الأمة العراقية. فأول قصة قصيرة عراقية حديثة في فترة ما بين الحربين، كتبها يهودي هو مراد ميخائيل، وكانت تحمل عنوان «شهيد الوطن وشهيدة الحب» وكان ميخائيل واحدًا من الجيل الأول من الكتاب اليهود العراقيين الذين رأوا في أنفسهم «وطنيين عراقيين كانوا يأملون بشغف في ظهور عراق جديد، دولة مفتوحة وديمقراطية حديثة» (Somekh 1989:14). وفي هذه الفترة كان ما يقرب من ثلث كبار الموسيقيين العراقيين من اليهود (Shiblac 1986:28).

وكان أنور شاؤول كاتبًا من هذا الجبل ولد في الحلة جنوب العراق، وكان يكتب الشعر والرواية وقام بعدة ترجمات. وفي سنة 1929م أصدر صحيفة ثقافية هي «الحصيد»، واحدة من عدة صحف وجرائد أسسها الكتاب اليهود، قدمت كتابًا جددًا من اليهود وغير اليهود على السواء. وتم انتخاب شاؤول. الذي كان يحظى بتقدير كبير من رفاقه الكتاب المسلمين والمسيحيين. في سنة 1932م في اللجنة التي رحبت بالشاعر الهندي ذي الشهرة العالمية طاغور في بغداد.

وتحتفي السيرة الذاتية التي كتبها شاؤول بالحلة، وهي مكان يعرفه في فخر بأنه جزء من بابل القديمة على نهر الفرات. ويكتب عن شجرة عائلته اليهودية العراقية الشهيرة عائلة ساسون، ولكنه يصف رأس العائلة بأنه الشيخ ساسون، متعمدًا أن يربط شيئًا خاصًّا وحساسًا مثل السلطة في العائلة بالمفاهيم الثقافية العربية الإسلامية. وكانت أمه بالرضاعة مسلمة أرضعته مع ابنها. وكان الأخوان في الرضاعة قد التقوا مرة أخرى لقاءً عاطفيًّا في سن النضج ببغداد (Somekh 1989:18).

التهديد: الفرهود وهزيمة الوثبة

قوضت الحرب العالمية الثانية، وتصميم بريطانيا على جر العراق إليها ضد رغبته، مجهودات الزعماء اليهود الذين كانوا يسعون إلى دمج الجماعة اليهودية في الحركة من أجل الاستقلال الوطني العراقي. حرضت السياسة العسكرية البريطانية سنة 1941م إلى أقصى حد أعمال الشغب المنحوسة ضد اليهود، والتي سميت أحيانًا الفرهود، والتي خلفت مئات من الموتى.

ذلك أن الدعم الملموس من جانب اليهود للمجهود الحربي البريطاني، وعودة ظهور الجيش البريطاني في العراق، يبدو أنه كان سببًا في أعمال الشغب، على الرغم من أنه لا توجد رواية مرضية عنه. يشير ستيلمان إلى دور بريطاني كاذب، لا يزال بحاجة إلى تحقيق، وكذلك انتشار الدعاية النازية الصريحة. (16-1999:119,413).

وربما كان الدعم الذي قدمه الجيران المسلمون لليهود في الأماكن التي اختلطوا فيها بعضهم ببعض، والموقف التقدمي الذي تبناه الزعيم الروحي للمسلمين الشيعة في بغداد، قد ساعد على تهدئة أعصاب يهود العراق (Rejwan 1989: 223-4). كان الصهاينة قادرين على رصد بعض المكاسب قصيرة المدى (Shiblak 1986:54) على الرغم من أنه ليس هناك شك في أن الفرهود كانت صدمة وخلفت جرحًا عميقًا.

أما الوثبة «أقوى عصيان مسلح في تاريخ الملكية» (Batatu 1978:545) والذي نشب في أعقاب الحرب مباشرة، فكان يهدف جزئيًا إلى استمرار التورط البريطاني في البلاد. وكان لها إمكانية تضميد الجراح التي سببتها «الفرهود». وقد أثارت الوثبة البلاد عن بكرة أبيها، بما في ذلك الكثيرون من مواطنيها اليهود. ولكن ما حققته الوثبة من مكاسب، تمت مقايضتها بهزيمة العرب في الحرب ضد الصهيونية في فلسطين عام 1948م، وبسلوك الحزب الشيوعي العراقي.

وأثناء أحداث «الوثبة» حتى الحركة السرية الصهيونية اضطرت أن تعترف بأنها كانت «فترة إخاء» عندما كانت فكرة الهجرة إلى الدولة اليهودية في فلسطين «تبدو بعيدة للغاية» (Shiblak 1986:55).

وتعكس السلوكيات الغريبة لحزب الاستقلال العراقي القومي اليميني المواقف السياسية المتبدلة تجاه اليهود في ذلك الوقت. فعندما قتل شاب يهودي، هو شمران علوان على أيدي البوليس خلال «الوثبة»، وصفته صحيفة اليقظة التي كانت تؤيد حزب الاستقلال بأنه شهيد الشعب العراقي في حربه من أجل الحرية (5 فبراير1948)، وأثناء الشهرين التاليين كثيرًا ما نشرت اليقظة أسماء المساهمين اليهود في المجهود الحربي العربي بفلسطين (Shiblak 1986:556) ومع ذلك فبعد ثلاثة أشهر بالضبط (3 مايو 1948) كانت اليقظة تدين الشرور الثلاثة «الشيوعيين والصهاينة واليهود» (Shinlak 1986:65) لقد قلبت حرب فلسطين الموازين. ومنحت السلطات العراقية العذر لفرض قانون الطوارئ والتحمل بشدة على الجناح الراديكالي في الوثبة وخاصة الشيوعيين، وتم إعدام ثلاثة من زعمائهم علنًا بالشنق. وقد سلم الشيوعيون أنفسهم سلاحًا دعائيًا لليمين بتأييدهم دولة إسرائيل المُشكَّلة حديثًا. وقد خسروا نفوذًا حقيقيًا، وربما حاسمًا، في توجيه حركة الاستقلال. كان الضامن المحتمل في الحركة الوطنية العراقية لمقاومة اللاسامية قد فشل في اختبار بالغ الأهمية، وهو معارضة الصهيونية دونما تنازل:

«أدى القرار بشكل محزن إلى الحط من شأن الشيوعيين في أعين الجماهير الشعبية، وتعمقت

الفجوة بينهم وبين الوطنيين من كل طيف، وجلب الفوضى الرهيبة داخل صفوف الحزب نفسه» (Batatu 1978:566).

وفي الوقت نفسه، دخل حزب الاستقلال في الحكومة وحان وقت استغلال اللاسامية، كما حدث في أوروبا، كآلية للسيطرة الاجتماعية، وسحق المعارضة وتحويل الانتباه بعيدًا عن فشل الحكومة. إذ إن انتصار إسرائيل في حرب 1948 قد بين الإحساس الخطر بالفشل، وتم طرد اليهود من الوظائف الحكومية. وتم شنق رجل أعمال يهودي ثري علنًا بزعم أنه باع مخلفات الجيش البريطاني لإسرائيل. وتم القبض على الصهاينة العراقيين. كما أن العصبة المناهضة للصهيونية، وجريدتهم اليومية «العصبة» والتي كانت فعالة جدًّا في تهميش نفوذ الصهاينة في الجماعة اليهودية، قد أغلقت وتم القبض على زعمائها واتهموا بكل من الشيوعية والصهيونية! وقد استغل طرد إسرائيل للعرب الفلسطينيين لتبرير التهديدات بطرد يهود العراق.

ومن المحتم أن الحكومة الإسرائيلية وأصدقاءها في الغرب كان لديهم يوم مشهود لإدانة النصر الوليد لظل هتلر الذي كان يقال حينئذ إنه يطوق الأمة العراقية. كما أن الصهاينة العراقيين الذين عقدوا العزم على تدمير الزعامة التقليدية لليهود العراقيين، حققوا نصرًا ساحقًا على رئيس الجماعة اليهودية العراقية، الراباي (الربي) ساسون خدوري، بإجباره على الاستقالة.

كان خدوري شخصية رئيسة، وعلى ثقة بأنه أيًّا كانت مكائد الحكومة العراقية فإن الروابط التاريخية العميقة بين يهود العراق وبقية الشعب العراقي سوق تصمد أمام الأزمة الراهنة. وعلى حد تعبير معلق بارز في الجويش كرونيكل التي تصدر بالولايات المتحدة، كتب:

«إن ساسون وأولئك اليهود البغداديين الذين لديهم ما يخسرونه لا يحسبون الصهيونية؛ لأنها جلبت عليهم البؤس. إنهم يعرفون أن هناك هبَّات معادية لليهود في بغداد قبل الصهيونية، ولكن على العموم، ساعد التسامح الإسلامي اليهود البغداديين على أن يزدهروا بوصفهم مركزًا للتعليم والتجارة. وهم ومن على شاكلتهم سوف يحبون أن يبقوا. إنهم مشدودون إلى بيوتهم، وتقاليدهم، ومزارات الأنبياء، ولن يحبوا أن يتركوها لكي يبدؤوا الحياة مرة أخرى في معسكر مهاجرين بإسرائيل، حيث يعتقدون أن الناس ليسوا ودودين بصفة خاصة مع اليهود الشرقيين» (30 ديسمبر 1949م، أوردها Shiblak 1986:77).

هذه الملاحظات البصيرة أمسكت بدقة باللحظة الحيوية في مصير الجماعة اليهودية العراقية التي يرجع تاريخها إلى 2500 سنة مضت، وكان رئيس اليهود قد اشتكى بمرارة من إهانة العراق في الصحافة الغربية، التي بالغت بشكل خارج عن كل المقاييس في مستوى اللاسامية بالبلاد. وقد تذكر فيما بعد بصورة تهكمية كيف «كانت الدولارات الأمريكية تذهب لإنقاذ اليهود العراقيين، سواء كانوا يحتاجون إلى الإنقاذ أم لا. لقد كانت هناك مذابح يومية في جريدة نيويورك تايمز تحت سطور التواريخ التي لاحظ قليلون أن أخبارها جاءت من تل أبيب» (Shiblak 1986:76).

واحتقار الراباي (الربي) الرئيس السابق لمزاعم الصهيونية عكست ثقته في أن موجة المشاعر المعادية لليهود سوف تخبو. وعلى أي حال، كانت هذه أزمة غير مسبوقة زادت وطأتها حتى وصلت نقطة الانكسار بسبب التدخل الخارجي من جانب البريطانيين والأمريكيين والصهاينة. وحدث أيضًا أنها كانت أزمة لا يوجد بشأنها رواية تاريخية مرضية. على الرغم من أنها كانت تدمر الجماعة اليهودية العراقية بالفعل. وما يلي عدد قليل من الحقائق الأساسية، على الرغم

من أنها تربك العقل تمامًا.

مهرجان رد الفعل

كيف ساعدت بريطانيا والولايات المتحدة وإسرائيل

الحكومة العراقية على تدمير الجماعة اليهودية العراقية؟

أولًا: لدينا موظفون حكوميون بريطانيون يلهبون المواقف المعادية لليهود من جانب الحكومة العراقية، لكي يحسنوا خطتهم الجديدة الرائعة لمساعدة إسرائيل في «حل» مشكلة اللاجئين الفلسطينيين التي كانت إسرائيل نفسها هي التي خلقتها. ويمكن «مبادلة» اليهود العراقيين بالعرب الفلسطينيين المطروردين من إسرائيل. وهي خطة لم تتحقق أبدًا بطبيعة الحال. ووضعوا بعض التوابل على مقترحاتهم برؤية داخلية من لدنهم ذات خصائص محلية ونكهة لاسامية. وهنا عينتان فقط من بحث عباس شبلاق المدقق في وثائق الخارجية البريطانية التي ترجع إلى تلك الفترة:

«إذا كان يمكن تحويل هذا التهديد (بطرد اليهود العراقيين) إلى ترتيبات يتنقل اليهود العراقيون بمقتضاها إلى إسرائيل ويتلقون تعويضات عن ممتلكاتهم من الحكومة الإسرائيلية، على حين يتم توطين اللاجئين العرب بممتلكات اليهود بالعراق، فإن هذا سوف يبدو شيئًا يستحق الثناء... فإن العراق سوف يستريح من أقلية موقفها عرضة دائمًا لأن يضيف المصاعب في الحفاظ على النظام العام في وقت التوتر...» (Foreign Office to British Embassy. Baghdad,, 5 september 5 september 1949 cited Shiblak 1986:83).

وكون أن الحكومة البريطانية كانت تستخدم قنوات دبلوماسية لنشر الموضوع بين الأصدقاء العرب الموثوق بهم يبدو واضحًا من هذا الخطاب إلى مكتب العلاقات الخارجية Foreign office من القنصلية البريطانية في القدس:

«ويمكن أن يكون على الأقل اهتمامًا أكاديميًّا إذا ما وضعت الآن في السجل، وهي ملاحظة أبداها لي الفايكونت صمويل (أول مندوب سامي بريطاني في فلسطين بعد إعلان بلفور) عندما كان في فلسطين سنة 1949م. وقد تناول الشاي مع زوجتي بعد أن تناول الطعام مع الملك عبد الله ملك الأردن. وبينما كنا نناقش استيلاء اليهود على الممتلكات العربية، قال لورد صمويل: إن الطريقة الواضحة لحل هذه المسألة كانت بالنسبة للعراقيين هي أن يطردوا اليهود الموجودين لديهم ويستولوا على ممتلكاتهم....».

(British Consulate, Jerusalem to Forign office, 24 march 1951 cited shiblak 1986:84n:20).

ثانيًا: لدينا ظهور عملاء الصهيونية من إسرائيل، يعقدون صفقات مالية سرية غاية في الخسة والوضاعة مع السياسيين العراقيين، في أعلى مستويات الحكومة، لكي ينظموا خطة «إخلاء» الجماعة اليهودية العراقية عن طريق الجو. ومع ذلك لم يكلف أحد نفسه عناء استشارة اليهود العراقيين أو معرفة رأيهم. وتورطت شبكة نقل جوي أمريكية في الصفقة، بمؤازرة من حكومة الولايات المتحدة. ووقف بعض السياسيين العراقيين مع المشروع لكي يربحوا ماليًّا، بما فيهم رئيس الوزراء السويدي (Shiblak 1986:115-19).

ويؤكد التقرير الذي كتبه الباحث اليهودي العراقي المحافظ، البروفيسور إيلي قدوري، في مدرسة لندن للاقتصاد nomicLondon School ofEco المنطلق الأساسي لوصف شيلاق هنا. وقدوري حاقد على سلوك بعض العملاء الصهاينة، واتهمهم بالاستيلاء على (سلطة مغتصبة لا سيطرة عليها) في الجماعة اليهودية العراقية، وهو يقتبس عن مير بصري، أحد القادة التقليديين للجماعة اليهودية، والذي لم يكن يعارض في ذهاب اليهود العراقيين إلى إسرائيل، ولكنه في الوقت نفسه عبر عن القلق بشأن معاملة المهاجرين اليهود الفقراء. إذ إنهم لم يروا مرة أخرى مدخراتهم وغيرها من الأشياء الثمينة التي عهدوا بها إلى الموظفين الصهاينة الذين عينوا أنفسهم بأنفسهم (kedouri 1989-53-4).

ثالثًا: كان مشهد الحكومة العراقية وهي تجهز نفسها للاستيلاء على أعمال وممتلكات أكثر اليهود ثراء. وكان همفري تريفليان، ممثل بريطانيا في العراق موجودًا لتقديم المشورة المفيدة. فقد أخبر تريفليان رئيس الوزراء العراقي، وهو السويدي، أنه يجب أن يدرس الإجراء الذي اتخذ من جانب الحكومة الإسرائيلية فيما يتعلق بالممتلكات التي تركها اللاجئون العرب (Kedouri 1989:50).

وأخيرًا كانت هناك سلسلة من تفجيرات القنابل، فيما بين أبريل سنة 1950م ويونيه 1951م، في المناطق التي كان اليهود يتجمعون فيها، بعدما بات واضحًا أن معظم اليهود العراقيين ليس لديهم النية لمغادرة البلاد، على الرغم من كل الضغوط التي مورست عليهم للرحيل.

وحينئذ أعلنت السلطات العراقية أنها كسرت حلقة جاسوسية وقبضت على زعمائها. وقد اتهم الدليل الذي قدم للمحكمة بعض الأفراد العسكريين الإسرائيليين بأنهم وراء حملة تفجيرات القنابل، وكذلك التورط في شبكة صهيونية عراقية سرية.

وأثناء فترة الأربعة عشر شهرًا التي لم يقبض فيها على أحد بسبب تفجيرات القنابل، بدأ الذعر يستولي بقبضته على الجماعة اليهودية في العراق. وسجل عشرات الألوف من اليهود العراقيين أسماءهم طلبًا للهجرة.

وعلى الرغم من أن الحكومة الإسرائيلية قد أنكرت مسؤوليتها دائمًا، والحكومة العراقية كانت مهتمة بشكل يثير السخرية بأنها «تقنع» مواطنيها اليهود السابقين بأن يتركوا البلاد، كات هناك اتهامات دائمة تشير بأصبع الاتهام إلى السلطات الإسرائيلية. وقد قدمت صحيفة «الفهد الأسود» وهي صحيفة تنطق بلسان يهود البلاد العربية المتضررين، تقريرًا مفصلًا عن الأنشطة الصهيونية في أوائل سبعينيات القرن العشرين. وهذا أيضًا هو رأي ديفيد هيرست، المراسل المميز لصحيفة الجارديان في الشرق الأوسط(3).

ومذكرات ويلبر جراني إيفلان، الذي كان مستشارًا سابقًا لوكالة المخابرات المركزية الأمريكية في بغداد آنذاك، والتي تحمل عنوان (Ropes of Sand 1980) تشير حتى إلى تورط الولايات المتحدة الأمريكية فهو يكتب أن وكالة المخابرات المركزية CIA كان من رأيها أن الموقف في العراق كان «مبالغًا فيه ويتم إشعاله اصطناعيًّا من الخارج» إلا أن «وزارة الخارجية الأمريكية حثتنا على التدخل لدى الحكومة لتسهيل الجسر الجوي الذي كان الصهاينة ينظمونه لإنقاذ بقية اليهود العراقيين» (Shiblak 1986:121-22).

وتمشي الدراسات التاريخية اليهودية على أطراف أصابعها حول هذه الحوادث، حتى بعد مضي

نحو نصف قرن على حدوثها. إذ إن ستيلمان يقذف بالحكاية كلها في هامش ملتف وغير واضح، ولكنه يشعر بأنه مضطر إلى اقتباس جوهرة حكمة حقيقية من قدوري، الذي لاحظ ببساطة أن «الصهاينة كانوا قادرين على استخدام مثل هذه الأساليب» (Stillman 1991:162n.49).

و في 1958م تمت الإطاحة أخيرًا بالملكية العراقية الفاسدة التي أقامتها الإمبريالية البريطانية بواسطة انقلاب الضباط الأحرار، بقيادة اللواء عبد الكريم قاسم. لقد كان ذلك هو العمل الذي لم تنجزه «الوثبة»، وقد أشعل حماسة مظاهرات التأييد الجماهيرية الضخمة.

واستمر نظام حكم عبد الكريم قاسم خمس سنوات لا غير. ولكن حتى في ذلك الوقت القصير، برهن دونما شك، على أن الزعماء القوميين العرب، إذا ما أتيحت لهم فرصة الحكم دون تدخل خارجي، كانوا قادرين على ممارسة مسؤولياتهم تجاه رعاياهم اليهود.

ويتذكر مير بصري، زعيم الجماعة اليهودية العراقية، قائلًا باسم نحو ثلاثة عشر ألف يهودي بقوا في العراق ما جرى: «كانت تلك فترة ذهبية لمن بقي من اليهود العراقيين» (The Scribe ,4 June 1988)).

وكان رئيس الوزراء الأسبق السويدي واحدًا من السياسيين العراقيين السابقين الذين حوكموا بتهمة الخيانة على أيدي نظام الحكم الجديد. وإحدى العبارات التي قُرأت في عريضة الاتهام كانت أنه كان قد ساعد إسرائيل «بالسماح لمئة ألف عراقي أن يصبحوا مواطنين إسرائيليين» (Woolfson 1980:196).

ناصر في مصر

هل كان يمكن للقومية العربية التقدمية أن تحرر العرب واليهود؟

يظل الانقلاب العسكري الذي قام به تنظيم «الضباط الأحرار في مصر سنة 1952م -وهو النموذج الذي احتذى به ضباط الجيش العراقي الثوريون(5)، ثم ما تلاه من ظهور جمال عبد الناصر رئيسًا لجمهورية مصر- هو أهم حادث في التاريخ الوطني العربي». وقد جاء بعد سنوات من الاضطراب في مصر، وفي خضم هبوط معنوي واسع المدى في جميع أنحاء العالم العربي في أعقاب الهزيمة في الحرب الإسرائيلية - العربية حول فلسطين سنة 1948م. وكان ذلك علامة على حزم عربي أقوى كثيرًا وأشد حيوية بعدما يزيد على مئة سنة من المهانة علي أيدي الإمبريالية الغربية، وخاصة بريطانيا وفرنسا. وكان مقدرًا لناصر أن يصير هو النقطة المحورية للتطلعات القومية العربية في جميع أرجاء الشرق الأوسط.

فماذا كان موقف الضباط الأحرار من يهود مصر؟ قدم لنا ستيلمان تقريرًا مذهلًا:

«النظام الثوري الجديد في مصر... خرج ليؤكد لليهود وغيرهم من الأقليات التي كانت قد اهتزت على نحو سيئ بالأحداث التي جرت أواخر أربعينيات القرن العشرين وأوائل الخمسينيات (عندما كانت المشاعر المعادية لليهود تتصاعد زمن حرب فلسطين وتكوين الدولة الإسرائيلية). فقد قام اللواء محمد نجيب رئيس مجلس قيادة الثورة والقائد المحبوب شعبيًا بزيارات علنية لمؤسسات الجماعة اليهودية بالقاهرة والإسكندرية، بما في ذلك ظهور غير مسبوق لرئيس مصري بالمعبد اليهودي الكبير بالقاهرة في يوم كيبور (الغفران)، بعد شهرين فقط من الوصول إلى الحكم. ورفضت الحكومة الجديدة بوضوح أن تخلط بين الجماعة اليهودية المحلية والعدو

الصهيوني ورفضت بقوة الدعوات التي انطلقت من داخل الجامعة العربية لتجميد ممتلكات اليهود في جميع الدول الأعضاء...

هذه الفترة القصيرة الصافية استمرت حتى نهاية سنة 1954م عندما عزل ناصر -الذي كان هو القوة الحقيقية وراء الثورة- اللواء محمد نجيب. وأثناء السنة نفسها، تم كشف شبكة تخريب وتجسس مكونة من شباب يهود مصريين يعملون لحساب إسرائيل.. وقد أدى هذا إلى تقويض جهود العمل على استقرار الجماعة اليهودية في مصر (Stillman 1991:168-9).

***

وللأسف يترك ستيلمان الموضوع عند هذا الحد، تاركًا أسئلة حيوية تلح في طلب الإجابة. هل كانت هناك علاقة بين شبكة التجسس والتخريب، التي تسمى أحيانًا «عملية سوزانا»، والمرتبطة بالفضيحة المعروفة باسم فضيحة لافون، وقدوم ناصر إلى سدة الحكم؟ وهل كانت هناك علاقة بشبكة التخريب في العراق؟ على السطح يبدو هناك تطابق عجيب. على أي حال، لم يقدم الدليل على أن هناك رابطة بينها، كما أن هناك فروقًا حاسمة. ففي العراق، كان الهدف الأول هو بث عدم الاستقرار وزعزعة الجماعة اليهودية. أما في مصر فلا شك أن هذا كان من النتائج ولكنه لم يكن الهدف الأساسي. وفي العراق عكس ما حدث بعمق اتجاه رغبة الحكومة الملكية العراقية التي كانت تشاطر إسرائيل رغبتها في اقتلاع الجماعة اليهودية العراقية، وهو ما أسماه قدوري «التواطؤ البشع» (Rejwan 1997:45). وفي البداية لم تكن لدى جمال عبد الناصر مثل هذه الرغبة. وفي العراق لم تكن لدى إسرائيل مشكلة مع الحكومة الرجعية. ولكن منذ اللحظة التي تولى فيها جمال عبد الناصر السلطة، كان هدفًا لحملة إسرائيلية متواصلة للقضاء عليه.

كان هذا على الرغم من استعداده (ناصر) المدهش -والمعروف قليلًا- لاستكشاف إمكانية سلام حقيقي ومشرّف مع إسرائيل. والواقع أن هناك رأيًا جديرًا بالتأمل بأن القصد من «عملية سوزانا» كان إفشال مناقشات السلام السرية هذه. ومن المؤكد أنه يبدو -مع فائدة الإدراك بعد فوات الأوان- أن ذلك كان بداية للعد التنازلي طويل المدى للقضاء على جمال عبد الناصر على أيدي إسرائيل وحلفائها الغربيين.

وما كان يثير إسرائيل بشكل خاص تلك المناقشات التي كانت تجري بين جمال عبد الناصر والحكومة البريطانية حول انسحاب الحامية البريطانية من منطقة قناة السويس وكانت إسرائيل تعارض حصول مصر على الاستقلال الحقيقي. وكانت «عملية سوزانا» مؤامرة لخلق انطباع بالفوضى في الدولة الوطنية الجديدة لكي تقنع البريطانيين بأن وجودهم العسكري لا يزال ضروريًّا (Shlaim 2000:112).

وكان جمال عبد الناصر نفسه هو الذي أثار الأسئلة بشكل خاص حول هدف المتآمرين لقطع المناقشات السرية بين ممثليه وممثلي رئيس الوزراء الإسرائيلي موشي شاريت (Shliam 1998:278n.32) . وتشير مذكرات أحد المتآمرين إلى استنتاج مماثل. Beinin 1998:278n.32

وقد حاولت الحكومات الإسرائيلية المتوالية دائمًا أن تبقي الغطاء محكمًا على ما حدث حقًّا. وقد انفجرت الأصداء طويلة المدى «لعملية سوزانا» أو «فضيحة لاڤون» في وجه بن جوريون

أوائل ستينيات القرن العشرين، مما دمر مصداقيته بصورة خطيرة والحقائق الأساسية هي كما يلي:

كان لافون وزير الدفاع في حكومة شاريت. وكان شاريت يعتبر في نظر الكثيرين رجلًا ضعيفًا بلا كفاءة. وفضلًا عن ذلك كان يشك في أنه متساهل مع العرب. بل كان له أصدقاء من العرب، وهو أمر نادر حقًّا بين الزعماء الصهاينة (Shlaim 2000:97). أما لافون فكان متشددًا متطرفًا، وقد شجع بن جوريون على تعيينه في منصبه، وكان بن جوريون لا يزال نشيطًا على الرغم من تقاعده المؤقت، ويقف وراء ما يجري في المشهد. وقد تم تنظيم عملية سوزانا دون معرفة شاريت على أيدي عناصر من المخابرات العسكرية.

وقد أنكر لافون دائمًا أنه أعطى الأوامر، ومع ذلك تم توجيه اللوم إليه. وقد عجل إصرار لافون فيما بعد على أن يثبت براءته بتنازل بن جوريون النهائي عن نفوذه. وعلى الرغم من أن المؤامرة تحولت إلى خيبة ثقيلة، وتم القبض على مفجري القنابل قبل حدوث أي ضرر خطير، فإن ناصر والسلطات المصرية قد اهتزوا من جرائها بطبيعة الحال. لقد كانت على أي حال ما نسميه اليوم تهديدًا إرهابيًّا. وكان جزء من الخطة يقضي بأن توضع القنابل في دور السينما التي تعرض أفلامًا أمريكية وبريطانية، في وقت متزامن مع الاحتفال بالذكرى السنوية لثورة الضباط الأحرار، مما يسبب خسائر لا تعد في الأرواح.

واللافت للنظر أن جمال عبد الناصر قد حافظ على خطوط الاتصال مفتوحة مع شاريت، وقبِل كلمة شاريت بأنه لم يكن متورطًا. وكان شاريت هو الذي أقفل المحادثات عندما انتهت محاكمة متآمري التفجيرات في القاهرة بحكم الإعدام على اثنين من المتهمين. وكان شاريت يضغط على جمال عبد الناصر لكي يتجنب حكم الإعدام، ولكن -حسبما أوضح شلايم- لم يكن بوسع عبد الناصر أن يستجيب لهذا لأن حكم الإعدام كان قد تم تنفيذه منذ فترة وجيزة على أعضاء في جماعة الإخوان(84). ولم يكن من الممكن الدفاع عن التعاطف مع الإرهابيين اليهود بقدر أكبر من الإخوان المسلمين (2000:121).

وفي الوقت نفسه قدم شاريت رواية مختلفة جدًّا للأحداث للبرلمان الإسرائيلي وعامة الجمهور. إذ كان قد اتهم الحكومة المصرية بإجراء محاكمة مظهرية ليهود مصريين أبرياء. واثنان منهم سيتم إعدامهما. وسادت حالة من الهيستيريا لتلهب إسرائيل كلها ضد مصر تحت حكم جمال عبد الناصر.

واستقال لافون، وخلَفه بن جوريون وزيرًا للدفاع. وكان بن جوريون مصممًا على تأكيد سلطته على شاريت وعلى جمال عبد الناصر. وفي غضون أسبوع واحد فقط كان قد نظم «عملية السهم الأسود»، وهي غارة عسكرية سرية داخل غزة (Shlaim 2000:123-9).

كانت غزة تحت الإدارة المصرية على أساس الهدنة بين مصر وإسرائيل في نهاية الحرب الإسرائيلية - العربية سنة 1948. وكان القصد من عملية السهم الأسود أن تمزج بين أقصى درجات الاستفزاز وأقصى درجات الإذلال لجمال عبد الناصر. فقد تم قتل سبعة وثلاثين جنديًّا مصريًّا وجُرح واحد وثلاثون، في مقابل ثمانية جنود قتلى وتسعة جرحى من الإسرائيليين. وكان ذلك أخطر صدام بين مصر وإسرائيل منذ اتفاقية الهدنة، وقضت إلى الأبد على أي أوهام لدى ناصر في أن يبحث عن حل سلمي للصراع العربي الإسرائيلي، فمنذ تلك النقطة سوف يعتبر جمال عبد الناصر أن إسرائيل أداة الإمبريالية الغربية وعدو لدود.

وهنا يبدأ الطريق إلى أزمة السويس سنة 1956، وهزيمة جمال عبد الناصر في حرب 1967م. كما أن الأسلحة المصرية التي سُلمت إلى الفلسطينيين في معسكرات اللاجئين تبدأ هنا أيضًا. وقد بنى مستقبل شارون المهني على قتل العرب وكانت بدايته في وقت سابق بالمذبحة التي ارتكبها في قرية قبية الأردنية سنة 1953م (Shlaim 2000:90) ولكن غارة غزة أسبغت على هذا إثارة مدوية. فقد كان شارون هو القائد العسكري لهذه العملية. وقد كانت عملية السهم الأسود أكثر من تعويض لفشل علمية سوزانا.

ولكن يهود مصر هم الذين دفعوا الثمن النهائي؛ فبعد السويس أُجبر الكثيرون على الرحيل من البلاد (Beinin 1998-86-7). وليست لدينا طريقة لمعرفة ما إذا كان جمال عبد الناصر يستطيع هو وثورته أن يحتضنوا الأقلية اليهودية، ولكن إسرائيل كانت قد خربت جهود ناصر للسلام، وكذلك مكانة يهود مصر. ويعبر آڤي شلايم عن ذلك بمرارة واضحة.

«هذه الهجمات بدا وكأنها تؤكد أسوأ الأنماط المصرية عن خيانة اليهود وازدواجية سلوكهم وأسوأ المخاوف بشأن المؤامرات الشيطانية التي تحيكها إسرائيل لتقويض وحدتهم الوطنية واستقلالهم» (2000:118).

فقد كانت عملية سوزانا قد دمرت الثقة في ولاء يهود مصر ووطنيتهم. وثمة شاهد إسرائيلي مهم، ومن المؤكد أنه مدهش، يدعم هذا الاستنتاج. ففي أوائل تسعينيات القرن العشرين، كان عالم الأنثروبولوچيا عمانويل ماركس يخدم مديرًا للمركز الأكاديمي الإسرائيلي في القاهرة، وهو مؤسسة يحط من قدرها الوطنيون المصريون باعتباره مركزًا للتجسس والتخريب. وبعد أن ترك ماركس القاهرة عائدًا إلى عمله في التدريس بجامعة حيفا، افترض أنه لولا عملية سوزانا، لما حل الدمار بالجماعة اليهودية في القاهرة: «إن أولئك المسؤولين عن الأعمال القذرة يقصد المخابرات الإسرائيلية وعملياتها التخريبية والإرهابية» وقد استغلوا اليهود في مصر... وقد سبب هذا تمزق العلاقات (Beinin 1998:239).

اليهود في العالم العربي

ضحايا سياسات الفشل في القرن العشرين

ألفريد دريفوس، ضابط بالجيش الفرنسي تم القبض عليه في واحدة من أشهر فضائح اللاسامية في القرن التاسع عشر، رفض الصهيونية باعتبارها حافلة بالمفارقات (على الرغم من أن الصهيونية تاجرت باسمه في سعادة. انظر الفصل السادس)، وكانت تلك ملاحظة تتعلق تمامًا بالموضوع. وكان يعني أن الصهيونية هربت في وجه الثورة الفرنسية سنة 1979م. فقد كانت الثورة قد طالبت بفصل السياسة عن الدين في الدول الوطنية الديمقراطية البازغة حديثًا في أوروبا.

والصهيونية -بينما تتشرف بهذا المثال- قد مارست عكسه. لقد ربطت الديانة اليهودية إلى عربة الاستعراض القومية الخاصة بها، التي ظهرت إلى جانب الأمم الأوروبية، في الشرق الأوسط، باعتبارها جزءًا من مجموعة إمبريالية غازية، ثم طالبت بالأرض العربية باسم يهود العهد القديم.

لماذا ينبغي أن نتوقع من الإسلام والأمة العربية أن تقدم التنازلات للعالم الحديث بشأن فصل السياسة عن الدين بينما لا نطالب أكثر ممثلي الغرب استفزازًا أن يفعل هذا؟ إن هذا لدليل

إضافي على غطرسة الغرب وعلى نزعة «الاستشراق» الباقية لديه.

ولدينا هنا نقص خطير يشوب سياسات الحداثة. إذ إن صهر الدين بالقومية -على نحو يحمل فارقة لامنطقية، ولكنه مزروع عمدًا- قد أتاح لقنبلة موقوتة أن تضرب دقاتها في الشرق الأوسط. ولا بد أن قادة الإمبراطورية البريطانية كانوا قد تنبؤوا بها، ولكن، على العكس كان يناسبهم أن يلعبوا مع الصهاينة وهم يهندسون -أو يصطنعون- تحويل الديانة اليهودية إلى أيديولوجية قومية. كان ذلك هو الظرف المناسب والأساس المنطقي لزرع جمهرة من المستوطنين اليهود الأوروبيين في فلسطين بطريقة مصطنعة، وكان عرب فلسطين هم أول الضحايا، أما ثاني الضحايا فكانوا هم اليهود في العالم العربي.

لقد نجحت الصهيونية في خلق أزمة ولاء سياسي لهؤلاء اليهود. إذ إنها جعلت منهم -دونما ضرورة على الإطلاق- أجانب في ثقافة كانت بالنسبة لكثير منهم هي ثقافتهم الخاصة على مدى أكثر من ألف سنة. والأسوأ من هذا، أنها كانت تعني أنهم كان يمكن أن يظهروا بمظهر الخونة في البلاد النامية حديثًا والتي تناضل للإطاحة بالسيطرة الأجنبية. لقد كسبت الصهيونية الحرب الأيديولوجية بالفعل وختمت على مصير هؤلاء اليهود، عندما صوتت الجمعية العامة للأمم المتحدة، في نوفمبر سنة 1947م على تقسيم فلسطين العربية إلى دولة عربية ودولة يهودية. وفي اليوم السابق، كان محمد هيكل، أحد زعماء حزب الأحرار الدستوريين المصري، وهو حزب وطني علماني له سجل جيد في الدفاع عن يهود مصر، كان يسلم تمامًا بأنهم يجب أن يكونوا مواطنين كاملي المواطنة في مصر المستقلة، كان هيكل قد حذر الأمم المتحدة بقوله: «إذا كان الدم العربي يراق في فلسطين، فإن الدم اليهودي سوف يراق بالضرورة في كل مكان آخر، على الرغم من كل الجهود المخلصة للحكومات المهتمة لمنع مثل هذه الردود الانتقامية» (Beinin 1998:60)(85).

كان التحذير يخفي اعترافًا بالاستسلام، فقد كان الغرب قد نجح في فرض يهودية مشوشة ومسيسة تمامًا باعتبارها قومية تخدم مصالحها في العالم العربي. وكان لا بد من الردود الانتقامية المتوقعة أن تكون هي التكتيكات السلبية اليائسة بلا جدوى من جانب الأمة العربية المُهانة. وكان لا بد للعنف الذي انطلق على المدى القصير أن يخلي مكانه لعزلة اليهود في العالم العربي على المدى الطويل.

ليلى مراد، نجمة السينما في العالم العربي... وخائنة؟

إن مصير ليلى مراد، وهي واحدة من أبرز ممثلات العالم العربي في القرن العشرين، «وسندريلا الشاشة المصرية... والمطربة الثانية بعد أم كلثوم التي لا تُبارى (Beinin 1998: 83) هو العكس(86)(8). فبعد ظهورها في 28 فيلمًا على مدى ما يزيد على عشرين عامًا، وتسجيل مئات الأغنيات، وهي ابنة حاخام يهودي ورئيس جوقة منشدين في المعبد اليهودي (Alcalay 1993:254) تقاعدت فجأة سنة 1955م، وكانت تقارير الصحافة المصرية والعربية قد اتهمتها سنة 1952 م بأنها منحت مبلغًا كبيرًا من المال إلى إسرائيل. وقد أنكرت هذا الاتهام بصلابة. وقد أصابها إحباط خاص لأنها كانت قد أعلنت اعتناقها الإسلام برغبتها عندما تزوجت الممثل والمخرج أنور وجدي سنة 1946م «إنني مسلمة مصرية» هذا ما أعلنته.

وعلى الرغم من هذا كله بقيت لها شعبيتها الواسعة في مصر، وهويتها المختلطة ما بين الإسلام واليهودية كانت مصدرًا للجدل، ومن المؤكد أنها قد سببت الكثير من الفضول والتعاطف

وكذلك العداء.

وبعد أن حققت السلطات المصرية في التهم الموجهة ضدها وجدت أنها بريئة. وعلى أي حال فإن الحكومة السورية لم تكن مقتنعة واستمرت في فرض حظر شامل على أفلامها وأغانيها. وخلال المفاوضات لقيام الجمهورية العربية المتحدة سنة 1958م بين مصر وسوريا، أصر جمال عبد الناصر على رفع الحظر عن أعمالها، واستجابت الحكومة السورية إذعانًا (Beinin 1998: 84-8).

وقصة ليلى مراد هذه إنتاج حي، دراما عربية يهودية حقيقية، وهي كذلك جزء من التاريخ العربي - اليهودي في القرن العشرين. ولكنها ليست معروفة كما هي. وهنا يصرخ فشل الأساليب السياسية في وجوهنا. إن عبارة «التاريخ العربي - اليهودي» نفسها تصرخ في جلبة. إنه تاريخ مفقود، إن عبارة «التاريخ العربي - اليهودي» نفسها تصرخ في جلبة. إنه تاريخ مفقود، إنه يقيس نجاح الصهيونية في فصم الروابط بين العرب واليهود. وعند بداية القرن الحادي والعشرين كانت المذاهب القومية الخائفة والرجعية التي تتمسح بالحكمة في الدول العربية الطاغية تلتقى مع الرؤية الصهيونية. وكان نمو جماعات الإسلام السياسي المتشددة هو البديل الحتمي. أما البديل الشيوعي فكان قد كشف عن إفلاسه. والشيوعيون الجدد الذين ينتمون إلى حركة معاداة العولمة، وحفنة من القوميين العرب التقدميين، الذين كانوا يناضلون ضد انهيار الروح المعنوية وضد القهر، والذين هم على استعداد للتضحية برؤوسهم، يقدمون الأمل، بيد أنهم لا يزالون غاية في الضعف بحيث لا يمكنهم تغيير الحال، ولا عجب في أن تنظيم القاعدة قد اقتحم المشهد، وهو الرمز الكامل على الإخفاق السياسي.

«التهوية على شرارة الأمل في الماضي»

علينا أن نصل إلى ذلك التاريخ المفقود. باكتشاف هذا الماضي مرة أخرى، يمكننا -على حد تعبير فالتر بنيامين- أن نكتشف أن:

«موهبة التهوية على شرارة الأمل من الماضي، (وهي عملية مجهدة)، قوة ارتجاعية سوف تستدعي باستمرار أن نتساءل عن كل نصر -في الماضي وفي الحاضر- للحكام» (Alcalay 1993:215).

وربما كتب أميل الكلالي الذي يقتبس هذه القطعة الرائعة، أحسن كتاب عن اليهود القادمين من العالم العربي في القرن العشرين. وهو ليس تاريخًا بالضبط، ولكنه نبوءة شعرية جسورة، بيد أنها مؤقتة تمامًا. وهي تأخذ بدايتها من حكاية ليلى مراد الخيالية على نحو غير مقصود. وهناك إيماءات مُعذبة تشير إلى طريق الخروج من الأزمة، بيد أن المستقبل يبقى غائبًا في ضبابات الغموض والشك. وعندما تفشل السياسة ينبغي للشعر أن ينهض بالمهمة.

فقد جمع الكلالي طاقمًا من المعارضين: يهودًا وبعض الفلسطينيين وفنانين، وروائيين وشعراء بالأساس، ممن ترعرعوا في الأراضي العربية. وهم يريدون بديلًا لرؤية اليهود فقط «من خلال الفيلم الكئيب والدموي غالبًا الذي يُسمى الصهيونية» (1993:57) وهو والكُتاب الذين يقتبس عنهم يكسرون حاجز الماضي القريب بتوضيح كيف يذوي هذا الفيلم عندما يوضع في ضوء الماضي البعيد ذي الثقافة الإسلامية الراقية. ومثل هذا التنازل يلقي الضوء أيضًا على المستقبل.

ولكننا نبدأ بالنظر إلى الماضي القريب، من خلال عيون هؤلاء الكتاب، عندما يدرسونه بأمانة

شديدة. ألم تكن الجماعات اليهودية أقرب إلى الحكام الإمبرياليين الأوروبيين الغربيين للبلاد العربية في القرن العشرين بأكثر مما يجب؟ وهناك فقرة تبلغ الذروة من إسحاق جور ميزانو جورين في الرواية الثانية من ثلاثيته التي تحمل عنوان صيف الإسكندرية، وضعها في مصر قبل ثورة 1952 مباشرة. وهو يصف شغبًا كاد ينشب حول الأعراق والأجناس عندما يسبق فارس سباق (چوكي) -وهو ابن ليهودي اعتنق الإسلام- فارسًا بدويًّا:

«اندلعت صرخة مفزعة من حلق البدوي الأسود المتعطش للدماء. وعلى الرغم من أنها كانت تحمل كل علامة مسرح من الدرجة الثانية، فإنها أفلحت في أن تصدم الجمهور المتجمع لبرهة من الزمان. وطبعًا كان هناك أولئك الذين وجدوا أن هذا النوع من السلوك الفج مرفوض، ولم يروا فيه سوى عدم القدرة على الهزيمة بكرامة، ولكن الأغلبية سمعت أصداء مختلفة تمام الاختلاف في تلك الصيحة. وفيما بعد، في المحكمة، قال بعضهم: إنه سمع في تلك الصيحة عذاب مصر الذي يسببه لها الأجانب» (Alcalay 1993:259).

وشعر أميرة هيس «يبحث أيضًا في صندوق الماضي المحرم» (aLacalay 1993:260). وفي قصيدتها التي تحمل عنوان «القمر يصطبغ بالجنون» تخبرنا:

أنا ابنة بغداد

يمكنك أن تقسم

كنت من أهالي لندن

أتذكر تلك البوابات من الحديد

وكل ذلك التألق الذهبي

الحراس على خيولهم والخيالة

يا لها من ريح تقرص أقدامي

لكي تذكرني بأنني كنت أنتمي روحًا

ولكي لا آخذ الجسد

الذي ملكه الوهن والارتعاش

وعندما ظهرت هيس في برنامج دردشة أدبية في إسرائيل، كان مضيفها متحيرًا تمامًا بشأن الإشارة إلى لندن في القصيدة. وتطلب الأمر أن يقوم ضيف آخر، هو سامي ميخائيل اليهودي العراقي سابقًا، لكي يشرح أن الميدان محل التساؤل في القصيدة كان نسخة من ميدان لندن شيدته السلطات الاستعمارية البريطانية. ويعلِّق الكالاي: «إن مباني بغداد زمن الاستعمار، وتغيير الحراس تكون في الحال هي الامتداد الأعمق لمشهد الطفولة، كما أنها عبء يبعث القشعريرة في العظام» (1993:261).

وفي وقت ما نحو سنة 1160م، توقف الرحالة اليهودي بنيامين التطيلي ليحملق مندهشًا في المسجد الكبير بدمشق، وكتب:

«هنا حائط من زجاج البلور من بديع صنع الإنسان، وبه ثقوب بحسب أيام السنة، وعندما

تدخل أشعة الشمس كل منها في تتابع يومي يمكن معرفة ساعات اليوم بواسطة مزولة مدرجة. وفي القصر المكون من غرف مبنية من الذهب والزجاج، إذا مشى الناس حول الحائط يكون في وسعهم أن يرى أحدهم الآخر، على الرغم من أن الحائط قائم بينهم» (Alcalay 1993: 119).

ويقارن الكالاي ملاحظات بنيامين التطيلي بما كتبته چاكلين كاهانوف الكاتبة التي ولدت في القاهرة وترعرعت فيها في القرن العشرين، والتي رأت في منطقة شرق المتوسط:

«ليست منطقة غربية أو شرقية خالصة، وليست مسيحية أو يهودية أو إسلامية خالصة. وبسبب تنوعها، فإن منطقة شرق المتوسط تقارن بلوحة من قطع أحجار الموازيكو الصغيرة التي تم تجميعها سويًّا في صورة مسطحة. وهي بالنسبة لي تبدو أقرب إلى المنشور تتصل وجوهه المختلفة عند الحافة الحادة للاختلافات ولكن كلًّا منها يعكس الضوء أو يبثه... وربما يكون الأوان قد آن لمنطقة شرق المتوسط لكي تعيد تقييم نفسها في ضوئها نفسه، بدلًا من أن ترى نفسها في أضواء أوروبا، باعتبارها شيئًا دخيلًا متعبًا، ومريضًا، ويكاد يكون بلا حياة» (Alcalay 1993: 27).

وتحتاج الاختلافات -حتى الجادة منها- إلى ألا نخون الوحدة الجوهرية للمنطقة. وعلى أي حال فإن بوسعنا أن نرى، ونفهم ويحترم كل منا الآخر من خلال الزجاج الذي يفصلنا بعضنا عن بعض. ويمضي إلياهو إلياشار -الذي تنتابه تعاسة عميقة بسبب وطنه الجديد، إسرائيل- شوطًا أبعد بالجدل. إن مفهوم أرض إسرائيل قد خان وحدة المنطقة، وهو يطير في وجه المعنى الحقيقي للماضي كما يسد طريق الحل في المستقبل:

«إن أرض إسرائيل جزء صغير من المنطقة التي تقطنها شعوب كثيرة، ومعظمهم يعتنقون ديانة واحدة، وتتملكهم رغبة قوية في الوحدة. إن أرضنا لم تكن أبدًا وحدة جغرافية محدودة، فقد كانت لا تزال عند معبر الطرق بين الشرق والغرب، بين مصر وآشور وبابل في الماضي. واليوم، فإن بلادنا هي الكيان الوحيد الذي يمنع الوحدة التي يراها العرب مثالًا» (Cited Alcalay 1993:24)(87)..

هل السوق يبالغ في الاختلافات ويفاقمها أم يقللها إلى الحد الأدنى؟ على مدى ألف سنة برهن المسلمون واليهود على أنهم تجار بارعون. إذ إن قوس التجارة العربية الإسلامية العظيم، الذي يوحد بين البحر المتوسط والمحيط الهندي، توقع الطفرة الثورية للرأسمالية الأوروبية الغربية بما يزيد على خمسمئة سنة. ومع ذلك لا يمكن إنكار أن معاداة السامية في أوروبا القرن العشرين وجدت من يؤازرها عندما وجهت شعاراتها التي تحض على الكراهية القاتلة ضد اليهود الذين يكسبون من التجارة. بيد أن الإسلام كانت له وجهة نظر أخرى احتفظ بها تقليديًّا. وعلى حد تعبير إبراهام أدوڤيتش ولوسيتڤالينسي:

«حق اليهود... نفذه المسلمون باعتباره كلمة السر لاختصار المساومات. واختتام أي مناقشة بتنفيذ «حق اليهود» يعادل القسم بالأيمان... لأن أهل الكتاب هم أهل القانون، إذًا يمكنك التعامل معهم» (Alcalay 1993:21).

ومثل هذه المناقشة تعود بنا حتمًا إلى جويتين، المؤرخ البارز في التاريخ العربي، اليهودي. ولنتذكر أنفسنا (الفصل الرابع) أن جويتين لم يماحك في عظمة الإمبراطورية العربية الإسلامية. وكان مأخوذًا بالتأثير التحويلي على يهود بابل القديمة في العراق ورفاقهم في الدين بكل مكان

آخر. وربما يكون الأمر أيضًا أن جويتين قد ملأ دونما قصد فجوة تركتها دراسة أبرام ليوم الرائدة عن كيفية أن الجماعات اليهودية في أوروبا العصور الوسطى قد قيض لها أن تكون تحت قيادة طبقة تجارية متحركة تمامًا (انظر الفصل الثالث). وقد كتب جويتين وهو يقدم وثائق الجنيزا:

«مع حركة الفتوحات العربية الكبرى التي أعقبت ظهور الإسلام... هكذا بدأت الفترة الطويلة والعظيمة في التعايش العربي اليهودي... وفي وقت الفتوح العربية الإسلامية، كانت غالبية اليهود لا تزال تشتغل بالزراعة والعمل اليدوي... وقد اختفى الشعب اليهودي كشعب زراعي خلال القرنين السابع والثامن بعد الميلاد، ولكن على عكس السكان القدماء، عادوا إلى الحياة أمة من التجار والحرفيين...» (Alcalay 1993:36).

وقد تصادف التحول الاقتصادي مع تقوية دور المرشد الديني والروحي لليهود في كل مكان، وهو التلمود البابلي، ومركزه الجديد الفخور في مدينة بغداد المبنية من جديد.

وفي تاريخه الذي يحمل عنوان History of Jews، يناقش نسيم رجوان الصحفي المولود في بغداد، وهو ناقد أدبي ومؤرخ، من المعجبين بجويس، وكافكا، ومان، وأورويل (Alcaly 1993:45) هذه المسألة بشكل مطول. وهو بهذا يعطينا -ربما عن غير قصد- ما نسميه صهيونية عكسية أو مقلوبة.

إذ تنقلب الأساطير المتعلقة بالنفي في الكتاب المقدس -وهي أساطير حيوية بالنسبة للمشروع الصهيوني- رأسًا على عقب. ونفس الأساطير المبكرة عن النفي، أي ترحيل اليهود على أيدي الآشوريين منذ 2700 سنة، ثم على أيدي البابليين قبل 2600 سنة، تحولت إلى احتفالات بالحياة اليهودية في بابل بلاد النهرين القديمة.

فلم «يرجع» معظم اليهود عندما احتل الفرس بابل منذ 2500 سنة، ويقال إن الملك الفارسي قورش ترك اليهود يعيدون بناء المعبد في القدس. هذا على الرغم من كل البكاء على ضفاف أنهار بابل (Rejwan 1989:24).

وهناك يوجد بعض التاريخ الحقيقي؛ إذ إن هناك دليلًا على استمرار الاستيطان اليهودي في بابل، وهناك تفسير لاستمراره، والذي بقي ألف سنة حتى الفتح الإسلامي، فقد كان الحكم الفارسي عمومًا هو الأفضل من حكم الرومان، ويستدعي رجوان (1989-9) شهادة المؤرخ اليهودي الكبير في القرن العشرين، سالو بارون.

ويسبر رجوان أغوار رابطة بلاد ما بين النهرين بشكل أعمق. ألم تنشأ الفكرة اليهودية أصلًا هنا في بلاد ما بين النهرين، وطن أول سجلات الحضارة في المنطقة، كذلك موطن النبي إبراهيم، المؤسس الروحي للديانات التوحيدية الثلاث الكبرى، اليهودية، والمسيحية، والإسلام؟ يكاد يكون من المؤكد أن بعض قصص الكتاب المقدس، قد كتبت في بابل. فقصة الخليقة، والطوفان وبرج بابل تحمل «تشابهات مذهلة» مع الأدب البابلي (Rejwan 1989-5).

كذلك يجد رجوان نزعة عالمية في التلمود البابلي، وهو أكثر حجية من نظيره التلمود الفلسطيني، الذي كتب بعده بقرون في أعقاب الانتصار الروماني في القدس. وهو يكتشف عظات مؤثرة عن مبادئ المساواة الإنسانية، يشدد على اليهود في علاقاتهم مع غير اليهود (1989:64-5) في خضم رسائل متناقضة، وبالرغم من سريتها وغموضها. ثم جاء الفتح الإسلامي آنذاك ليشجع الوجود اليهودي في العراق. ونمت جماعة يهودية -بسرعة فائقة- في مدينة

الكوفة التي كانت معسكرًا للقوات العربية الإسلامية جنوب العراق. وكانت هناك جماعة يهودية كبيرة في البصرة تخرج منها العلماء والأطباء، الذين تولوا مناصب في مصر وفلسطين (Rejwan 1989:83-4). وصار مركز التلمود البابلي آنذاك في بغداد. وقد كان من نعم الإسلام على التعليم اليهودي أنه أدى لانفتاحه على تأثيرات كان يسعى إلى تجنبها قبل ذلك. ويقتبس رجوان عن ابراهام هالكين الذي كتب:

«لقد وجدت مفردات العقيدة الإسلامية طريقها إلى الكتب اليهودية، وصار القرآن كتاب برهان ودليل. والممارسة العربية بوضع الشعر في مؤلفاتهم، وأخذها عنهم اليهود. إذ حفلت الكتابات اليهودية بجمل من مؤلفات العلماء والفلاسفة والفقهاء... فليس هناك عداء تجاه التعليم الأجنبي... ولا انزعاج من أنها نفس «الحكمة اليونانية» التي حذرت المصادر التلمودية من أن يدرسوها ليلًا أو نهارًا» (Rwjwan 1985:148).

وهناك المزيد -وأكثر من المزيد- يمكن أن يقال عن هذا. فهل يمكن الوثوق ببنيامين التطيلي في ملاحظته التالية التي كتبها في بغداد القرن الثاني عشر، عن زيارة جيوتم الذي كان رئيس الأكاديميتين التعليميتين العظيمتين بالمدنية؟

«كان الخيالة من اليهود وغير اليهود يرافقونه كل خميس عندما يذهب لزيارة الخليفة ويمضي أمامه المنادون يعلنون «أفسحوا الطريق لسيدنا، ابن داوود، وريثه» وهو يرتدي ثيابًا من الحرير المطرز... ويقوم الخليفة ويُجلسه على العرش (بجانبه)... ويقف الأمراء المسلمون في حضرته».

ويورد لوسيان جوباي مؤلف كتاب Sunlight and Shadow هذه الفقرة دونما تمحيص (1992:52). وربما كان محقًّا في فعل هذا. أم أنها من «مثل» موتيفات المؤرخ اليهودي يوسيفوس؟ أم هي زخرفة شعرية ترمز إلى وحدة الديانتين. ويجب أن نضع في حساباتنا أنها تحدثنا عن قرون من التعايش العربي - اليهودي.

ولنتوجه بسرعة إلى القدس في بداية القرن العشرين. انظر وتأمل، فهذا التعايش القديم يعاود الظهور على السطح. وها هو كتاب يعقوب يهوشع بعنوان Childhood in Old Jerusalem، الذي صدر عند بداية القرن العشرين، يتذكر القدس القديمة التي كانت عربية إسلامية على مدى الشطر الأكبر من فترة طولها ألف سنة، وهو يصف اليهود السفارديم، الذين لهم جذور عميقة في المنطقة تعود إلى إسبانيا الإسلامية:

«إن أبناء وبنات عائلات اليهود السفارديم في القدس، كانوا أتباعًا شغوفين للموسيقى العربية. وكانوا يحفظون في احتراس شديد بآخر الأغنيات التي تم تأليفها في القدس أو تم إحضارها من القاهرة، وكان كل واحد يستمتع بأعمال سلامة حجازي وكذلك أعمال الآخرين ممن زاروا القدس، وخلطوا الشعر بالموسيقى في المقاهي العربية، هناك حيث اعتاد المستمعون الجلوس على مقاعد القصب المنخفضة ويدخنون النارجيلة. وكان الجميع يذهبون لمشاهدة فرقة چورج أبيض المصرية عندما كانت تأتي إلى القدس قبل الحرب العالمية الأولى. وكانت مقاهي المدينة القديمة وبوابة دمشق بمثابة مراكز ثقافية وترفيهية للعرب ولليهود على السواء. ولا شك أيضًا في أن مختلف الأغاني من الشعر العربي والموسيقى العربية وجدت طريقها إلى داخل «البيوتيم»، أي الأغاني والترانيم الدينية التي كان الرابيون ورؤساء فرق الإنشاد ينشدونها في ليالي الجمعة، في البيت وفي المعبد (Alcalay 1993:109).

وقد انتهى المطاف بالكثير من يهود العالم العربي في إسرائيل. وعند وصولهم يتم رش بعضهم بالمبيد الحشري DDT، لكي يخلصوهم من «عربيتهم» (Alcalay 1993:34). وهذه ليست مبالغة، ولدى الكالاي صفحات كثيرة تصف ما حدث. وعلى الرغم من أن كتاب سويسرسكي Israel The Oriental Majority لا يحمل الكثير من التواريخ، فإنه لا يزال أفضل تقديم لهذا الجانب الأقل شهرة من العملية التي قامت بها الصهيونية لتجميع الشعب اليهودي. ذلك أن اليهود القادمين من اليمن -إحدى أفقر وأقدم الجماعات اليهودية- كانوا «متوحشين وبرابرة»، ولكنهم على الأقل كانوا يعملون بشكل طبيعي وبلا خجل... ودون أن يكون «مستر ماركس في أدمغتهم»، على حد تعبير صحيفة صهيونية (Alcalay 1993:43).

أبا إيبان، الدبلوماسي الإسرائيلي «المتحرر»، والمشهور، والباحث في الدراسات الفارسية بجامعة كامبردج، قدم مرة شرحًا عن اليهود القادمين من العالم العربي. فقال: إن هناك خطرًا حقيقيًّا من أن «المهاجرين ذوي الأصول العربية سوف يجبرون إسرائيل على أن تساوي مستواها الثقافي مع مستوى العالم المجاور لها» (Alcalay 1993:31). ولا عجب في أن شالوم شتريت، وهو إسرائيلي من اليهود العرب، قد كتب مرثية عنوانها «سجين صهيون» (Alcalay 1993:29).

أحيانًا، في بعض الأحيان فقط، يقوم إسرائيلي من أصول أوروبية بقول الحقيقة، وها هي لوفا إلياف.

«لقد خطفنا منهم الكنز الثمين الذي جلبوه معهم، اللغة العربية... لقد جعلنا من اللغة العربية والثقافة العربية شيئًا كريهًا وحقيرًا» (Cited Alcalay 1993:24-5).

وعلى مرِّ السنين، كان بوسع قادة إسرائيل، الذين تساندهم الدولارات الأمريكية أن يضفوا ميزات على الظروف المعيشية لليهود القادمين من البلاد العربية، بما يكفي لجعلهم يصبون جام غضبهم على الفلسطينيين في قاع البناء الاجتماعي. ويكتب ألكالاي:

«يمكن للإنسان أن يهمهم بألحان فنان عربي مشهور للغاية مثل فريد الأطرش، أم كلثوم، محمد عبد الوهاب، دقيقة واحدة، ويقوم بعمل المستجوب الذي يصير فيه الموضوع الفلسطيني هدفًا لغضب في غير محله في الدقيقة التالية.

كل هذه هي طبيعة الطبقة العاملة الإسرائيلية، وكل خطوة في كل من البناء الثقافي المهيمن، والاحتلال المستمر، تخضع للإغراء الجارف من قبل صناعة الصور الرسمية، وهو ما يؤدي فقط إلى المزيد من إخراس الذاكرة نفسها...» (1993:254).

وماذا تفعل حيال يعقوب يهوشع، الذي اقتبسنا من كتابه الذي يحمل عنوان Childhoodin Old Jerusalem، وهو جزء من عمل في ستة مجلدات؛ ذلك أن يهوشع الذي صار موظفًا صهيونيًّا كبيرًا «قد استطاع في صمت أن ينجز دور مدير القسم الإسلامي في وزارة الشؤون الدينية الإسرائيلية أثناء الفترة عندما كانت المؤسسات والآثار الإسلامية -والشواهد الإسلامية البارزة- محل تجاهل منتظم، أو يتم الاستيلاء عليها أو تُنهتك» (Alcalay 1993:233).

وما يصدم جدًّا في هذه الخيانة الشيزوفرينية أنها تمضي في معظمها دونما تحدٍّ أو حتى تحقيق وتدقيق. بيد أن أكلالاي لا يهتز له جفن من جراء هذا الوضع الكئيب. ولا يمكن للخيانة أن تأخذ معها معنى ذاكرة الطفولة. وعلى الرغم من أنه صاحب هذه الذكريات، فإنها تبقى أحد

«الأصوات الشاهدة في البرية» (Alcalay 1993:233).

وألكالاي ثابت في تمرده ضد إخراس الذاكرة. ولم يزعم أبدًا ما هو أكثر من أنه كان يجمع فريقًا من المعارضين العرب - اليهود، وهي أقلية ضئيلة. ولكن ألكالاي في مهمة ثورية «للتهوية على تلك الشرارة من الأمل الآتي من الماضي». وهو مؤمن ملهم بأنه في قول الحقيقة نستطيع على الأقل أن نغير العالم. وهو يجد الإلهام في أناس مثل شمعون باللاس، وهو يهودي عراقي، صار روائيًا في إسرائيل، ويحكي الحقيقة. ويحتاج الأمر إلى شجاعة حقيقية للقول إنه فعل ذلك حقًا:

«إنني لم أنكر أبدًا أصولي العربية أو اللغة العربية، على الرغم من أن تعليمي فرنسي أيضًا. لقد كانت الهوية العربية ولا تزال جزءًا مني... إنني عربي حمل هوية إسرائيلية، ولكني لست أقل من أي عربي آخر في عروبتي...».

وأثناء حرب الخليج الأولى، عندما أطلق صدام حسين صواريخ سكود على إسرائيل، رفض بالاس أن يدين أولئك الفلسطينيين الذين أيدوا الهجوم العراقي. وكان هذا يعني الانفصام عن حركة «السلام» الإسرائيلية: «بوسعي أن أفهم الفلسطينيين أولئك الذين كانوا يصفقون عندما سقطت الصواريخ على الإسرائيليين، لقد فعلوا هذا بعد عشرات السنين من القهر...» (Alcalay 1993:243).

ومن الواضح أن الاختبار النهائي هو هذا العبور إلى جانب الفلسطيني. ترى من الذي سوف يتماثل مع محمود درويش شاعر فلسطين العظيم؟ إن قصيدته في التضامن مع الانتفاضة الأولى سنة 1987م سببت ضجة في الصحافة الإسرائيلية والبرلمان الإسرائيلي. وهرع كثير ممن يسمون «اليسار» من الفنانين الإسرائيليين بحثًا عن غطاء بيد أن قلائل منهم، مثل الممثل يوسي شلواح أيدوه. قال: إنه ذهب إلى «الأدب العربي الفلسطيني بحثًا عن ثقافتي» (Alcalay 1993:231).

وربما كان محمود درويش هو الشخص المحوري، حيث ينبغي للشعر أن يسد الصدع السياسي. وهو يمكن أن يتماثل مع الفتى الانتحاري، وفي قصيدته «حالة حصار» يقول الشهيد:

الشهيد يوضح لي: لم أفتش

وراء المدى

عن عذارى الخلود

فإني أحب الحياة

على الأرض، بين الصنوبر والتين.

لكنني ما استطعت إليها سبيلًا

ففتشت عنها بآخر ما أملك، الدم في جسد اللازورد.

ولكن محمود درويش يرى بشرًا في ملابس الجنود الإسرائيليين. وتبدو نزعته «الإنسانية» أحيانًا كما لو كانت نقصًا في اليقظة والوعي.

(Mahmoud Darwish Maya Jaggis «Profile» Guardian , 6 June2002)

وظني هو أن محمود درويش كان سيوافق على الطريقة التي حل بها هذه المعضلة چوزيف سمبرون، وهو مقاتل شيوعي سابق في المقاومة الفرنسية ضد الاحتلال النازي، وأحد الكتاب الكبار عن الهولولكوست. ففي روايته The Cattle Truck الراوي الذي يحكي رواية سمبرون سجين في طريقه إلى بوخينڤالد، ويضفي على حراسه العسكريين صفة الإنسانية مدركًا بالطريقة التي وضعت بها الإمبريالية والعسكرية الإنسان في زي موحد.

وقد عاود سمبرون بحث المعضلة في سيرته الذاتية التي تحمل عنوان Litratureon Life. وهو يصف قصة حقيقية من حركة المقاومة، عندما مرَّ هو ورفيقه بجندي ألماني شاب كان جالسًا على ضفة النهر مستمتعًا بالريف الفرنسي. وكان مع الألماني موتوسكيل وبندقية آلية، ولم يكن لدى سمبرون أي شك فيما ينبغي عمله. ولكنه اندهش لبرهة عندما بدأ الجندي فجأة يغني «في صوت عميق محبب» أغنية La Paloma. وكانت هذه أغنية مفضلة منذ أيام طفولة سمبرون. وقد جعلت الجندي بريئًا على نحو ما: «بريئًا ليس فقط من كونه وُلد ألمانيًّا تحت حكم هتلر... من أنه يجسد رغمًا عنه القوة الباطشة للفاشية. ولكنه بريء أصلًا في كامل وجوده.. لقد كان ذلك عبثًا وكنت أعرف هذا...» (Semprun 1997:33.34) ومع هذا، وعلى الرغم من قلق رفيقه، كان عليه أن ينتظر حتى تنتهي الأغنية قبل أن يطلق عليه الرصاص ويرديه قتيلًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

خاتمة

... من الرماد

الصهيونية هي المشكلة؛ وإزالتها هو الشرط الأساسي للسلام في الشرق الأوسط إنها الشرط الأساسي لمصالحة عربية - يهودية في فلسطين. هذه هي الخاتمة الوحيدة الممكنة لهذا الكتاب. ولست بحاجة لإقناع القراء العرب بهذا؛ لأنه بالنسبة للأغلبية الساحقة من العرب هذه حقيقة لا تحتاج إلى برهان.

ومعظم الناس في أوروبا وشمال أمريكا ليسوا مقتنعين. وعلى الرغم من أن قضية العدل للفلسطينيين مسموعة بصوت أعلى من ذي قبل، فإنه يبقي هناك اعتقاد باقٍ أن هناك ما يبرر وجود دولة يهودية في فلسطين، وأنه يمكن التوفيق بين الموقفين.

ولكن ذلك غير ممكن. وعلى الرغم من أن هناك أصواتًا قليلة للغاية من اليهود على استعداد لقول ما أقول، عندما يتحدثون بصوت عالٍ، فإنهم يصبحون حليفًا قويًّا بشكل فريد للفلسطينيين في أوروبا وأمريكا.

وكتاب out of the Ashes، الذي كتبه لاهوتي يهودي أمريكي، هو مارك إيليس، يلفت النظر من حيث إن إيليس يخلص أيضًا إلى أن المشكلة هي الصهيونية، بيد أن نقطة انطلاقه ليست هي المجادلات التي تقوم على أرضية منطق اليسار العلماني، بل نقطة الانطلاق عنده هي الديانة اليهودية نفسها. ولا يمكن أن نستبعد مارك إيليس باعتباره شخصية هامشية. وثمة كتاب سبق هذا عن الحاجة للاهوت «تحرير» يهودي، تلقى خطاب شكر بمبادرة من الدكتور چوناثان ساكس، الذي كان آنذاك رئيس الكلية اليهودية Jwes Collinge. 7 February 20005).

وعندما تحدث ساكس نفسه علنًا ضد إسرائيل، بل طلب مساواة في الأديان بين الإسلام والمسيحية واليهودية، تم إسكاته تحت وطأة اليد الثقيلة الباطشة للأرثوذكسية اليهودية في بريطانيا. وبالنسبة لإيليس كان هذا عرضًا من أعراض «حرب الضمير الأهلية» اليهودية (2002:47) وهي معركة تدور تحت السطح في الجماعات اليهودية. أما إيليس نفسه فلا يهادن ويرى في الصهيونية تهديدًا لا يقتصر على الفلسطينيين، وإنما ينسحب إلى مستقبل اليهودية نفسها.

وثمة نكهة لكتاباته تتبدى واضحة على أول صفحة من الكتاب، حيث يرى مدافع المروحيات الإسرائيلية اليوم تحدد الحياة اليهودية:

«لدي رؤيا باستبدال لفائف التوراة في تابوت العهد الذي يجعل بؤرة اهتمام اليهود على الرب والعدل والسلام، بمدافع المروحيات التي تتحدث عن القوة والبطش دونما أخلاق أو قيم. ماذا نفعل. إننا نتعبد» (2001:1).

وإيرينا كليڤيتز واحدة من الأصوات اليهودية العظيمة التي تتحدث في كتاب إيليس. وكان والدها مايكل كليڤتز ناشطًا في العصبة الاشتراكية اليهودية، وواحدًا من أشجع الأعضاء في منظمة المحاربين اليهود في جيتو وارسو. وفي أوائل سنة 1943م، هرَّب مايكل إيرينا وأمها، كما اشتغل

هو أيضًا بتهريب الأسلحة والمواد التي استخدمت في هبة الجيتو ضد النازي فيما بعد. وفي اليوم الثاني من الهبّة قُتل مايكل، بينما كان يحمي مقاتلي الجيتو الآخرين.

وقد وقفت إيرينا كليفتر حياتها على الحفاظ على ذكرى أبيها والحفاظ على المبادئ التي كان يحارب في سبيلها حية. ولم تتردد في الربط بين هذه الذكرى والمأزق الفلسطيني. وتقول إنه يجب على الفلسطينيين أن يشعروا «بالغضب الوحشي» الذي كان ينتاب محاربي الجيتو عندما يرون تمزيق الحياة الفلسطينية:

«إن الهيستيريا التي تتملك أمًّا أطلق عليها الرصاص، وعائلة مذهولة أمام منزلها الذي أُزيل أو تم تدميره، والعائلة التي تفرق شملها، وتم ترحيلها؛ والقوانين التعسفية أو الظالمة التي تأمر بإغلاق الدكاكين والمدارس وفتحها، وإهانة الناس ذوي الثقافة الغريبة والتي يحكم بأنها الأدنى، شعب ترك في العراء، دونما وطن أو جنسية، شعب يعيش تحت الحكم العسكري» (Ellis 2002:29).

ويُضيف إيليس نفسه أن صورة الهبَّة التي جرت في جيتو وارسو، ترمز إلى الكبرياء والانتهاك الذي حاق بالحياة اليهودية «تتممه الانتفاضة الفلسطينية».

وفي إسرائيل أيضًا، كشف عدد قليل جدًّا من اليهود الإسرائيليين الغطاء. ولكن مرة أخرى، فإن أولئك الذين يملكون المساعدة، يبلورون منظورًا يجعل من الممكن التنبؤ بتحالف حقيقي مع الفلسطينيين.

وفي تسعينيات القرن العشرين، صارت مجموعة من المثقفين الإسرائيليين مرتبطين بما «بعد الصهيونية»(88). وعلى الرغم من أنه لا يزال هناك بعض من الافتقار إلى الوضوح بشأن هذا المفهوم، فإنه يشجع بعض الكتاب على تحدي «حكاية» الصهيونية المهيمنة، وكذلك على أن يبدؤوا في تخيل حياة يهودية في فلسطين دون دولة صهيونية. وعلى الرغم من أن هؤلاء المفكرين قلة في عددهم، فإنهم في بعض الأوقات يبدون مصدر تهديد حقيقي، يشيرون إلى انعدام أساسي للأمان داخل الحركة الصهيونية، على الرغم من غطرستها وعنفها الخانق. ومن هنا منعت حكومة شارون كتاب تاريخ مدرسيًّا يدرس في الصف التاسع؛ لأنه «ذو اتجاه ما بعد الصهيونية» وليس وطنيًّا بالقدر الكافي (Nimmi 2003:1).

وأقوى الأصوات، سواء ارتبطت بهذا الاتجاه أو تزاملت معه، هم العدد الضئيل من الشخصيات الرئيسة السابقة في المؤسسة الصهيونية للعمل، الذين يخافون الآن حقًّا من الوحش فرانكنشتاين الذين ساعدوا هم أنفسهم على خلقه. إن جذورهم العميقة الأولى في المشروع الصهيوني هي التي تجعلهم ينفصلون بهذه الحدة.

وربما لم يكن هذا ما قصدوه، بيد أن أكبر إسهاماتهم قد تكون مساعدة الآخرين منا في تكثيف حرب الدعاية ضد الصهيونية في أوروبا وأمريكا؛ وهذا هو إسهامنا في تحرير فلسطين.

وما يلي مستخرجات قصيرة من مقالات، كتبها اثنان من السياسيين الصهاينة في حزب العمل سابقًا، وهي مقالات مذهلة بدرجة أكبر في أصولها.

أفراهام بورج، ظل لفترة طويلة من كبار ساسة حزب العمل الإسرائيلي. وكان رئيس الكنيست الإسرائيلي من 1999م إلى 2003.

تستند الأمة الإسرائيلية اليوم إلى دعائم من الفساد وإلى أساسات من القهر والظلم. وعلى هذا

فإن نهاية المشروع الصهيوني على عتبة بابنا...

إن يهود الشتات الذين تمثل إسرائيل لهويتهم العمود الفقري، عليهم أن يهتموا وأن يتحدثوا بصوت عالٍ...

كان المفروض أن نكون نورًا للأمم... وفشلنا. وتحول الأمر إلى أن تضاءل نضال ألفي سنة من أجل البقاء اليهودي إلى دولة من المستوطنات، تدبرها عصبة لا أخلاق لها من الخارجين على القانون.

من المريح جدًّا أن تكون صهيونيًّا في مستوطنات الضفة الغربية مثل بيت إل وأورفا. والفضاء الذي تحدث عنه الكتاب المقدس ساحر. ويمكن أن تحملق خلال النباتات المتسلقة ولا ترى الاحتلال. وبالسفر على الطرق السريعة التي تبعد فقط نصف ميل غرب حواجز الطرق الفلسطينية، يصعب إدراك التجربة المهينة للعرب الذين يعاملون باحتقار، والذين عليهم أن يزحفوا ساعات الطرق الوعرة، المليئة بالحواجز التي خُصصت لهم... راقب هذه اللحظة جيدًّا: البنية الفوقية للصهيونية تنهار بالفعل مثل صالة أفراح رخيصة بالقدس. ولا يستمر في الرقص في الطابق الأعلى -على حين تنهار الأعمدة في الأسفل- سوى الرجال المجانين...

إن إسرائيل وقد توقفت عن الاهتمام بأطفال الفلسطينيين، لا يجب أن تصيبها الدهشة عندما يأتون وقد اغتسلوا بالكراهية ويفجرون أنفسهم في مراكز الهروب الإسرائيلي من الواقع. إنهم يسلمون أنفسهم إلى الله في الأماكن التي نجد فيها الترفيه والتسلية، لأن حياتهم عبارة عن عذاب. إنهم يريقون دماءهم بأنفسهم في مطاعمنا لكي يقضوا على شهيتنا لأنهم لديهم أطفال وآباء جوعى ومهانون في منزلهم. إننا يمكن أن نقتل ألفًا من قادة المجموعات يوميًّا دون أن نحل شيئًا، لأن القادة يصعدون من أسفل؛ من آبار الكراهية والغضب من «البنية التحتية» للظلم والفساد الأخلاقي.

وقد نشرت أصلًا في جريدة يديعوت أحرونوت الإسرائيلية (Guardian 15 September 2003).

وممنون بنفنستي نائب عمدة سابق في القدس (انظر الفصل الخامس). وهو هنا يصف رفضه «للحكاية الصهيونية» والقصة الحقيقية هي:

قصة الأهالي الذين يشعرون أن الناس الذين جاؤوا من وراء البحر قد لوثوا عاداتهم الطبيعية وجردوهم من أملاكهم. وبالنسبة لي كان هذا اكتشافًا مذهلًا. لقد جاء بعد كامب ديڤيد، بعد أذى سنة 2000م.

ومثلما فهم حكام جنوب إفريقيا تمامًا -في لحظة بعينها- أنه لا يوجد خيار سوى تقويض نظامهم الحاكم، كذلك يتعين على المؤسسة الإسرائيلية أن تفهم أنه ليس ممكنًا فرض مفاهيم الهيمنة لديها على ثلاثة ملايين ونصف المليون فلسطيني في الضفة الغربية وغزة، ومليون ومئتي ألف فلسطيني مواطنين في إسرائيل. وما يجب علينا أن نفعله هو محاولة الوصول إلى موقف المساواة الشخصية والجماعية داخل إطار نظام حكم واحد شامل في جميع أنحاء البلاد.

وحتى الآن ليس لديَّ اقتراح متماسك، وليست لدي خطة عمل. ولكن اتجاه الفكر واضح. إن النموذج الجديد يجد شرعيته في الواقع الحقيقي... إن تنفيذ حكومة فيدرالية سوف يضرب نوعًا

من التوازن بين المجموعتين الوطنيتين. ولن يزعجني إذا ما كانت المساواة هي أساس هذا التوازن: واحدة بواحدة.

«وأعترف بوجود طبقة عاطفية هنا: هي هويتي الخاصة. إنني في السبعين من عمري الآن، ولي الحق في إبداء الرأي والمشورة. وقد كنت جزءًا من كل ما هو هنا: حركة الشباب والجيش والكيبوتزات والسياسة. أنا ملح الأرض، ولست أخجل من ذلك، إنني شخص إسرائيلي فخور مثل زهرة النوار. ولن أدع أحدًا يدعوني خائنًا لن أدع أحدًا يقول: إنني لست من هنا -بما في ذلك الفلسطينيون- إنني كما أراد أبي أن أكون بالضبط: من الأهالي. لقد أراد لي أن أنمو مثل شجرة من تراب الأرض. أرادني أن أكون جزءًا طبيعيًّا من الفضاء. وربما يكون قد نجح؛ إنني ابن واحد من الأهالي. بيد أن هذه بلاد كان فيها العرب على الدوام. هذه بلاد يكون العرب فيها هم المشهد، هم الأهالي. ولهذا لا أخاف منهم.

إنني لا أتصور نفسي أعيش هنا دونهم، وفي نظري أنه من دون العرب تكون هذه الأرض أرضًا عاقرًا. «هذه هي نقطة الاختلاف التي تفرقني عن أصدقائي في اليسار؛ لأنني حقًّا ابن من أهل البلاد، أنجبته أسرة من المهاجرين، وقد انجذبت إلى الثقافة العربية واللغة العربية؛ لأنها هنا. إنها الأرض... أحب كل شيء ينبثق من هذه التربة. على حين أن اليمين -بالتأكيد- يكره العرب ولكن اليسار يكرههم أيضًا. إن العرب يضايقونهم، إنهم يعقدون الأمور. إن الموضوع يولد أسئلة أخلاقية، وهذه بدورها تزرع القلق الثقافي.

هذا هو السبب في أن اليسار يريد هذا الحائط الرهيب، وهو في نظري ضد الجغرافيا، وضد التاريخ، وضد الإنسانية. هذا هو السبب في أن اليسار يريد الاختباء وراء هذا الحائط الذي هو اغتصاب للأرض.

ولهذا أظن أن الوقت قد حان لإعلان أن الثورة الصهيونية قد انتهت. وربما يجب أن يتم هذا بشكل رسمي، إلى جانب إقرار تاريخ لإلغاء قانون العودة. ينبغي أن نبدأ التفكير بشكل مختلف. ونتحدث على نحو مختلف... لأننا في النهاية سنصير أقلية يهودية هنا» (Haaretz, 8 August 2003).

إن إلغاء قانون العودة الذي يدعو إليه بنفنستي هنا، سوف يؤدي حقًّا إلى الإطاحة بدعامة مهمة من دعائم الصهيونية، التي زعمت تاريخيًّا لأي يهودي في أي جزء من العالم هذا الحق. وفي مكان آخر (الفصل الخامس) وصف بدقة طرد اللاجئين الفلسطينيين العرب سنة 1948م بأنه «تطهير عرقي». إن حقهم في العودة هو أيضًا شرط أساسي لمثل هذه التسوية.

ومقارنة بنفنستي بدولة الفصل العنصري في جنوب إفريقيا صائب. فهناك تم إدراك حقيقة مهمة جدًّا في الوقت المناسب: البنية المستبدة للدولة العنصرية يجب أن تتفكك، قبل أن تعصف بها ثورة دموية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الهوامش:

(1)- استغلتها إسرائيل سياسيًّا وإعلاميًّا وماليًّا، ودفع ثمن ذلك الفلسطينيون. وهناك خلاف كبير على حجمها وتفاصيلها، مع إغفال بقية ضحايا النازية والحرب العالمية الثانية في مقابل التركيز عليها، وتفرض كثير من الحكومات الأوروبية عقوبات قانونية ضد من يحاول التشكيك في هذه الأسطورة. وقد تعرض باحثون في فرنسا وإنجلترا والولايات المتحدة لمضايقات عنيفة نتيجة نشر أبحاثهم عنها. وآخرهم المؤرخ الإنجليزى إيرڤنج الذي ينفى تماما وقوعها، حيث تم اعتقاله في ديسمبر عام 2005م. (المترجم)

(2)- عام 1936م كان بداية الانتفاضة الفلسطينية العربية ضد الحكم البريطاني والمستوطنات الاستعمارية الصهيونية. الحكومة البريطانية التي كانت تشعر وقتها بإحباط متزايد قامت بإرسال اللورد بييل على رأس هيئة تحقيق ملكية إلى فلسطين للبحث عن سبل لحل الصراع. وستقوم بتناول انتفاضة عام 1936م بالتفصيل في الفصل السابع.

(3)- قال شلومو بن عامي آخر وزراء خارجية حزب العمل لعمرو موسى -أمام وكالات الأنباء- في القرن الحادي والعشرين: القدس عاصمة إسرائيل منذ ثلاثة آلاف سنة: فأجابه موسى: ولكن عمر إسرائيل خمسون سنة فقط. فأجاب شلومو: كل الناس يعرفون أن القدس عاصمة إسرائيل منذ ثلاثة آلاف سنة. فذلك موجود في الكتاب المقدس. وبعد وفاة ياسر عرفات، ظهر وزير العدل الإسرائيلى على شاشة ال C.N.N ليقول: لا يمكن دفن الإرهابى عرفات في الأرض التي دُفن فيها ملوك بني إسرائيل. (المترجم)

(4)- فضيحة لافون هي عملية قامت بها المخابرات الإسرائيلية لضرب المصالح الأمريكية والبريطانية في مصر بهدف الإيقاع بين حكومة الثورة وأمريكا وبريطانيا، في وقت لم تكن حكومة الثورة قد بلورت اتجاهات سياساتها الخارجية بعد. وقد تم الكشف عن هذه العملية بالصدفة في إحدى دور السينما بالإسكندرية في منتصف خمسينيات القرن العشرين. (المترجم)

(5)- كان لاڤون وزيرًا إسرائيليًّا في الخمسينيات من القرن العشرين، وربما كان مسؤولًا أو غير مسؤول عن فضيحة تورط فيها شباب مصري يهودي قامت المخابرات الإسرائيلية بتجنيدهم ليقوموا بزرع القنابل في مصر، وقد تم إعدام ثلاثة من المصريين. أما لاڤون الذي أصر على براءته فأجبر على الاستقالة من منصبه بشكل مُخزٍ، وفي عام 1960م قدم لاڤون طلبًا لرئيس الوزراء بن جوريون بفتح التحقيق من جديد في القضية بحجة وجود أدلة جديدة. وفي أثناء التحقيقات التي تبعت ذلك ألمح لاڤون إلى تورط وزارة الدفاع في التستر على بعض المتورطين ومن بينهم أتباع لبن جوريون. ومع ذلك لم تصل التحقيقات في قضية لاڤون إلى نتائج مرضية وإن كانت بالفعل قد تسببت في تحطيم حياة بن جوريون السياسية.

(6)- مارتن جيلرت هنا يقتبس من شباني تبيث كاتب مذكرات بن جوريون الذي يتعاطف معه بشكل كبير.

(7)- إيجال يادن رئيس قوات الدفاع الإسرائيلية وأحد أشهر علماء الآثار في البلاد شرح مرة أنه بالنسبة للشباب الإسرائيليين أصبح «الإيمان بالتاريخ» بديلًا عن «الإيمان الديني» ولكن هذا التمييز ينهار تمامًا إذا ما قمنا بالتعامل مع العهد القديم بشكل حرفي، أو حتى إذا ما أخذنا بعض

المقاطع منه بشكل حرفي. نادية أبو حاج واحدة من الفلسطينيين القلائل الذين كتبوا عن سوء استخدام الصهيونية لعلم الآثار تناولت كتابات يادن بالبحث (Abu Al-Haj 2001:1) ولسوء الحظ قامت أبو الحاج بنشر إنتاجها قبل وقت قصير جدًّا من الانفجار الداخلي الذي شهده علم الآثار الإسرائيلي.

(8)- للدفاع عن التناول العلمي للتاريخ (محاولة فهم التاريخ من مظور علمي) انظر إيانز 1997.

(9)- المزمور الثالث والعشرون من مزامير داوود... وقد أوردت النص كاملًا؛ لأن المؤلف اقتبسه منقوصًا عن كتاب أبا إيبان (Eban 1984:48). (المترجم)

(10)- خطيئة داوود وخداعه: وفي ربيع العام التالي، في الموسم الذي اعتاد فيه الملوك الخروج للحرب، أرسل داوود قائد جيشه يوأب على رأس قواته حيث هاجموا بني عَمون وقهروهم، وحاصروا مدينة ربّة، أما داوود فمكث في أورشليم. وفي إحدى الأمسيات نهض داوود عن سريره وأخذ يتمشى على سطح قصره، فشاهد امرأة ذات جمال أخاذ تستحم. فأرسل داوود من يتحرى عنها. فأبلغه أحدهم: هذه بشبع بنت أليعام زوجة أوريا الحثّي، فبعث داوود يستدعيها. فأقبلت إليه وضاجعها إذ كانت قد تطهرت من طمثها، ثم رجعت إلى بيتها. وحملت المرأة فأرسلت تبلغ داوود بذلك. فوجه داوود إلى يُواب قائلًا: «أرسل إليَّ أوريا الحثّي». فبعث به يُواب إلى داوود. وحين مثل لدى داوود استفسر منه عن سلامة يُواب والجيش وعن أنباء الحرب. ثم قال داوود لأوريا: «امض إلى بيتك واغسل رجليك». فخرج أوريا من بيت الملك، وأرسل له هدية إلى بيته. غير أن أوريا لم يتوجه إلى بيته، بل نام مع رجال الملك عند باب القصر. فأخبروا داوود قائلين: «لم يتوجه أوريا إلى بيته». فسأله داوود: «ألم ترجع من سفر؟ فلماذا لم تمض إلى بيتك؟». فأجاب: «التابوت وجيش إسرائيل ويهوذا معسكرون في الخيام، وكذلك سيدي يوآب، وبقية قواد الملك مخيمون في العراء، فهل آتي أنا إلى بيتي لآكل وأشرب وأضاجع زوجتي؟ أقسم بحياتك، لن أفعل هذا الأمر». فقال داوود لأوريا: «امكث هنا اليوم وغدًا أطلقك».. فمكث أوريا في أورشليم ذلك اليوم حتى صباح اليوم التالي. ولبى دعوة الملك، فأكل في حضرته وشرب حتى أسكره داوود. ثم خرج عند المساء ليرقد في مضجعه إلى جوار رجال سيده، ولم يتوجه إلى بيته أيضًا.

- مقتل أوريا: وفي الصباح كتب داوود رسالة إلى يوآب، بعث بها مع أوريا، جاء فيها: «اجعلوا أوريا في الخطوط الأولى حيث ينشب القتال الشرس، ثم تراجعوا من ورائه ليلقى حتفه». فعين يوآب أوريا في أثناء محاصرة المدينة، في أشد جبهات القتال ضراوة، حيث احتشد أبطال الأعداء. فاندفع رجال المدينة لمحاربة يوآب فمات بعض رجال داوود ومنهم أوريا الحثي. فبعث يوآب رسولًا ليُطلع داوود على أنباء الحرب، وأوصاه قائلًا: «إن رأيت أن الملك بعد إبلاغه أنباء الحرب قد ثار غضبه وقال لك» لماذا اقتربتم من سور المدينة للقتال؟ أما علمتم أنهم يرمون بالسهام من فوق السور؟ من صرع أبيمالك بن يربوشث؟ ألم ترمه امرأة بحجر رحى من على السور فمات في ناباص؟ لماذا اقتربتم من السور؟ قد مات عبدك أوريا الحثي أيضًا».

(11)- تستطيع الحصول على شريط الفيديو والكتاب المبني على السلسلة التلفزيونية، انظر ستجريس 2001م السلسلة التلفزيونية التي قدمها جون ماكارثي يمكن الحصول عليها من CTVC. email: library@CTVC.co.uk .

(12)- يوفر كتاب فينكلستاين وسيلبرمان أحدث رصد للموضوع حتى الآن.

(13)- توجد أيضًا دعاية قوية مناهضة للملكية وهي كتب صامويل. وأريد هنا أن أشكر موسى ماكوڤر على ملاحظته العميقة التالية: «يحتمل أن تكون هذه هي أفضل أسفار العهد القديم جمالًا وإثارة. ولا شك أن من كتبوها كانوا رجال دين مناهضين للملكية، وكلهم رفض رفضًا حادًا الممارسات الملكية، ولا يفوتون فرصة دون أن ينتقدوا فيها داوود الذي يرونه شريرًا حقيقيًّا».

(14)- كتاب زيروباڤل رائع وحساس، ولكنه أيضًا، وبلا شفقة، يكشف العديد من التشوهات الصهيونية للتاريخ اليهودي القديم. فانظر على سبيل المثال لتحليها الناقد للطريقة التي حولت الصهيونية إلى أسطورة كل من الانتحار الجماعي في مسادا بعد سقوط المعبد الثاني في القدس، أو بعد ذلك التمرد اليهودي على الرومان بقيادة القائد الأسطوري بار كوخبا. فاز الكتاب في عام 1م بجائزة سالو بارون المرموقة التي تمنحها الأكاديمية الأمريكية للبحوث اليهودية. أود أن أشكر ديڤيد سزاراي البروفيسور بجامعة ساوثهامتون لأنه لفت نظري لهذا الكتاب.

(15)- لسوء الحظ من غير الممكن أن نعطي في هذا الفصل لتلك الشخصية غير العادية المثيرة للجدل، والتي تعرف بيوسيفوس، ما تستحقه من اهتمام. أفضل دراسة له هي دراسة تيسا راجاك 1983م. ولأن يوسيفوس شخصية لا يمكن إلى حد بعيد الاعتماد عليها، فإن استخدامي له في هذا الفصل يعتمد حصريًّا على التفسيرات الحديثة الجادة المبنية على دراسات عميقة.

(16)- حكام الإمبراطورية الفارسية أعادوا القيادة اليهودية الدينية إلى القدس بعد أن يطروا على بابل. وكان الحاكم السابق قد دمر المركز الروحي السابق لليهود في القدس وقام بعد ذلك بنفي اليهود أو على الأقل قادتهم الدينيين إلى بابل. وهناك بعض الحقائق التاريخية في هذه الحكاية المعروفة من حكايات الكتاب المقدس. ومن أجل الحصول على مقدمة لتحليل علماني انظر مقدمة كتاب بواز زفيرون 1995:15-16 وهو كاتب إسرائيلي تقدمي غير صهيوني. انظر أيضًا الملاحظة رقم 15 بعد ذلك. وللتعرف على رؤية للتاريخ اليهودي تعتبر نصف علمية ونصف محطمة للقيود الدينية انظر كتاب Jewish History. Jewish Religion للكاتب الإسرائيلي الراحل شاحاك الذي كان ناشطًا إسرائيليًّا في مجال حقوق الإنسان وكان معاديًا للصهيونية.

(17)- لا تحظى وجهة نظر مودرزيجفسكي بالكثير من القبول ولا الانتشار، فالإسكندر واجه الفرس والتراث الثقافي المصري، وخلط بين العناصر الهيللينية (اليونانية) والعناصر الآسيوية في المناطق ذات الحضارات القديمة (مصر والشام والعراق وفارس والهند)؛ ولهذا عرفت الفترة التالية لدى مؤرخي العالم القديم باسم الحضارة الهيللينستية، أي الجامعة بين الإغريق والآسيويين. (المترجم)

(18)- تشيريكوڤر وفاكس قاما بشكل مشترك بتحرير مجموعة مذهلة من البرديات تم اكتشافها في الصحراء المصرية وعرفت باسم Corpus Papyrorum Judaicrum (CPJ). وهذه كانت بقايا مستندات رسمية وشبه رسمية قانونية تعكس قوانين الحياة الاجتماعية في مصر تحت حكم البطالمة اليونان ثم بعد ذلك الحكم الروماني.

(19)- هذا مشابه بشكل مذهل للجدل حول أرض الوطن، واليهود في مصر، الذي دار بعد ذلك بألف سنة. انظر الفصل الرابع.

(20)- اشتكى بن جوريون لدويتشر من اليهود الكوزموبليتانيين عديمي الجذور. (Deutscher

.(1968:92)

(21)- يقول النص «وكان في قيصرية رجل اسمه كرنيليوس قائد مئة من الكتيبة التي تُدعى الإيطالية، وهو تقي وخائف من الله مع جميع بيته يصنع حسنات كثيرة للشعب ويصلي إلى الله في كل حين». ليس في هذا ما يؤيد زعم يوسيفوس، والذي يقول كثير من المؤرخين إنه يجب أن يؤخذ كلامه بكل حذر. (المترجم).

(22)- للاطلاع على تحليل مختصر ولكنه رائع في وضوحه حول كيف أن اليهودية كادت أن تصبح دين العامة في الإمبراطورية الرومانية، متضمنًا وصفًا لتدخل القديس بولس، انظر كتاب هارمن (Chapter:6 :1999).

(23) هذا النقش الرائع يعيدنا إلى النقطة التي تناولناها في نهاية الفصل الأول حول كيف أن السامرة اعتبرت نفسها إسرائيل الحقيقية.

(24)- وجاءت امرأة سامرية إلى البئر لتأخذ ماء، فقال لها يسوع: «اسقني».. فقالت: «أنت يهودي وأنا سامرية، فكيف تطلب مني أن أسقيك؟ فإن اليهود كانوا لا يتعاملون مع أهل السامرة» يوحنا: 4: 7-9.

(25)- وفقًا لشين كوهين فإن يوسيفوس أراد أن يعترف إليعازر بشكل علني بأنه هو وأتباعه الذين أعلنوا الحرب قد أخطؤوا أنهم الآن يعاقبون من الرب بسبب خطاياهم (Cohen 1983:396) هذه المقالة كبتها كوهين في Vermes and Neusner عام 1983م. ويجادل كوهين هنا بأن يوسيفوس استخدم الخطبة ليشير إلى روما المتمردين اليهود كانوا على خطأ حين أشعلوا @

التمرد، وهو موقف يتلاءم مع شخصية يوسيفوس عندما استقر ليكتب تاريخه، وسعى إلى التقرب من روما بعدما تم سحق التمرد. وكما يقول راجاك بشكل أكثر رقة، فإن «مجرد إعادة توجيه خطابه وتحويله إلى مدح أبناء بلده (في مسادا)، تلك المعادلة الموالية للفلاڤين والرومان تأتي مليئة بالتناقضات (Rajak 1983:221)، وللاطلاع على تفسير حديث مقروء شيق، وإن كان مضللًا، بعض الشيء للتمرد اليهودي ضد الرومان، انظر فولكنر (2002) ونقدي الودود له في دورية International Socialism العدد رقم 98 وقد قام فولكنر بالرد على نفس الدورية العدد رقم .101

(26)- إحدى لفائف البحر الميت التي تم اكتشافها في موقعة مران في القرن العشرين. لفائف البحر الميت هي واحدة من أهم المصادر التاريخية حول اليهودية القديمة.

(27)- تمرد الشتات في عام 117 حطم المجتمعات اليهودية في مصر والقورينية (ليبيا اليوم)، ويوجد الكثير من الإشارات إلى ذلك في كتاب باركلي (1996م).

(28)- لسوء الحظ فإن المساحة المتاحة لا تقف دون مناقشة هذا التمرد غير المفهوم بشكل مفصل. للاطلاع على نقد ساخر للمحاولة الصهيونية الحديثة لدمج باركوخبا انظر وزير باقل (Chapter 4 , 7 and 10 :1995).

(29)- وجدير بالملاحظة هنا أن المثقفين اليهود كانوا عمالًا حرفيين (Goodman: 1983:93).

(30)- على ما يبدو فإن الدليل يأتي بشكل أساسي من منطقة الحدود مع الجليل (Goodman:1983:41-53).

(31)- المقعد التعليمي اليهودي في بابل في ذلك الوقت، وتحت رعاية الممالك الفارسية المتجددة، وعلى الرغم من أننا لا نعرف الكثير عنه، إلا أنه في الحقيقة أهم لتطور اليهودية في الحقبة الزمنية المتداولة. ينظر إلى التلمود البابلي على أنه أهم بكثير من التلمود الفلسطيني، ولا يمكن بأي منطق أن تعتبر أن هذه المجتمعات اليهودية، التي عاشت تحت الحكم الفارسي، كانت تعيش في المنفى. الحقيقة أنهم يحسبون عمر النفي الديني من زمن نبوخذ نصر (انظر ملاحظة رقم3) ولكن أغلب هؤلاء اليهود لم يتجهوا صوب القدس بعد أن أعاد لها الفرس دلالتها الدينية. أبا إيبان، السياسي الصهيوني الذي أشرنا إليه في الفصل الأول، كان أيضًا عالمًا في الدراسات الفارسية. وحتى إيبان يستنتج أن اليهود عاشوا في منطقة بابل «دون انقطاع» Eban 101 :1984 لفترة أطول من خمسمئة سنة قبل النفي! وسيتناول الفصل العاشر قصة اليهود في بابل بمزيد من التفصيل.

(32)- كيرليباخ (1978م) على سبيل المثال، خصص كتابه في محاولة إظهار وجود ما يربط بين مارتن لوثر وكارل ماركس، «اليهوديين الكارهين لأنفسهما»، وبين أدولف هتلر.

(33)- البروفيسور ماكسيم راديسون نشر مخطوط ليون عن المسألة اليهودية في جامعة السوربون عام 1968م.

(34)- أوراق الجنيزا، وهي أكبر دليل وثائقي على أحوال اليهود في العالم الإسلامي (فيما بين القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي والسابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي) تثبت أن اليهود في غالبيتهم لم يكونوا يعرفون العبرية. والوثائق نفسها مكتوب معظمها باللغة العربية بحروف عبرية، أو بحروف عربية. ومن ناحية أخرى، فإن يهود أوروبا لم يستخدموا العبرية سوى في المسائل الدينية، وعرف يهود حوض الراين لغة اليبديتش التي كانت من اللغات الجرمانية مع خليط من كلمات وعبارات عبرية. وعلى أي حال، فإن أحوال اليهود الأوروبيين آنذاك، في ظل الهوس والتعصب الكاثوليكي، والذي أذكت الحروب الصليبية نيرانه، لم يكونوا في وضع يسمح لهم، أو للغتهم بهذا الدور العالمي المزعوم، بدليل أن يهود أوروبا في تلك الفترة لم يبرز بينهم اسم واحد في أي مجال، باستثناء اليهود الذين عاشوا تحت حكم المسلمين في الأندلس. (المترجم)

(35)- استخدم العرب والمسلمون مصطلح الفرنج للدلالة على أوروبا الغربية عمومًا، كما أنهم أطلقوا على الأراضي البيزنطية وسكانها (ومنهم اليونانيون) اسم «الروم». (المترجم)

(36)- انظر الدورية السنوية Studies in Polish Jewry، التي يحررها أنطوني بولونسكي ووفقًا لأحد الحكماء اليهود فإن سبب تسمية بولندا بهذا الاسم هو أنه يأتي من كلمة Polin، التي تأتي من Poh lin بالعبرية والتي تعني «هنا سوف ترسون».

(37)- وهو الذي صدم أتباعه بتحوله إلى الدين الإسلامي.

(38)- من المفهوم أن جويتن مشغول بالبحث التفصيلي في التفاعلات الداخلية للمجتمع اليهودي من الناحية الدينية والاجتماعية، بالإضافة إلى علاقة اليهود بالإطار السياسي والاقتصادي والثقافي الإسلامي الأوسع. والتركيز هنا ربما بشكل حصري على الجانب الثاني.

(39)- انظر تعليقات إدوارد سعيد على لويس (1995).

(40)- رتب ابن كلس دروسًا في الفقه الإسلامي وحسن إسلامه بشهادة المؤرخين المعاصرين، ومن ناحية أخرى، فإن العصر الفاطمي اشتهر بأنه العصر الذهبي لأهل الذمة من اليهود والنصارى الذين نعموا بمعاملة غير مسبوقة، وتقلدوا أعلى الوظائف بعد وفاة ابن كلس بسنوات طويلة. (المترجم)

(41)- أي لم تكن عالمية، لأنها لم تصل لبقية العالم في ذلك الوقت، كاليابان شرقًا والأمريكتين غربًا. (المترجم)

(42)- المجتمع الديني القانوني قد يكون تعريفًا أفضل إذا ما وضعنا في اعتبارنا فكرة الأمة الملتصقة بالعقلية الحديثة. وأنا ممتن لفيل مارفليت لهذه الملاحظة.

(43)- عاش الشعراني بعد الفترة التي تغطيها الجنيزا بثلاثة قرون. (المترجم)

(44)- الجزية لها ثلاث درجات، مع إعفاء غير القادرين والنساء والأطفال منها، ولم تكن تشكل عبئًا على اليهود والمسيحيين. ومن ناحية أخرى، فإن يهود أوروبا آنذاك، كانوا يدفعون ضرائب باهظة ويتعرضون لمصادرات كثيرة ولم يحدث أن كانت أعداد كبيرة منهم تتحول إلى المسيحية. وهناك مسألة أشارت إليها المصادر التاريخية كثيرًا؛ وهي أن اعتناق بعض كبار اليهود الدين الإسلامي كان يتبعه على الفور اعتناق عدد كبير من عامة اليهود للإسلام. (المترجم)

(45)- اعتنق موسى بن ميمون الإسلام طمعًا في المنصب الذي حظي به في بلاط صلاح الدين الأيوبي، وعندما اكتشف أنه لم يكن مسلمًا حقًّا سمح له السلطان بالعودة إلى دينه الأصلي دونما عقاب، ولم يكن في الأمر شجاعة من موسى بن ميمون حسبما يوحي جويتين. (المترجم)

(46)- على الرغم من تخصصي في هذه الفترة من تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، فإنني لم أسمع أن هناك سجلات للشرطة، فضلًا عن أن طبيعة هذه المؤسسة وطريقة عملها في تلك الفترة لم تكن ذات مهام ثابتة بحيث يكون لها سجلات وكانت مهامها مرتبطة بالوالي أحيانًا، وبالمحتسب أحيانًا أخرى، وبصاحب الشرطة في أحيان ثالثة. وفي كل الأحوال كانت مسؤولة عن الأمن والنظام العام، على حين كان الطب والمستشفيات خارج مسؤوليات الدولة وكان ممولًا @

من خلال الأوقاف. (المترجم)

(47)- كتاب المسألة الفلسطينية (1999) الذي حرره إيلن پاپي ساعد على كسر الثلج الذي يغطي هذا الموضوع.

(48)- إن تقديم تاريخ دقيق للفلاحين الذين لا يتركون آثارًا مكتوبة عن حياتهم هو أمر شديد الصعوبة. وتعوض دراسة دوماني الرائعة هذه المشكلة من خلال النظر في المصادر المحلية، مثل سجلات المحكمة الشرعية الإسلامية والمجلس الاستشاري في نابلس، التي كانت تتضمن عرائض الفلاحين وأوراق التجارة العائلية الخاصة.

(49)- هذا لا يعني أن الفلاحين الفلسطينيين في نابلس هم من نسل السامريين. قد يكون

بعضهم كذلك، ولكن علينا أن نتذكر أنه، كما بين الفصل الأول، كيف كانت الثقافة الكنعانية قوية، وهو ما يعني أن الكثير من الفلاحين قاوموا انتشار اليهودية لأسباب مختلفة.

(50)- هذه ترجمة اجتهادية؛ لأنني لم أعثر على نص القصيدة باللغة العربية. (المترجم)

(51)- كان الموقف الرسمي هو أن الإمبراطورية العثمانية كانت تملك معظم الأرض، بينما يدفع الفلاحون ضريبة لاستخدام الأرض. ولكنهم كانوا يمارسون ما يعرف بحق الانتفاع، وهو ما يعني أنه طالما أن الأرض لم تترك بغير زراعة لمدة ثلاث سنوات فإنها تعتبر ملكًا لهم، وبالفعل كانوا يفعلون ذلك، فقد كانوا يقومون بشراء وبيع الأراضي، وإن كانوا في أغلب الأوقات وبسبب الديون المتراكمة يتجهون للبيع.

(52)- عدم وجود مساحة كافية يمنعنا من مناقشة مصير صناعة القطن الفلسطينية والتي يبلغ عمرها أكثر من ألف عام، ازدهرت بشكل كبير، ثم انتكست في منتصف القرن التاسع عشر. وللمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع انظر دوماني (1995م) فصل «نسيج وتجارة القطن».

(53)- بيع السلَم، هو أن يقبض البائع الثمن مقدمًا، ويُسلم البضاعة آجلًا. (المترجم)

(54)- من المؤسف أنني لا أعرف نص هذه الأغنية الشعبية والتي تبدو جميلة في لغتها الأصلية، ومن المؤسف أيضًا أن هذه الترجمة أفقدتها جمالها الحقيقي واعتذر للقارئ لأنني لم أستطع الوصول إلى النص الأصلي. (المترجم)

(55)- في الصناعات الهامشية، لبى العمال الذين جاؤوا من أقليات عرقية والذين ناضلوا من أجل الحصول على حقوقهم في أحيان كثيرة دورًا لا يتناسب مع حجمهم في توجيه الغضب السياسي المتصاعد في اتجاه تقدمي. ففي عام 1977م كان من حسن حظي أنني كنت مراسل صحيفة العامل الاشتراكي لتغطية الإضراب الذي قامت به العاملات الآسيويات في مصنع جرانويك الصغير في شمال لندن. تمكن الإضراب من كسب انتباه كل الحركة النقابية والعمالية في بريطانيا، وقام أرثر سكارجيل ممثل عمال المناجم في يورك شاير بزيارتهم، وكذلك فعل وزراء في حكومة حزب العمال من بينهم شيرلي ويليامز، وكان الإضراب يمثل كلًّا من الدفاع عن الحقوق النقابية والتضامن بين العاملات البيض والآسيويات في وقت كانت الجبهة الوطنية العنصرية تحرز نجاحات ملحوظة على الصعيد الانتخابي في المناطق العمالية للبيض فقط.

(56)- لم يتعاف البوند تمامًا بعد 1905م وعلى الأقل لم يرجع إلى قوته السابقة بأي صورة فرغم أن عملية بناء الحزب بدأت ببطء في عام 1910م، إلا «أن الأمور لم تعد كما كانت فالبوند أصبح الآن يواجه منافسة من حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي الراديكالي -من المناشفة والبلاشفة- والذي طور من نشاطه بين العمال اليهود. وبشكل عام نجحت الأحزاب الاشتراكية الروسية في مقاومة الأزمة أفضل من البوند» (Weinstock 1984:223).

لمعرفة المزيد عن تاريخ الحركة العمالية اليهودية في القرن العشرين، انظر ناثان واينستوك (Pain de misere , histoire du mouvement ouvrier juif en Europe (1984 وهو متوافر فقط باللغة الفرنسية. وأنا ممتن لسابي سيجال لأنه قام بترجمة هذه الفقرة من الكتاب.

(57)- فهل كان الثوار اليهود يقودون الحركة الاشتراكية والشيوعية، بينما يعملون فعليًّا لصالح

القومية اليهودية والأرض الموعودة والشعب المختار؟ (المترجم)

(58)- واينستوك (1979م)، وللأسف نفدت طبعات الكتاب الذي يظل واحدًا من أفضل عمليات التاريخ الماركسية للاستيطان الصهيوني في فلسطين.

(59)- يتذكر توني كليف مقهى يهوديًّا في تل أبيب هوجم وتحطم تقريبًا فقط بسبب شائعة تقول إن هناك عربيًّا يعمل في مطبخه (Cliff 2000:8).

(60)- هذه كلمات كارل كاوتسكي الذي حمل تراث أفكار ماركس مباشرة بعد رحيل فردريك إنجلز شريك ماركس طوال مشوار حياته.

(61)- كتاب بيت حالامي (1992) مصدر جيد بشكل خاص في عرض قصة نجاح اليهود في بريطانيا.

(62)- مقتبس من بول فوتر 1980:18 روبرت ستيوارت ڤايكونت كاسلريه كان وزير حرب في عامي 1806-1807م و1807-1809م ثم وزيرًا للخارجية عام 1812م. چون سكوف فايكونت أول ألدون كان رئيسًا لمجلس اللوردات هنري أدينجتون فايكونت أول لدون، كان رئيسًا لمجلس اللوردات. هنري أدينجتون ڤايكونت أول سيدموث، كان رئيسًا للوزراء في الفترة ما بين 1801 و1804 ووزيرًا للداخلية بين عامي 1812 و1821م.

(63)- «نفاق ورياء كنفاق التماسيح»... ويا لها من شجرة ممتدة الفروع على المستقبل. تذكر ديڤيد بلانكت وزير الداخلية البريطاني وهو يستعير كلمة تاتشر الساحرة «يُغرقون» وهو يشتكي في عام 2003م من اللاجئين السياسيين، وفي الوقت نفسه يصر على أن بريطانيا ستحافظ على التزاماتها تجاه طالبي اللجوء السياسي.

(64)- يرصد ليڤين 1992م سلوك الصهاينة الرهيب أثناء محاولتهم فرض أنفسهم على قمة المجتمع اليهودي في بريطانيا في دراسة عميقة عن واحد من الشخصيات غير الصهيونية البارزة في هذه الفترة والذي نسي بشكل أو بآخر الآن وهو لوسيان وولف..

(65)- الصهيونية بلا شك هي السبب الرئيس وراء «معادلة السامية» في العالم العربي والإسلامي، وسوف أعود إلى هذه النقطة في الفصل الأخير.

(66)- في الفصل الخامس كنت ناقدًا لاذعًا لكتاب Oringins ofZiomism لڤيتال، وهو الجزء الأول من ثلاثيته عن تاريخ الصهيونية. ورغم ذلك فإن قراءة الجزء الثالث من المجموعة The critical Phase مهمة جدًّا لنبدأ في فهم الإجراءات الغريبة التي أثمرت عن وعد بلفور.

(67)- ينكر بريمو ليڤي أنه كان شاهدًا حقيقيًّا: انظر أسبابه مذكورة في كتاب هوبسباوم 1 شهادات الهولوكوست وفنه يتطرقون أيضًا إلى هذا الموضوع، الذي لا توجد كلمات قادرة على وصفه، وهو مسألة بقاء يهود على قيد الحياة على حساب موت يهود آخرين. انظر المشهد البربري في فيلم Shoah للاندز مان، النص المكتوب للفيلم (1985:114-16) وأمثلة أخرى في كتب الكارتون غير العادية maus الجزء الأول والثاني. (Spieleglman 1987and 1992).

(68)- أود أن أشكر موسى ماكوڤر لأنه لفت انتباهي إلى هذا الكتاب المنشور بشكل سري.

)69)- هذا الجزء من الرسالة استشهد به أن إسرائيليًّا في بوبر 1972م كان اسمًا مستعارًا

استخدمه موسى ماكوڤر وأكيڤا أور، الإسرئيليان الراديكاليان اللذان بنيا تحديًا كبيرًا للنفوذ الصهيوني وسط الحركة الطلابية الراديكالية العالمية في 1968م وما تبع هذه الحركة.

(70)- بعض المستندات المتعلقة باتفاقية التهجير «الترانسفير» أعيد طبعها في كتاب برينر 2002م وأقدم تعليقًا نقديًا على تناول برينير في الملاحظة التالية.

(71)- مشكلة تناول برينر يمكن اختصارها في العنوان الفرعي لكتابه Documents كتابه السابق Zionism in the Age of the Dictators1983 كان إبداعًا حقيقيًا يظهر بعض الحالات المريعة التي تعاون فيها الصهاينة مع النازيين في أوقات معينة. ويظهر الكتاب قدرة الصهاينة على محاكاة معذبها في بعض الأوقات. ولكن من الغباء أن تصل إلى استنتاج بأن التعاون يمكن وضعه على العنوان الفرعي لكتاب برينر Documents الصهيونية، كانت قادرة على جدارة، على استثارة المقاومة ضد النازيين، كما يوضح زوكر مان أحد قادة انتفاضة جيتو وارسو في مذكراته الضخمة A Surplus Memory. صحيح أن زوكر مان نفسه كان ناقدًا لكسل القادة الصهاينة عندما يتعلق الأمر بالإنقاذ والمقاومة، إلا أنه لم يشك أبدًا في كون الصهيونية نفسها مسؤولة عن ذلك. انظر أيضًا رواية ليڤاي الرائعة التي يحمل جزء منها سيرة ذاتية للكاتب وهي رواية If Not Now. When? 1987 التي تحكي قصة مناضلين يهود يحاربون النازيين في الغابات. كون أن هذه الصهيونية نفسها استخدمت مناضليها ومقاوميها الأبطال ضد النازية لتحقيق نتائج متناقضة تمامًا أيديولوجيًا في فلسطين، هو أمر آخر.

(72)- الخروج أصبح أسطورة بنفس الدرجة في بلدي ومسقط رأسي.

(73)- للتعرف على إشكالية رد الفعل العربي، انظر الفصل الأول في كتاب پاپي «المعركة الدبلوماسية».

(74)- ولكننا نعلم أن ذلك ليس مقصورًا على الحقبة النازية. ففي عام 1994م ذبح نحو مليون شخص في رواندا في مئة يوم فقط، وهو معدل للقتل أعلى بكثير من معدل الهولوكوست. وقد استخدمت الأمم المتحدة في وصفها ما حدث تعبير الإبادة الجماعية ولأول مرة منذ الهولوكوست. وكان ما حدث هو محاولة منظمة للقضاء على مجموعة عرقية وهي التوتسي من قبل حكومة الهوتو القوية، وكان الهوتو يمثلون الغالبية في رواندا. وقد أطلق الهوتو على عمليات القتل هذه «الحل الأخير». فرق القتل الهوتية تم تجنيدها بشكل مباشر من رحم الانهيار الاقتصادي الذي شهدته البلاد في أواخر الثمانينيات. وكان رجل إنجليزي قد أدخل علم العرقيات إلى رواندا في القرن التاسع عشر، وبعد دراسة متأنية توصل إلى أن التوتسي هو جنس أرقى، ولهم -في أغلب الظن- أصول أوروبية. وبعد ذلك لعبت بلچيكا التي احتلت البلاد على الخلافات بين الهوتو والتوتسي بحيث جعلتها سمة مميزة لرواندا. وفي فترة الإبادة الجماعية لعبت دعاية الهوتو على هذه الخلافات. هذه المعلومات من كتاب فيليب جوريفيتش 1999م.

(75)- على الرغم من عدم وجود سلطة دولية جادة لها القوة أو الرغبة في تنفيذها.

(76)- لفت ماكوڤر إلى ما يسميه الفصل الناقص في كتابي والذي يجب أن يكون الفصل التالي وفقًا للترتيب الزمني. هذا الفصل كان يجب أن يتضمن كل الأساطير الصهيونية التي أحاطت بحرب 1948-1949م. ولكن لحسن الحظ، كما يقول، فإن هناك كتابًا كاملًا وليس فصلًا واحدًا يدحض هذه الأساطير واحدة واحدة. هذا الكتاب هو حياته لكنه غير رأيه في نهاية

حياته، أما الأساطير التي دحضها الكتاب فهي (أ) الصهاينة قبلوا قرار الأمم المتحدة بالتقسيم وأنهم كانوا يخططون للسلام. (ب) العرب رفضوا قرار التقسيم وخططوا للحرب. (ج) الفلسطينيون هربوا بشكل طوعي بهدف إعادة الغزو. (د) كل الدول العربية اتحدت لطرد اليهود من فلسطين. (هـ) الاحتلال العربي جعل من الحرب أمرًا لا يمكن تجنبه. (و) إسرائيل التي لا تستطيع الدفاع عن نفسها واجهت التدمير من قبل جالوت العربي. (ز) إسرائيل كانت دائمًا تسعى للسلام ولكن لم يكن هناك أي زعيم عربي متجاوب.

(77)- وأنا أنهي كتابة هذا الفصل في صيف 2003م، نشر العالم الفلسطيني ناصر عروري كتابه Dishonest Broker: The US Role in the Middle East and Palestine. وهو كتاب ممتاز يجب قراءته مع تشومسكي.

(78)- لتحليل موضوعي للمساعدات العسكرية الأمريكية لإسرائيل يمكنك، زيارة موقع Washington Report on Middle East Affairs على الإنترنت تحت عنوان المساعدات الأمريكية المالية لإسرائيل: الأرقام والحقائق والتأثير.

(79)- في استطلاع حديث، ديسمبر2005، أبدى 64٪ من الشعب الفرنسي موافقته على السياسة الاستعمارية لفرنسا. (المترجم)

(80)- موقع Middle East Research and Information Project: www.merip.org

(81)- السخرية والازدراء هنا، أنه على ياسر عرفات أن يقول لأمريكا عمي سام، تعبيرًا عن الرضوخ والتنازل التام. (المترجم)

(82)- من اتفاقيات أوسلو. (المترجم)

(83)- هل تتكرر نفس السياسة الآن في مصر ولبنان والعراق؟ وهل بقية دول الشرق الأوسط في الطريق. (المترجم)

(84)- ولكن بعد خمسين سنة، أصبحت الحكومة المصرية في حالة ود وصفاء مع الصهيونية ومع شارون صاحب السجل الإرهابي المنفرد، ونفور ورفض، إن لم يكن عداء للإخوان المسلمين.

(85)- بحث جويل بيني 1998م رائع، ولكني أتفق معه بشكل جزئي في تفسيره، حيث يرى أن كلًا من القومية العربية والصهيونية مسؤول بنفس الدرجة عن إبعاد اليهود المصريين.

(86)- هذا أيضًا كان مصير يوسف درويش. وقد حالفني الحظ وقابلت هذا القائد الشيوعي المصري السابق في القاهرة عام 2002م. كان درويش وهو في عامه الواحد والتسعين بصحة جيدة وهو يتحدث بحرية وعمق عن خلفيته اليهودية وعن عدائه للصهيونية والدمار الذي لحق بالقضية الشيوعية بسبب اعتراف ستالين بإسرائيل. لقد كان لدى يوسف درويش كل حجة للانفصال عن أصوله المصرية. فقد تعرض للتعذيب مع العشرات غيره من الشيوعيين في سجون عبد الناصر. بل إن الشيوعيين المصريين أنفسهم فرضوا حظرًا يمنع تولي اليهود الأعضاء من الترشيح لعضوية اللجنة المركزية، وذلك على الرغم من تحول ثلاث من القيادات القادرة على ذلك إلى الإسلام، وكان بينهم يوسف درويش. كان ذلك مثالًا قاسيًا وإن كان دقيقًا لعدم قدرة حتى الأطياف اليسارية في الثقافة السياسية على الوقوف في وجه الخطاب السائد الذي

حركته الصهيونية وتبنته القومية العربية خاصة بعد حرب السويس. كل يهودي، حتى من أسلم منهم، كان خائنًا محتملًا للأمة العربية. وبالطبع يمكن أن نفسر ذلك بأنه معاداة عربية للسامية، ولكن الأهم من ذلك أنه عكس حجم نجاح الصهيونية في تحديد تعريف اليهودي في الشرق الأوسط لتجعله يعني مواطنًا محتملًا للدولة اليهودية المقامة على أرض يهودية مسروقة. ولكن لم يؤثر أي من ذلك على حماس درويش لمعتقداته اليسارية أو على حبه لمصر وثقته في إمكانيات شعبها.

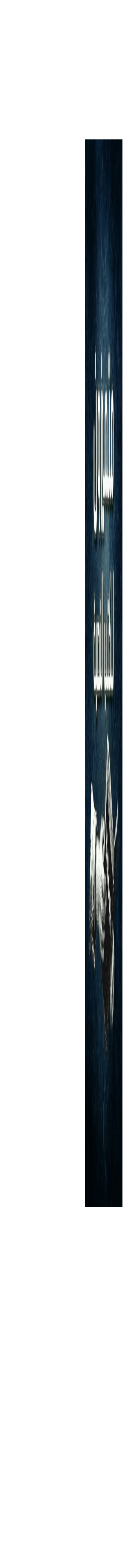
للمزيد من المعلومات عن يوسف درويش انظر المقال الذي كتب عنه في مجلة كايرو تايمز التي تصدر @

باللغة الإنجليزية في عددها الصادر في نوفمبر 2000م، ويناقش جويل بينين هو الآخر يوسف درويش وباقي الشيوعيين اليهود في كتبه:

Was the Red Flag Flying There? Marxist و The Dispersion of Egyptian Jewry Politics and rheArab -Israeli Conflict in Egypt and Israel, 1948-1965.

(87)- يحتمل هذا النص معاني كثيرة، وقد تكون متعارضة.. وقد استشهد به المؤلف كما هو تمامًا، أما رأي المؤلف نفسه في أسطورة أرض إسرائيل، فيمكن الرجوع له في الفصول: الأول والخامس والسادس.

(88)- انظر سيلبرستاين (1999م) ونيمني (2003م).



Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

فهرس المحتويات..